المملكة المغربية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
كلية الآداب والعلوم الانسانية
سايس – فاس

ⵜⴰⴳⵍⴷⵉⵜ ⵏ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵙⵉⴷⵉ ⵎⵓⵃⵎⵎⴷ ⴱⵏ ⵄⴰⴱⴷⵍⵍⴰⵀ
ⵜⴰⴳⴻⵎⴰⵙⵜ ⵏ ⵜⵙⴽⵍⴰ ⴷ ⵜⵎⴰⵙⵙⴰⵏⵉⵏ ⵜⵉⵏⵎⴳⴰⵔⵉⵏ
ⵙⴰⵢⵙ - ⴼⴰⵙ

Royaume du Maroc
Université Sidi Mohamed Ben Abdellah
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
Saïs -Fès

مركز دراسات الدكتوراه: اللغات والتراث والتهيئة المجالية
تكوين الدكتوراه: اللغات والآداب والتواصل
مختبر: المغرب: التاريخ والعلوم الشرعية واللغات

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية

في موضوع:

لسانيات التلفظ وتحليل الخطاب الروائي
رواية «الحنش» نموذجا
-دراسة تحليلية-

إعداد الطالب الباحث:
علي بوراس
رقم التسجيل: 2CED/16

إشراف الأستاذة:
الدكتورة زهور حوتي

تاريخ المناقشة: الخميس 04 فبراير 2021

لجنة المناقشة:

الدكتور عبد الإله قيدي	(كلية الآداب سايس فاس)	رئيسا
الدكتور بنقدور بنيونس	(كلية الآداب وجدة)	عضوا
الدكتور الحسن الهلالي	(الكلية متعددة التخصصات تازة)	عضوا
الدكتورة زهور حوتي	(كلية الآداب سايس فاس)	مشرفة ومقررة

الموسم الجامعي: 1441-1442هـ/2020-2021م

شكر وتقدير

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أتقدم بالشكر الجزيل للوالدين الكريمين أطال الله في عمرهما ومتعهما بالصحة الهناء، ولإخوتي على دعمهم لي طيلة مشواري الدراسي.

وتقديرا لجهود أهل الفضل علينا؛ نتقدم بالشكر الجزيل والامتنان الكبير للأستاذة الفاضلة **الدكتورة زهور حوتي**، على حرصها الدؤوب على تتبع هذه الأطروحة تصفحًا وتصويبًا ومراجعةً، إلى أن استوت على هذه الصيغة، وعلى توجيهاتها القيمة التي طوت أمامنا الكثير من المسافات البحثية التي تعيق مسار البحث والباحث.

ونتقدم بأسمى عبارات الشكر والتقدير إلى كل السادة الأساتذة والأستاذات، ونخص بالذكر أساتذة شعبة اللغة العربية بكلية الآداب سايس- فاس، والكلية متعددة التخصصات بتازة، الذين تفضلوا علينا بوقتهم الثمين، وبسطوا لنا يد العون على طول مسيرتنا البحثية والدراسية عموما. وندعو الله تعالى أن يجعل جهودكم جميعا في ميزان حسناتكم، وأن يسدد مساعيكم في سبيل العلم والتثقيف. عذرا لا يسعني أن أذكركم بأسمائكم.

والشكر موصول أيضا؛ إلى بعض من أصدقائي وصديقاتي، ذوي الأيادي الباسطة التي نالتني بالتعضيد والدعم، في لحظات كانت تلك الأيادي مثل يَدٍ مُدَّت من خلال الموج لغريق.

علي بوراس

مقدمة عامة

1. توطئة

لقد عبَّر علماء لسانيات التلفظ عن رغبة قوية في النهوض بالبحث اللساني وتطويره، حين عقدوا العزم على إعادة النظر في مجموعة من القضايا التي طالها الإهمال والتأجيل ومن بينها فعالية المتكلم وآثار ذاتيته في النص والخطاب. وقد حال التوجه العلمي الصارم للمناهج اللسانية البنيوية دون بلوغ هذه القضايا، أو لِنَقُل دون الخروج عن إطار الجملة وبنياتها التركيبية والترابطية الداخلية.

بعد تتبعنا[1] لمجريات التطور الذي عرفه البحث اللساني ابتداء من النصف الثاني من القرن المنصرم، اكتشفنا أنه تطور قد أسفر عن مجموعة من النتائج، أبرزها الإعلان عن ميلاد نظريات لسانية جديدة مثل نظرية أفعال الكلام ولسانيات التلفظ والتداوليات والسوسيولسانيات وعلم النفس اللساني وغير ذلك. وهو في حد ذاته إعلان عن مقاربات جديدة وعن رؤى مغايرة إزاء اللغة والخطاب ومنهجية تحليلهما.

إنها نظريات فوق لسانية تقارب اللسان في علاقته بالإنسان والمجتمع والذات المتكلمة. إنها نظريات، آمنت بفحوى هذه المقاربات ودورها في فهم الإنسان والنفس البشرية والمجتمع عامة، وذلك من خلال النظر في إنتاجه اللغوي في ضوء علاقاته الداخلية مثل علاقته بالذات المتكلمة وعلاقاته الخارجية كالعلاقات الاجتماعية.

وتعد لسانيات التلفظ من بين النظريات المنسوبة إلى ما يسمى بـ "لسانيات ما بعد البنيوية"، والتي تحاول البحث في أشكال التجلي والاختفاء التي تمارسهما الذات المتكلمة في الخطاب. هذه الذات التي تم وضعها، كما أشرنا، خارج دائرة البحث اللساني مع دو

[1]– نون الجماعة لا تعبر في هذا البحث عن تفخيم الذات أو الاعتزاز بها، وإنما تدل على أن هذه الأطروحة هي ثمرة عمل مشترك يتكون من جهد الطالب الباحث وتوجيهات الأستاذة المشرفة وتصويباتها القيمة.

سوسير وأنصاره البنيويين النسقيين. وقد أكدت جدارتها في تعميق البحث في اللغة والخطاب بواسطة مجموعة من الأعمال، وبالتطرق لقضايا جديدة لا تقل أهمية عن تلك القضايا التقليدية الضيقة التي كانت تتشبث بها اللسانيات البنيوية مثل قضايا البنيات الداخلية للغات الإنسانية وعلاقاتها المعقدة.

إن من بين البراهين التي تكشف عن أهمية لسانيات التلفظ وقيمة وجودها في ساحة البحث اللساني أنها قدمت جهازا مفهوميا أغنى اللسانيات وأخرجها من قوقعتها التي أوقعها فيها البنيويون عندما سجنوا اللغة وعزلوها عن الفرد والمجتمع وما يحيط بها من ظروف سياقية ومقامية. ثم إن هذا الجهاز المفهومي لم يقف عند حدود الأبحاث اللسانية والتداولية بل امتد إلى ساحة الدراسة الأدبية والسيميائية.

وتتمثل تجليات هذا الامتداد وهذا التوسع في ظهور فروع جديدة في الدراسة الأدبية متأثرة بلسانيات التلفظ، مثال ذلك نذكر "سيميائيات الهوى" أو "سيميائيات الذات" التي تقارب مقولة الذات أو ما يسمى بـ "الهوى" أو "التمشهد" «représentation» من منظور سيميائي، وقد شكلت لسانيات التلفظ مدخلا من المداخل التي ولج من خلالها ألجيرداس جوليان كريماس وزميله جاك فونتنيي عالم سيميائيات الأهواء، وتوّجا جهودهما بإصدار كتابهما المشترك "سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس (1991)"[2].

ويتجلى هذا الامتداد أيضا في بزوغ دراسات سردية جديدة ترتبط بها، وهي التي تسمى بـ"السرديات التلفظية" «Narratologie énonciative»، التي تعد فترة حاسمة في تاريخ الدراسات السردية، إذ بسبب الاستفادة مما جاءت به التلفظية انتقلت تلك الدراسات من التحليل البنيوي للسرد تحليلا معزولا عن واقع الفعل السردي وواقع شخوصه، وكأنه

[2]– ألجيراس جوليان كريماس وجاك فونتنيي، سيميائيات الأهواء، من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ترجمة سعيد بنكراد، دار الكتب الجديدة المتحدة، ط1، 2010.

نص خالٍ من الذوات ومستقل عن منتجه وظروف إنتاجه؛ إلى تحليل الفعل السردي تحليلا تلفظيا واجتماعيا، كالتحليل الذي كان يدعو إليه ميخائيل باختين في فترات سابقة. فبفضل انفتاح السرديات على لسانيات التلفظ، أصبح ينظر إلى السرد باعتباره فعلا لغويا تأثيريا يصدر عن ذات متلفظة ويوجّه إلى ذات أخرى متلفظة مشاركة، وتؤطره وضعية تلفظية محددة تُنسج عبر الإشاريات الموظفة في ذلك السرد.

بالإضافة إلى هذا؛ يمكن القول إن وجود تمييز بين السرديات التقليدية والسرديات الحديثة، يرجع بالأساس إلى تأثر علماء السرد بالنظريات اللسانية الحديثة، وعلى رأسها النظرية التلفظية، ولا نجانب الصواب إن قلنا إنه لولا هذه الأخيرة لما كان لهذا التمييز أن يكون بالأساس.

ومن هذا المنطلق؛ حفزتنا نتائج هذه التراكمات التي حقّقها البحث اللساني للخوض في البحث في جزء منها، وهو التراكم الذي حققته لسانيات التلفظ للكشف عن مستجداتها البحثية، وتجليات جدارتها وعمق مقاربتها وجهازها المصطلحي المتعلق بتحليل الخطاب، والخطاب الروائي على الخصوص.

2. أسباب اختيار الموضوع

يُعَدُّ التطور الذي حققته لسانيات التلفظ من بين الأسباب الموضوعية التي دفعتنا للخوض في البحث فيها وفي أصولها وقضاياها، كما دفعنا حجم الإفادة التي قدمتها للأبحاث السردية إلى أن نتتبع آلياتها المقترحة بصدد تحليل الخطاب الروائي. أما الأسباب الذاتية فتكمن في رغبتنا في تحقيق نوع من التراكم المعرفي بصدد هذا الموضوع والاستفادة من نتائج البحث التي توصلنا إليها في بحثنا بسلك الماستر الذي عنوناه بـ "لسانيات التلفظ الأصول والامتدادات، دراسة في المضمرات والإشاريات". ويشكل موضوع هذه الأطروحة أحد أبرز مخرجاته. وقد حاولنا استثمار الإطار النظري الذي تم التوصل

إليه وتجاوز المجال النظري لنظرية التلفظ إلى تطبيق جهازها المفهومي وإجراءاتها التحليلية على الخطاب الروائي لتبيان مدى نجاعة التحليل التلفظي وقدرته على سبر أغوار دلالات الأعمال الأدبية.

3. وصف متن الدراسة

لقد اخترنا رواية "الحنش" للروائي المغربي عبد الإله الحمدوشي، الصادرة عن منشورات دار التوحيدي في طبعتها الأولى سنة 2017، وهي من 207 صفحة، إذ وجدنا فيها بعض تمثلات الأشكال السردية للرواية الحديثة. فبعد قراءتها قراءة متأنية، لمسنا فيها الغلبة للطابع الحواري بين الشخوص أكثر من الوصف والسرد الذي يضطلع به السارد من خارج النص. وهذا ما يتيح لنا إمكانات للغوص في أشكال ظهور الذات في الخطاب الروائي، بالإضافة إلى أنها تعطي للبحث عدة صور من التعبير اللغوي على شكل حوار ثنائي وجماعي وفردي مع الذات (المونولوج). ومن أسباب اختيارنا لها أيضا أنها رواية حديثة الإصدار ولم تطأها بعدُ أقلام الباحثين والنقاد مما يضعنا أمام شكل من أشكال الاجتهاد في الدراسة والتحليل من منظور لم تألفه الدراسات السردية العربية إلى حدود نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحالي.

ومن مميزات هذا المتن الروائي كذلك أنه يجسد وضعيات تواصلية وحوارية نسجها السارد بين مجموعة من شخوص عمله السردي، وهي وضعيات قريبة جدا من أشكال التواصل الاجتماعي التي نعيشها في المجتمع المغربي إلى درجة يمكن القول إنها حوارات روائية فعلية مأخوذة من نماذج اجتماعية حية لا تنفك عن حياة الروائي عبد الاله الحمدوشي نفسه، وعن واقع المجتمع المغربي ككل. لهذه الأسباب وغيرها وقع اختيارنا على هذه الرواية لدراستها دراسة تلفظية لأنها تجسد، كما قلنا، عدة بنيات حوارية تسمح للذات المتكلمة بالتجلي رغم المحاولات التي قام بها السارد لإخفائها، هذا السارد الذي ما فتئ أن انكشفت ذاتيته وايديولوجيته في نصوص وصفية وأخرى حوارية.

ولهذا؛ تمثل هذا الأطروحة شكلا من أشكال تفاعل اللسانيات مع الدراسات الأدبية، وتحاول أن تقدم التصور التلفظي لتحليل الخطاب متجاوزة أشكال التناول البنيوي للغة والخطاب.

4. إشكالية البحث وأهدافه

تهدف هذه الأطروحة إلى تحصيل مجموعة من الأهداف يمكن تقسيمها إلى أهداف بحثية معرفية وأخرى إجرائية منهجية. ومن بين تلك الأهداف نذكر ما يلي:

- ✓ إبراز أهمية لسانيات التلفظ وقيمتها العلمية في ساحة اللسانيات؛
- ✓ استثمار القضايا التلفظية في تحليل الخطاب؛
- ✓ اختبار مدى قدرة نظرية التلفظ على تمثُّل الخطاب الروائي بأحداثه وشخوصه وأمكنته وأزمنته تصنيفا وتحليلا.

وقد قمنا بتصريف هذه الأهداف وغيرها في قالب إشكالي مركزي وهو: كيف تحلِّل لسانيات التلفظ الخطابَ عامة والخطاب الروائي خاصة؟.

إنه سؤال إشكالي مركزي يتمحور حوله جموع قضايا هذه الأطروحة. وقد جزأناه إلى عدد من الأسئلة الفرعية. أُولاها يتعلق بمفهوم الخطاب ومكانته في اللسانيات الحديثة. وثانيها يخص شؤون مفهوم تحليل الخطاب وتاريخه. وثالث هذه الأسئلة يدور حول مفهوم لسانيات التلفظ وأصولها الابستمولوجية وقضاياها البارزة وخلفيات اهتمامها بتحليل الخطاب. أما رابعها، فيرتبط بتجليات الذاتية في الخطاب واللغة والمرجع والضمائر وأدوات الزمان والمكان. أما خامسها فيهتم بإشكال تصنيف التلفظ إلى تلفظ تاريخي وخطابي ومدى كفاية معايير هذا التصنيف المقترح. وسادس هذه الأسئلة الفرعية هو: ما هي مظاهر تواصلية الخطاب الروائي؟. أما سابعها، فيتفرد بإشكالية المعنى في إشاريات الخطاب الروائي وعلاقة هذه الإشاريات بالذات الساردة والمتكلمة.

إن البحث في هذه الإشكالات الكبرى وما يتولد عنها من قضايا جزئية، يتطلب إمعان النظر في التوجهات العامة لنظرية التلفظ للوصول إلى الخيط الناظم لجهود أصحابها والأسلوب المحكم لمعالجة قضاياها وغاياتها البحثية المتعلقة بتحليل الخطاب خاصة واللغة عموما. لهذا؛ فقد حاولنا الوصول إلى الجامع المشترك بين جهود اللسانيين التلفظين والغايات الكبرى لنظريتهم من أجل وضع تصميم منسجم ومحكم قدر المستطاع، بإمكانه أن يغطّي تلك الجهود ويكشف عن المنهج التلفظي في تحليل الخطاب. وقد حرصنا على هذا بعد أن رأينا مجموعة من الباحثين لا يميزون بين القضايا التي تندرج في صلب اهتمام اللسانيات التلفظية والقضايا التداولية عامة، مما جعلهم يخلطون بين الأمرين نذكر منهم على سبيل المثال الباحثة ذهبية حمو الحاج في كتابها "لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب (2012)" الذي تناولت فيه مظاهر تداولية الخطاب السياسي، والباحث محمود طلحة في عمله "تداولية الخطاب السردي (2012)".

إن لسانيات التلفظ، وإن كانت فرعا من فروع التداوليات أو توجها من توجهاتها، فإنها تتميز بالبحث في العناصر الأولى التي يتشكل منها الخطاب وهي الضمائر والإشاريات، وتنظر إليها في علاقتها بذاتية المتلفظ والمتلفظ المشارك، كما أنها خصصت بحثها للكشف عن كيفية تأسيس المعنى في الوحدات الإشارية. وكرست جهودها للبحث في آليات تحديد هذه المعاني. على عكس مجال التداوليات (بالجمع) الذي يغطي نظرية أفعال الكلام وما عرفته من تطورات ونظرية التلفظ ونظريات الحجاج والتداولية المدمجة وغيرها.

من هذا المنطق، حاولنا في البداية أن نستخلص لأنفسنا مجال اشتغال اللسانيين التلفظيّين وأن نحصره لكي نتمكن من الوقوف على أهم جهودهم في تحليل الخطاب، دون أن ننساق مع المباحث التداولية الأخرى كأفعال الكلام والحجاج والمقصدية وغيرها. ولم

يتأت لنا هذا إلا بعد أن اعتمدنا[3] المصادر الأصول الرئيسة لهذه النظرية، وهي أعمال أميل بنفنيست ثم أعمال أوركيوني وأنطوان كوليولي ودومنيك مانغونو وأوزوالد ديكرو، والذي اكتفينا بدراسة جهوده المتعلقة بتأطير مفاهيم النظرية كمفهوم الملفوظ والتلفظ.

5. منهج البحث

إن البحث في الأليات التلفظية لتحليل الخطاب الروائي يتطلب منا التزود بعُدّة منهجية والتي تكمن في المنهج الوصفي والمنهج الاستدلالي والمنهج التحليلي. أفادنا النوع الأول في وصف وضع الخطاب ومكانته في اللسانيات ووصف التطورات التي عرفها تحليل الخطاب، إلخ. أما الثاني، فلا بد من اعتماده للاستدلال على الأفكار الواردة في هذا البحث من كتب لسانية وغيرها، أو من نصوص روائية. أما الثالث، فهو جوهر هذا البحث حيث اعتمدناه لتحليل تجليات القضايا التلفظية في الخطاب الروائي. وقد وظفنا هذا المنهج وفق ما يوافق الرؤية المنهجية للسانيات التلفظ حتى لا نزيغ عن سكة الآليات المنهجية التي تقترحها.

6. خطوات الدراسة

للإجابة عن الأسئلة الإشكالية المطروحة أعلاه؛ سنقسم هذا البحث إلى سبعة فصول، وسنستهل كل فصل منها بتمهيد وسنذيِّله بخلاصة جامعة لأهم النتائج التي أفضى إليها البحث في قضاياه.

سيتناول الفصل الأول مفهوم الخطاب لغةً واصطلاحًا بأسلوب مغاير للأساليب التي يُعرِّف بها الباحثون هذا المفهوم، إذ سيحيطه بالتعريف والتحديد من جهة علاقته بمفاهيم أخرى قريبة منه مثل الجملة والنص والحدث والكلام، ثم من وجهة نظر باحثين من فروع لسانية مختلفة (مثل اللسانيات التوزيعية والوظيفية والتلفظية)، وهذا كله من أجل تقديم

[3]– وبتوجيه حكيم من الأستاذة الدكتورة زهور حوتي المشرفة على هذه الأطروحة.

صورة شاملة حول مفهوم الخطاب وعلاقته باللسانيات. ثم سيحاول الكشف عن أسرار عودة اللسانيين إلى دراسته، من خلال رصد التحول الذي شهده البحث اللساني من البحث في بنية الجملة والوقوف عند حدها في الدراسة والتحليل إلى تجاوزها واحتواء الخطاب وقضاياه.

أما الفصل الثاني، الموسوم بـ "لسانيات التلفظ وتحليل الخطاب، التحديد والسيرورة"، سنحدد فيه مفهوم "تحليل الخطاب" والإشكالات التي تعترض الباحث فيه مثل إشكالية تعدد زوايا النظر للخطاب، وسنرصد أهم المحطات البارزة في تاريخه، من أجل تمييز جهود لسانيات التلفظ في هذا المجال. وبعد هذا؛ سنتتبع الخطوات المنهجية التي تنهجها لسانيات التلفظ في تحليل الخطاب، لإبراز أهمية هذه الخطوات وقيمتها العلمية بمقارنتها مع التناول البنيوي للخطاب.

بعد تحديد هذه الخطوات، استلزم البحث أن نحدد ما المقصود بلسانيات التلفظ، وأن نغوص في أصولها الابستيمولوجية، مما سيدفع بنا إلى الحديث في الفصل الثالث عن "لسانيات التلفظ، أصولها وقضايا" وسندرج فيه جل القضايا التي تعترض البحث اللساني التلفظي، كما سنسلِّط فيه الضوء على جهود رواد لسانيات التلفظ في تحديد قضايا النظرية التلفظية ومفاهيمها، وسنتحدث عن جهود كل من إميل بنفنيست وأنطوان كوليولي ودومنيك مانغونو وأزوالد ديكرو، وسنردف إلى هذا حديثا عن مفهوم السياق وأهميته من منظور النظرية التلفظية، ثم سنختتمه ببعض المشاكل التي يواجهها التلفظيون بصدد تحليلهم للخطاب.

وتعد قضية "الذاتية في اللغة" من أولويات النظرية التلفظية، ولذلك يطلق عليها أحيانا بأنها نظرية للذات المتكلمة في اللسانيات، لهذا سيبحث الفصل الرابع في أشكال اهتمام اللسانيين التلفظيين بمفهوم الذاتية في اللغة والخطاب، وسيحاول أن يكشف عن تمظهرات هذه الذاتية من منظور تصور رواد التلفظية، بدءاً بمفهوم الذاتية وخلفيات

الاهتمام بها، ثم سيكشف عن تمظهراتها في المرجع والضمائر والزمان والمكان، وسيتَعَزَّزُ بأمثلة مركزة من رواية "الحنش" لعبد الإله الحمدوشي.

وقد امتدت قضية الذاتية إلى مستوى أخر من مستويات التحليل التلفظي للخطاب وهو المستوى الذي ميز فيه إميل بنفنيست بين التلفظ الخطابي والتلفظ التاريخي. فتبعاً لهذا الامتداد سيتمحور الفصل الخامس حول آليات هذين القسمين التلفظيَّيْن وعلاقتهما بالذات المتكلمة، وسيحاول الإجابة عن الأسئلة التالية: ما المقصود بالتلفظ الخطابي والتلفظ التاريخي؟ وما هي معايير التمييز بينهما؟ وما مدى قدرة هذه المعايير على تحقيق تصنيف مضبوط وقار للمستويات التلفظية؟.

وستتخلّل قضايا هذا الفصل مقاطع روائية للتمثيل لهذا التصنيف البنفنيستي، ولاختبار مدى شموليته لأصناف الخطابات الواردة في الرواية قيد الدرس والتحليل.

ثم سنبرز وجهات نظر أخرى لهذا التصنيف، وهو التصنيف الذي قدمه دومنيك مانغونو، وسنردف بهذا عرضا حول التقسيم الذي قدمه إميل بنفنيست لمناقشته وإبراز أراء باحثين آخرين بصدده، مثال دومنيك مانغونو وجون سيرفوني، والانتقادات التي وجهت له، والبدائل المقترحة.

أما الفصل السادس فسيرصد التحول الذي شهده حقل تحليل الخطاب المتمثل في الانتقال من تحليل الجملة والنص إلى تحليل الخطاب في ضوء علاقته المعقدة بالذاتية والظروف السياقية والاجتماعية التي تحيط به وتتحكم في عمليات إنتاجه وتفسيره وتأويله. ويلي هذا حديث عن جهود أوركيوني التلفظية في تأطير العملية التواصلية التلفظية، حيث سنبرز هذه الجهود من خلال دراسة خطاطتها التواصلية وتطبيق عناصرها على الخطاب الروائي المدروس، من بينها عنصر الكفايات اللسانية وغير اللسانية (مثل الكفاية الموسوعية والثقافية) وعناصر المتلفظين والمتلفظين المشاركين في العملية التلفظية داخل الخطابات الروائية لرواية "الحنش". وسنقوم بهذا من أجل البرهنة على تواصلية الخطاب

الروائي، وعلى أشكال ارتباطه بالتلفظ وسياقاته وفاعليه، ثم على إمكانية تحليل هذا النوع من الخطابات تحليلاً تلفظيًا.

وسينفذ الفصل السابع إلى عمق القضايا التلفظية وتمظهراتها في الخطاب الروائي وهي قضايا الضمائر والإشاريات. فسينطلق من تعريف الإشاريات وتحديد خصائصها ووظائفها في الخطاب، ثم يمضي نحو كشف أشكال تعلُّقها بالوضعية التلفظية، عبر نماذج تطبيقية من النصوص الروائية الواردة في رواية "الحنش" للروائي المغربي عبد الإله الحمدوشي. وكان الغرض المركزي من البحث في هذه القضايا هو تحليل كيفية تجلي الذات المتكلمة في العناصر الإشارية حيث سيكشف هذا الفصل عن أوجه هذا التجلي عبر واسطتين، الأولى هي صوت السارد في علاقته بتنظيم الأحداث والحوارات، ومن خلال الخطابات التي يوجهه علنا أو ضمنا، للقارئ الفعلي. أما الواسطة الثانية فهي حوارات الشخوص داخل الرواية، إذ سيبيِّن التحليل كيف تبصم الذوات خطاباتها من خلال الوحدات الإشارية للضمائر والزمان والمكان والوحدات اللغوية الدالة على إشاريات الخطاب والمجتمع.

وبعد هذا؛ سنذيل هذا البحث بخاتمة شاملة للنتائج التي توصلنا إليها خلال خطوات البحث في هذه الأطروحة، ثم سنتبعها بجدول لثبت المصطلحات الأجنبية من أجل إبراز المقابلات الأجنبية التي اعتمدناها في ترجمتنا لبعض المصطلحات، وللحدّ من إشكال التعدد المصطلحي الذي يطبع بعض المصطلحات اللسانية إن لم نقل جلها.

وفي نهاية هذه المقدمة، لا يفوتنا إلا أن نتقدم بالشكر الجزيل والامتنان الكبير للأستاذة الفاضلة الدكتورة زهور حوتي، على حرصها الدؤوب على تتبع هذا البحث تصفحًا وتصويبًا ومراجعةً، إلى أن استوى في هذه الصيغة، وعلى توجيهاتها القيمة التي طوت أمامنا الكثير من المسافات البحثية التي تعيق مسار البحث والباحث. كما لا يفوتنا أن نوجّه شكرنا وتقديرنا إلى كل السادة الأساتذة والأستاذات الذين تفضلوا علينا بوقتهم

الثمين، وبسطوا لنا يد العون على طول مسيرتنا البحثية والدراسية عموما. ونسأل الله أن يجعل جهودكم جميعا في ميزان حسناتكم، وأن يسدد مساعيكم في سبيل العلم والتثقيف.

ختاما؛ نرجو أن نكون قد اقتربنا من جادتي الصواب والطريق في عبور مسالك البحث في هذه الأطروحة، ونسأل الله عز وجل التوفيق والسداد، إنه سميع مجيب.

الفصل الأول:

الخطاب واللسانيات:

المفهوم والمكانة

تمهيد

سنتناول في هذا الفصل، كما يبدو من خلال العنوان، مفهوم الخطاب لغة واصطلاحا، وسنحدد زوايا النظر اللسانية التي قدمت محاولات تعريفية لهذا المفهوم؛ لنقدِّم فكرة حول علاقة الخطاب باللسانيات، ونكشف عن أسرار العودة إلى دراسته، كما نقف عند أهم المحطات البنيوية في الدراسة المحايثة للغة، وخصوصا تلك الفترات التي بدأت تعرف فيها ذلك الأفول التدريجي، حيث حل بعدها صباح بعض الإضاءات الجديدة في البحث اللساني من الجملة والنظام إلى الخطاب والاستعمال.

1. في مفهوم الخطاب

1.1. مفهوم الخطاب لغة

إذا كانت الخِطبة تتطلب بالضرورة توفر الزوجين، الذكر والأنثى، فإن الخُطبة، والخطاب، هما أيضا يتطلبان حضور المخاطَب والمخاطِب، أو متكلم ومستمع، أو مرسل ومرسل إليه، مما يعني أن مادة "خطب" في اللغة أينما وردت إلا ودلت، في الغالب، على نوع من أنواع التفاعل والتشارك بين عنصرين أو أكثر.

ولقد رصدت المعاجم العربية لمادة "خطب"، بمعنى الخطاب والتخاطب، خمسة معان: الأول هو تبادل الكلام بين إثنين، حيث "(خطب) الخاء والطاء والباء أصلان: أحدهما الكلام بين إثنين، يقال خاطبه يخاطبه خطابا، والخُطبة من ذلك"[4]. أما المعنى الثاني فهو مراجعة الكلام أو المذاكرة، "والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطابا، وهما يتخاطبان"[5]. والمعنى الثالث هو إلقاء الكلمة أو الخطاب،

---

[4]. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د.ط)، 1399هـ/1979م، الجزء الثاني، ص 198.

[5]. أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، حققه عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، طبعة جديدة منقحة، (د.ت)، [مادة خطب].

ومنه "(خطب) الناسَ، وفيهم، وعليهم يخطبُ خطابةً، وخُطبة: ألقى عليهم خُطبة"[6]. أما الرابع فهو التكلم والتحدث أو المحادثة، يقال "خاطبه مخاطبة، وخطابا: كالمه وحادثه.... تخاطبا: تكلما وتحدثا."[7] وأما الخامس فهو المواجهة بالكلام، "خاطب صديقه: كالمه وحادثه، واجهه بالكلام، اتجه إليه بالكلام"[8].

ومن هنا نستنتج أن الخطاب لغة: هو التبادل والمواجهة بالكلام بين طرفين أو أكثر؛ أي لابد من حضور عنصر التبادل الخطابي بين الطرفين وتبادل الدورين: مخاطَب ومخاطِب، ثم لابد أن نتوجه بذلك الخطاب إلى شخص أو أشخاص مخاطَبين معينين لكي يسمى بذلك خطابا، ثم لابد أيضا من عنصري التكلم والتحدث اللذين يحقِّقان عنصر التفاعل الخطابي.

2.1. مفهوم الخطاب اصطلاحا

انطلاقا مما أطلعتنا عليه النظريات اللسانية؛ البنيوية والتوزيعية والتوليدية والوظيفية والتداولية والتلفظية، من تحولات من حيث الموضوع والمنهج، نسجل تجديدا على مستوى مفهوم اللغة، واختلاف هذا المفهوم من نظرية إلى أخرى مادام أن "وجهة النظر هي التي تحدد الموضوع" بعبارة دو سوسير، فإنه لابد أن نسجل أشكالا مختلفة من التناول اللغوي بين هذه النظريات، وما مفهوم الخطاب ببعيد عما عاشته "اللغة" من تعدد من حيث المفهوم والدراسة. فمع ميلاد نظرية جديدة يتم الإعلان عن ميلاد مفهوم جديد للغة انطلاقا من زاوية النظر التي تقترحها تلك النظرية الجديدة، وكذلك الأمر بالنسبة لمفهوم الخطاب، وإن كان مساره وأسلوب دخوله للسانيات عرف نقاشا كبيرا غير الذي عرفه مفهوم اللغة واللسان والكلام.

---

[6]. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا، ط2، 1410هـ /1989م، ص 242.

[7]. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، نفسه، ص 243.

[8]– أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1429هـ/ 2008م، ص 659.

ومن هنا يظهر أنه من اللازم، إن أردنا أن نقدم تعريفا شاملا لمفهوم الخطاب، أن نعرج على التعاريف التي قدمتها أهم النظريات اللسانية، وإن كان مجال اشتغالنا يقتصر على نظرية التلفظ فقط.

لتحديد مفهوم الخطاب بشكل دقيق، لا بد أن نشير إلى أن هذا التحديد يقتضي منا ما يلي:

- وضع الخطاب ضمن سلسلة التقابلات التالية: خطاب/لغة، خطاب/جملة، خطاب/نص، خطاب/ملفوظ، خطاب/كلام، خطاب/حدث.
- النظر إلى مفهوم الخطاب من زوايا النظر المتعددة التي اتخذته موضوعا للدرس مثل اللسانيات البنيوية والتوزيعية والوظيفية والتداولية ولسانيات الخطاب.... فهذا المفهوم يختلف من حيث التعريف من زاوية نظر إلى أخرى.

خطاب/لغة langue: "لم تُخترع اللغة إلا في سبيل الخطاب، لكن ما الذي يفرق الخطاب عن اللغة أو ما الذي يسمح في بعض الحالات بالقول: إن اللغة تدخل حيز الفعل بوصفها خطابا؟"[9]. إن هذا التساؤل هو عين الإجابة عن تقابل الخطاب باللغة ومفاد هذا التقابل أن اللغة تصير خطابا عندما تُستعمل أي عندما تدخل حيز التفعيل والتحقق، فتحمل معان غير تلك المعاني الوضعية خارج تحققها الفعلي، أو بعبارة أخرى فاللغة "هي نظام من القيم المقدرة مخالفة للخطاب واستعمال اللغة في سياق بعينه"[10]؛ أي إذا كانت اللغة هي مجموعة من القيم والقدرات؛ فإن الخطاب هو التوظيف الفعلي لهذه

[9]- ميشال أريفيه، البحث عن دو سوسير، ترجمة محمد خير محمود البقاعي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2009، ص 162.

[10]- باتريك شارودو ودومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة، عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، تونس، 2008، ص 39.

القدرات في سياق محدد. ثم إن نسق اللغة نسق مضمر وخارج الزمن في حين أن نسق الخطاب لابد أن يرتبط بالزمن الحاضر أي بلحظة التحقق الفعلي للغة.

خطاب/جملة la phrase: يقصد بالخطاب في مقابل الجملة: وحدة لغوية قوامها سلسلة متعاقبة من الجمل، أو هو عبارة عن متوالية من الجمل[11]، وينسب هذا التعريف إلى زليغ هاريس حينما تحدث عن تحليل الخطاب، غير أن الخطاب ينطوي بطبيعته على مميزات أكثر من كونه سلسلة من الجمل، وذلك لاتسامه بسمتين –من جهة مقابلته بالجملة– وهما: "تعديه للجملة من حيث حجمه وملابسته لخصائص غير لغوية دلالية وتداولية وسياقية"[12]؛ بمعنى أنه لا ينبغي أن نُلَخِّصَ مفهوم الخطاب في سلسلة من الجمل وإذا حلّلنا هذه السلسلة نقول بأننا بصدد تحليل الخطاب، كما فعلت اللسانيات التوزيعية بقيادة زليغ هاريس. فالخطاب يفترض "حصول تنظيم يتجاوز الجملة، ولا يعني هذا أن كل خطاب يتجلى في تتابعات من الكلمات حجمها يفوق الجملة حتما. لكنه يعني استنفار بنيات من نوع غير نوع الجملة..."[13] وهي بنيات تتأثر بسياق التلفظ الذي يجب الأخذ به عندما نحلل الخطاب.

خطاب/نص texte: من خلال هذا التقابل ينظر إلى الخطاب على أنه "ارتباط النص بسياقه"[14]، فيُحدَّد الخطاب كما يلي:

الخطاب = النص + السياق

---

[11]- باتريك شارودو ودومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، نفسه، ص 180.

[12]- أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، بحث في الوظيفة والبنية والنمط، دار الأمان، الرباط، ط1، 2010/1431، ص 22.

[13]- باتريك شارودو ودومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 182.

[14]- دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008/1428، ص 40.

إن القول بأن الخطاب هو نص مرتبط بسياقه لا يعني أن النص لا يرتبط بسياقه، وإنما يحضر فيه داخليا وليس في علاقته بالظروف الخارجة كالمتخاطبين وظروف الخطاب. فحضور طرفي الخطاب ومعاينتهما يغنينا عن تعريفهما في الخطاب. أما على مستوى النص فلابد أن نعرِّف بهما وذلك عن طريق الوصف كما يحدث في الرواية عند وصف الشخوص والأمكنة مثلا. كما أن السياق الخطابي يغنينا عن ذكر الأشياء المشار إليها في الخطاب عن طريق الإشاريات في حين يستلزم سياق النص ذكرها، كأن أطلب من زميلي القلم في الخطاب أقول له "أريد هذا" أما إذا كتبت هذا الطلب في شكل نص فأنا ملزم بأن أقول: "أريد القلم الذي بجانبك" أو ما شابه ذلك؛ أي يجب أن أعيّن القلم كتابة ووصفا.

خطاب/ملفوظ: يقصد بالملفوظ **L'énoncé** "الموضوع المنتج بواسطة المتكلم الذي اختار استعمال جملة ما"[15]، ويشكل التلفظ Enonciation حدث إنتاج هذا الملفوظ الذي يعطي للجملة تحققا ملموسا. فالملفوظ وحدة لغوية متحققة بواسطة متكلم ما، أما الخطاب فـ "يشكل وحدة اتصال مرتبطة بظروف إنتاج معينة، أي كل ما هو من نوع خطابي: نقاش متلفز، مقالة صحفية، رواية إلخ"[16]. فالنظر إلى الملفوظ من جهة ظروف إنتاجه يجعل منه خطابا. ومنه يمكن القول إن الملفوظ والخطاب يشتركان في شرطين أساسيين:

- ✓ التحقق الفعلي بواسطة مستعمل اللغة؛
- ✓ الارتباط بظروف سياقية وبوضعية تلفظية محددة.

فالملفوظ نتاج عملية التلفظ، يتحول إلى خطاب عندما ننظر إلى ظروف إنتاجه.

---

[15]. Oswald Ducrot, les lois de discours, in langue française, n 42, 1979, p 21.

[16]. دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 39.

خطاب/كلام: حينما يتعلق الأمر بمفهوم الكلام "Parole" لابد أن نستحضر ما قدمه دو سوسير من توضيحات حول هذا المفهوم. فقد عرفه، بأنه عكس اللسان "فعل فردي إرادي ونابع من ذكاء volonté et d'intelligence، وينبغي أن نميز فيه بين:

أ. الترابطات التي تقوم بها الذات المتكلمة عندما تستعمل سنن اللغة للتعبير عن فكرتها الخاصة؛

ب. الآليات النفسية والفيزيائية التي تسمح بإخراج هذه الترابطات"[17].

وأشار ميشال أريفيه إلى أن سوسير استخدم مفهوم الكلام ثلاثة استخدامات مختلفة الدلالات وهي[18]:

- ❖ الكلام بمعنى التصويت؛
- ❖ الكلام بمعنى الفعل الواعي والمدرك لتسلسل الوحدات في تسلسلية متحققة واقعيا
- ❖ بمعنى جامع بين المعنيين السابقين وهما التصويت والفعل الإرادي في استخدام اللغة.

أما الخطاب فقد استعمله دو سوسير بمعنيين: باعتباره، من جهة، "نتاج نشاط الفاعل، المتكلم، ومن جهة أخرى، يكتسب المصطلح في عدد من المواضع معنى الكلام للإشارة إلى النشاط نفسه"[19]؛ أي باعتباره سيرورة إنتاجية وليس بمعنى المُنتج.

خطاب/ حدث "action": انطلاقا من هذا التقابل يقصد بالخطاب: الحدث الذي تتحقق من خلاله اللغة زمنيا عبر متكلم حقيقي أو مفترض؛ حيث "إن القول بأن الخطاب

---

[17]. Ferdinand de Saussure, 1916, Cours de linguistique générale, Edition Payot, Prais, p 30.31.

[18]. ميشال أريفيه، البحث عن دو سوسير، مرجع سابق، ص 160-161.

[19]. ميشال أريفيه، البحث عن دو سوسير، ص 162.

حدث ما، يعني أولا قول إن الخطاب قد تحقق زمنيا وفي الحاضر،... والحدث يكمن في كون أحد ما يتكلم، أحد ما يعبر بأخذ الكلمة"[20].

لقد أحصى بول ريكور للخطاب بوصفه حدثا، أربعة معان وهي:

1. يعتبر الخطاب حدثا إذا تحقق زمنيا في الحاضر؛ وهو حدث الوقوع أو التحقق؛ وهو ما يسميه بنفنيست "إنّية الخطاب" "L'instance du discours"؛
2. الخطاب حدث بمعنى أحد ما يتكلم، وله مرجعية محددة حيث يحيل المتكلم عن نفسه، ويفصح عن دوره في الخطاب؛ أي أن الخطاب هو حدث التكلم؛
3. الخطاب حدث "حينما لا تحيل فيه علامات الكلام سوى على علامات أخرى داخل نفس النسق [...] ويكون الحدث، بهذا المعنى الثالث، هو المجيء إلى كلام عَالِم ما عن طريق الخطاب"[21]. وهذا ما يمكن أن نسميه بحدث الإحالة، فيصبح الخطاب هو حدث إحالة داخلية أو خارجية لكونه "دائما على صلة بموضوع ما. يحيل على عالم يتوخى وصفه، التعبير عنه وتشخيصه، لهذا لا تتحقق وظيفة الكلام الرمزية إلا في الخطاب"[22].
4. يعتبر الخطاب حدثا لكونه مكمن كل الإرساليات وهو "ظاهرة التبادل الزمنية، بناء الحوار، الذي يمكن أن يعقد، أن يطول أو أن يقطع"[23]. وقد سمى بول ريكور هذه المعاني الأربعة للخطاب بـ "سمات الخطاب" التي تجعل منه حدثا.

---

[20]. بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، ترجمة، محمد برادة وحسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2001، ص 80.

[21]. بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، مرجع سابق، ص 80.

[22]. نفسه، ص 142.

[23]. نفسه، ص 80.

من هنا؛ فالخطاب هو حدث تحقق زمني للغة، وحدث تكلم، وحدث إحالة مرجعية، وأخيرا هو حدث تواصل وتفاعل بين متخاطبين أو أكثر.

ونخلص من هذا؛ إن هذا التقابل الذي أجريناه بين الخطاب واللغة/ الجملة/ النص/ الملفوظ/ الحدث؛ قد ساهم في تجلية مفهوم الخطاب، بقدر ما ساهم في حرمانه من حق التعريف المحدد الجامع والمانع الذي يجلِّي حدوده التي تفصله عن المفاهيم المتداخلة معه. هذا من جهة، وقد أدى تعدد زوايا النظر إلى الخطاب إلى تعدد تعاريفه أيضا من جهة أخرى. وهذا ما سنبينه فيما يلي.

تنقسم التحديدات التي قُدمت للخطاب انطلاقا من وجهة النظر المتبعة إلى ثلاثة اتجاهات بارزة، سنعرضها على الشكل التالي:

1. **الاتجاه البنيوي:** الذي يركز على اعتبار الخطاب وحدة تتألف من وحدات تفوق الجملة؛ وتمثله اللسانيات التوزيعية؛ حيث الخطاب عند زليغ هاريس: "ملفوظ طويل، أو هو متوالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض"[24].
2. **الاتجاه الوظيفي:** الذي ربط الخطاب بالتواصل واستعمال اللغة، وعرفه أحمد المتوكل بقوله: "يعد خطابا كل ملفوظ/مكتوب يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات"[25].
3. **الاتجاه التلفظي:** الذي يربط الخطاب بالتلفظ وهو الاتجاه الذي يمثله إميل بنفنيست، حيث عرف الخطاب بأنه "كل تلفظ يتضمن متكلما ومستمعا، بنية تأثير الأول

[24]. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، الزمن والسرد والتبئير، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 3، 1997، ص 17.

[25]. أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، بحث في الوظيفة والبنية والنمط، مرجع سابق، ص 24.

على الثاني بأسلوب معين "[26]. إنه أولا مختلف الخطابات الشفوية بكل طبيعتها ومستواها، من المحادثة العادية إلى المحاضرة المنقحة، لكنه يعني أيضا مجموع الكتابات التي يعاد إنتاجها في خطابات شفوية أو التي تتخذ شكله وغاياته: المراسلات، المذكرات، الكتب التعليمية، باختصار كل الأجناس التي يرسلها شخص ما لآخر، يتلفظ الأول بصفته متكلما وينظم ما يقوله في مقولة الشخص[27].

لقد خلصنا من خلال تتبعنا لمفهوم الخطاب من جهة علاقته بالمفاهيم المتداخلة معه، ومن جهة التعاريف التي قدمتها النظريات اللسانية له، إلى أمرين أساسيين:

أولهما: إن مفهوم الخطاب لا يتحدد إلا في تقابله مع اللغة والجملة والنص والملفوظ والحدث، مما يبين صعوبة تعريفه تعريفا مستقلا عن هذا المكونات اللسانية.

ثانيهما: إن الخطاب عرف اهتماما متباينا من قبل التيارات اللسانية المذكورة، وتبعا لهذا التباين اختلفت التعاريف المقترحة بصدد تحديده، مما يبين صعوبة تقديم تعريف موحد لهذا المفهوم. وتعود هذه الصعوبة إلى اختلاف وجهات نظر التيارات اللسانية ومناهج بحثها، وإلى طبيعة الخطاب نفسه المتمثلة في حساسيته بكل ما هو ثقافي واجتماعي وذاتي، مما جعله ابنا عاقا للنظريات البنيوية. ففيما يلي سنتحدث عن أسلوب تعامل هذه النظريات مع الخطاب وكيفية تحليله، والاهتمام التدريجي الذي حظي به بينها وبين النظريات غير البنيوية كنظرية التلفظ.

2. مكانة الخطاب في اللسانيات

إن البحث في تحليل الخطاب الروائي من منظور لساني، يستلزم، بالضرورة، البحث في وضعية مفهوم الخطاب في اللسانيات، كما أن هذا العنوان يأخذ الناظر إليه والباحث فيه على حد السواء، إلى طرح مجموعة من الأسئلة، أبرزها كيف دخل الخطاب وتحليل

---

[26]. Émile Benveniste, (1966), Problèmes de linguistique générale, Edition Gallimard, T1, P 242.

[27]. Ibid, P 242.

الخطاب إلى الساحة اللسانية؟؛ وما هي التحولات المنهجية والموضوعية التي سمحت بها التيارات اللسانية حتى تفتح أجنحتها البحثية للبحث في الخطاب وفي ملابساته؟ ثم إذا علمنا أن طموح البحث اللساني، في بداياته، هو النهوض باللسانيات إلى مصاف العلوم الحقة والابتعاد بمنهجها عن كل التكهنات والتخمينات العشوائية وكل الجوانب الذاتية والثقافية المحيطة بموضوع الدرس، يحق لنا أن نتساءل ما إذا كانت اللسانيات قد خسرت شيئا من هذا الطموح نتيجة اهتمامها بالخطاب؟ أم أنها حاولت فقط أن تكيِّف بعض الخطابات، وأن تُنمِّطها وفق ما يسمح به المنهج الصوري/ البنيوي؟.

لقد كانت اللسانيات في البداية منغلقة على ذاتها في دراساتها البنيوية، طمعا في تحقيق الاستقلالية من حيث الموضوع، ومن حيث المنهج، وكذا؛ لتأثيث بيتها الداخلي والبحث عن موطئ قدم بين العلوم. وكانت نظرتها إلى اللغة نظرة اختزالية مغلقة عن جميع الأنساق الخارجية ومؤثراتها على اللغة. وكان المبدأ الرائز هو دراسة اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها؛ أي باعتبارها نظاما منسجما ومستقلا. هذا؛ وإن اختلفت أشكال تلك الدراسات البنيوية بين بنيوية وتوزيعية ووظيفية، فإن المهمة الأساس لم تكن تتجاوز "الكشف عن القوانين الداخلية لهذا النظام سواء أكانت قوانين ثابتة أو متطورة، فلم يعد المثير الخارجي مدار الاهتمام العلمي، وإنما المقدمات الداخلية للتطور يفضي، الآن، التصور الآلي للعمليات إلى مساءلة وظائفها"[28]؛ أي الوقوف عند مساءلة وظائف المقدمات الداخلية المتحكمة في بنية اللغة، دون تجاوزها إلى النظر في أثر المثيرات الخارجية في هذه المقدمات.

فقد تميز البحث اللساني في البداية بدراسة اللغة دراسة بنيوية بمعزل عن كل الجوانب الخارجة عن اللغة والظروف المؤثرة فيها، وذلك منذ صدور "محاضرات في علم

[28]- رومان ياكوبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي للنشر، ط1، 2002، ص 13.

اللغة العام (1916)" لفرديناند دو سوسير. ومع تطور البحث اللساني دعت الضرورة إلى توسيع الاهتمامات، من البنية إلى الاستعمال، ومن الجملة إلى الخطاب، وتجاوز هذه النظرة الاختزالية للغة، بمعنى ضرورة دراستها في علاقتها بالتفاعل الاجتماعي، وفي أشكال تمظهراتها في الخطاب وفي سياقات خطابية متعددة.

1.2 سيرورة البحث اللساني: من الجملة إلى الخطاب

لقد عرفت اللسانيات مرحلتين أساسيتين في مسار دراساتها اللغوية:

تميزت المرحلة الأولى بسيطرة نموذج دو سوسير الذي يتمثل في المحايثة Immanence والنسقية Systématisation، حيث اضطرت اللسانيات في هذه المرحلة "أن تكون انتقائية Sélective واختزالية Réductives، في نظرتها إلى حد بعيد"[29]. وذلك بتجريد اللغة من الواقع والتفاعل التواصلي اليومي وتقديم مستعمليها باعتبارهم نماذج فارغة ومجردة دلاليا. وقد برز في هذه المرحلة التيار البنيوي الأوروبي مع دو سوسير وأتباعه، والتيار البنيوي الأمريكي مع بلومفيد وأتباعه، والتيار الوظيفي مع مارتيني ومن تبعه في النظر إلى اللغة باعتبارها أداة للتواصل، وكما أشرنا أعلاه فإن الجامع بين هذه التيارات هو الكشف عن القوانين الداخلية للغة فقط.

أما المرحلة الثانية أو ما يسمى بلسانيات الجيل الثاني فقد ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين، بعد اضمحلال طموح اللسانيات البنيوية، معلنة انفتاحا مباشرا على علوم أخرى كعلم النفس والمنطق والفلسفة وعلم الاجتماع والأدب، وبشكل عام، على جل تمظهرات اللغة في المجتمع على شكل خطابات ومحادثات وأفعال لغوية مباشرة وغير مباشرة... وعيا منها بحساسية اللغة وتأثرها عند كل تمظهر من تمظراتها في الخطاب. وتتدرج ضمن هذه المرحلة لسانيات الخطاب، واللسانيات النفسية والسوسيولسانيات والتداولية ولسانيات النص ولسانيات التلفظ ونظرية الحجاج وغيرها،

[29]. روبرت دي بوكراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998، ص 72.

والجامع بين هذه التوجهات الحديثة هو الاستعانة بما هو خارج عن اللغة لفهم اللغة كسياق التخاطب وظروف التلفظ والخصوصيات الاجتماعية للغة المدروسة، والحالات النفسية للمتخاطبين.... كما تلتقي أيضا حول الوعي بأهمية تحليل الخطاب، وبالدور الذي تلعبه ظروف إنتاجه في وسم دلالته وتغيُّر معانيه من سياق تلفظي لآخر.

أما من حيث الاشتغال على الخطاب، فنظرا لطبيعته، يرى أحمد المتوكل أنه عرف اتجاهين بارزين، وهما:

- الاتجاه الأول "أقصاه من الدرس اللساني الصرف باعتباره يندرج، بخلاف الجملة، في حيز "الإنجاز" أكثر من اندراجه في حيز "القدرة اللغوية""[30]. ويتعلق هذا الموقف باللسانيات البنيوية الأوروبية مع دوسوسير واللسانيات التوزيعية مع بلومفيد وزليغ هاريس وآخرين؛
- أما الاتجاه الثاني فقد احتفظ به "على أساس أن يتخذ موضوعا لدرس لساني منفصل سمي "لسانيات الخطاب (أو تحليل الخطاب) في مقابل "لسانيات الجملة""[31].

غير أنه حينما ندقق النظر في مباحث الاتجاه الأول وهو الاتجاه البنيوي، لا نلمس أي وضوح في هذا التقسيم الذي قدمه أحمد المتوكل. فاللسانيات السوسيرية تقابل الخطاب بمفهوم الكلام[32]، ويعرف سوسير هذا الأخير بأنه "فعل فردي ينم عن الإرادة والذكاء"، وقد تم تأجيل النظر إليه ودراسته، إلى أن يُدرس من طرف علوم معرفية أخرى، حيث قال: "إن فعالية المتكلم ينبغي أن تُدرس ضمن عدد من الموضوعات (أو حقول

[30]. أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والنمط، مرجع سابق، ص 21.

[31]. أحمد المتوكل، نفسه، ص 22.

[32]. D. Maingueneau,(1976), Initiation aux méthode de l'analyse du discours, librairie HACHITTE, p 11.

معرفية) التي لا مكان لها في علم اللغة سوى أنها ذات صلة باللغة"[33]؛ أي أنه لم يقص سوسير الكلام كما ردد عليه الكثيرون.

أما اللسانيات التوزيعية فتُعرف الخطاب بأنه "ملفوظ طويل، أو هو متوالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض"[34] حيث حاولت هذه المدرسة أن تطبق عليه المبادئ التوزيعية التي تتوفر عليها الجملة، دون الخروج عن المبادئ النظرية اللسانيات الصورية المتمثلة في إبعاد كل ما هو اجتماعي وذاتي أثناء تحليل الخطاب. وقد صرح زليغ هاريس بأن اللسانية الوصفية تواجه، عند الرغبة في تحليل الخطاب، إشكاليتين أساسيتين، وهما على الشكل التالي كما حددهما هاريس[35]:

1. وقوف اللسانيات الوصفية عند حدود الجملة؛
2. الإشكال الثاني هو العلاقة بين السلوك (أو الوضعية الاجتماعية) واللغة، حيث ينظر دائما إلى هذه العلاقة باعتبارها علاقة خارج لسانية.

فكانت نتيجة هذه المحاولة التوسّعية لمجال الاشتغال من الجملة إلى الخطاب، هي "القول إن التحليل البنيوي يسمح بتجاوز البنية لكن بدون بلوغ مستوى الخطاب الذي هو تحديدا مجال يلتقي فيه البعد الاجتماعي بالبعد الذاتي"[36]، ويعود السبب في ذلك إلى أن اللسانيات الوصفية ليست مسلَّحة منهجيا، بالقدر الكافي، للإحاطة بمفهوم الخطاب الذي تتداخل فيه اللغة بالذات المتكلمة وبالثقافة. يقول هاريس في هذا الصدد: "اللسانيات

---

[33]- فرديناند دي سوسور، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، 1985، ص 37.

[34]. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، الزمن والسرد والتبئير، مرجع سابق، ص 17.

[35]- Harris Zellig S, 1952, Analyse du discours, traduit par Françoise Dubois-Charlier, In: Langages, 4e année, n°13, 1969, p 9-10.

[36]. ربيعة العربي، الحد بين النص والخطاب، مجلة علامات، ع 33، 2010، ص 36.

الوصفية لا تهتم بمعنى المورفيمات، بقدر ما تحاول الإحاطة بصعوبة التكلم لا بالمعنى؛ لأن اللسانيات الوصفية غير مسلحة لتأخذ بعين الاعتبار الوضعية الاجتماعية والبيذواتية التي يُنتج فيها الملفوظ. بل بمقدورها فقط أن تحدد كيفية تَحَقُّقِ عنصر لساني ما في علاقته بالعناصر اللسانية الأخرى"[37].

أما اللسانيات الوظيفية، فقد اهتمت بالخطاب اهتماما أكثر مما لقيه عند اللسانيات التوزيعية والسوسيرية حيث دافع الوظيفيون، في تحديد الخطاب، عن أطروحتين أساسيتين، وهما[38]:

- "أطروحة أن تحديد الخطاب لا يقاس بحجمه؛
- وأطروحة أن الأنماط الخطابية على تباينها السطحي ليست إلا تبعا لتوسطات مختلفة لبنية ثابتة واحدة".

يظهر من خلال هذين الأطروحتين أن اللسانيات الوظيفية أعادت النظر في مفهوم الخطاب، حيث يقول أحمد المتوكل بصدد تحديده: "يعد خطابا كل ملفوظ/مكتوب يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات"[39]. وبهذا التعريف تجاوز التقابل الذي يختزل الخطاب في متوالية من الجمل، فأصبح الخطاب بالنسبة للوظيفيين شاملا للجملة، ووحدة تواصلية، مما يبين أن وجهة النظر التواصلية التي درس بها الوظيفيون اللغةَ لا زالت قائمة ومعتمدة في تحليل الخطاب، وهي التركيز على الوظيفة التي يؤديها الخطاب[40]. ويتجلى عنصر التجديد في المنهج الوظيفي في الأخذ بعين الاعتبار ضوابط ظروف إنتاج الخطاب خصوصا في نموذج فان ديك (1997 ب) حيث "تم نقل موضوع الدرس من الجملة إلى

---

[37]. Harris Zellig S, 1952, Analyse du discours, traduit par Françoise Dubois-Charlier, In: Langages, 4eannée, n°13, 1969. P 10.

[38]. أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، بحث في الوظيفة والبنية والنمط، ص 21.

[39]. أحمد المتوكل، نفسه، ص 24.

[40]. ينظر: ربيعة العربي، الحد بين النص والخطاب، مجلة علامات، ع 33، 2010، ص 37.

الخطاب باعتبار الخطاب سلسلة من الجمل المتناسقة تحكمها ضوابط ظروف إنتاجها"[41]. بالإضافة إلى تجاوز الثنائية التقابلية (جملة/خطاب) والنظر إلى الخطاب باعتباره شاملا للجملة؛ وإقصاء معيار الكم أثناء تعريف الخطاب حيث قد يتشكل الخطاب من نص كامل أو جملة أو شبه جملة.

إننا كلما تقدمنا، كرونولوجيا، في البحث في مفهوم الخطاب من وجهات نظر لسانية متعددة إلا ولمسنا اهتماما متزايدا بهذا المفهوم من نظرية إلى أخرى، حيث نما الوعي بين اللسانيين بأهمية تحليل الخطاب ودوره في فهم آليات اشتغال اللغة في الخطاب، ودوره أيضا في فهم تركيبة العقل البشري، وفك رموز الخطاب، بشتى أطيافه (الديني والسياسي والأدبي والإعلامي...) وكشف نواياه الحسنة والسيئة إلى أن أصبحت اللغة، بفضل هذا الوعي، "منبرا للتحاور والإقناع ومخبرا لصنع السياسات، تَحوَّل الاجتماع البشري والسياسة والاقتصاد والأدب والإعلام إلى حقول تطبيقية للخطاب اللغوي، تخلع فيه اللغة على الأشياء والأفكار معاني وقيما تعلو وتقوى بحسب ما استعمل فيه من وسائل إقناعية وطرق حجاجية ترشد وتوجه وتقنع وتختصر على المخاطَب المسالك والمتاهات"[42].

2.2. لسانيات الجملة: الفرضيات والنتائج

لقد رسم رواد اللسانيات البنيوية ملامح البحث اللغوي انطلاقا من عدد من الفرضيات والتي حددها مبارك حنون في مواضع متفرقة من كتابه، ونوردها على الشكل التالي:

أ. الدفاع عن الاستقلالية اللسانية من جهة الموضوع والمنهج؛ "فموضوع اللسانيات موضوع وحيد هو اللسان لا غير، ومن ثمة فلا دخل لتاريخ الأدب، والتقاليد

[41]. أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، بحث في الوظيفة والبنية والنمط، ص 23.

[42]. عبد الرحمن بودرع، أهمية تحليل الخطاب في معالجة القضايا السياسية والاجتماعية، مجلة بيان، السنة الأولى، ع1، يوليو 2014، ص 72.

والمؤسسات في موضوع اللسانيات. أما بخصوص منهج اللسانيات فهو الوصف"[43] القائم على المحايثة والنسقية، وإن عمد الباحث اللساني إلى المنهج المقارن، فإنه ملزم أن يبدأ وصفيا.

ب. الدفاع عن مكانة اللسانيات بين العلوم الحقة؛ وكانت هذه الفكرة من بين المهام الأساسية التي حددها دوسوسير للسانيات، وهي تمييز اللسانيات نفسها عن باقي العلوم وتحديد نفسها بنفسها"[44].

وقد لخّص عزالدين المجدوب، أيضا، فرضيات اللسانيات البنيوية في فرضيتين أساسيتين وهما: [45]

ج. التسليم بأولوية البنية على العناصر المكونة لها، والتسليم بأن هذه العناصر تتحدد هويتها انطلاقا من جملة العلاقات التي تجمع بينها داخل نفس البينة اللغوية. وبمعنى آخر، النظر إلى اللغة بوصفها بنية مستقلة بذاتها ومنعزلة عن كل ما يحيط به، والنظر في علاقاتها الداخلية.

د. القول باستقلالية البنية اللغوية عن باقي البنيات وعن أشكال تمظهراتها في الواقع.

بعد هذا؛ لنقف عند أهم النتائج التي حققتها اللسانيات من خلال تطبيق تلك الفرضيات، التي سبق ذكرها، لنسجّل أهم الهفوات التي اعترتها، وأطاحت من عليائها. وفي البداية نشير إلى أبرز النقاط الحسنة التي أحرزها البحث اللساني، وهي على الشكل التالي:

---

[43]. مبارك حنون، مدخل للسانيات سوسير، ص 13.

[44]. مبارك حنون، نفسه، ص 16.

[45]– مجموعة من الباحثين، إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين، مختارات معربة، إشراف عز الدين مجدوب، المجمع التونسي للعلوم والفنون، تونس، ط1، 2012، ج1، ص 6.

1. مساهمة القول باستقلالية البنية اللغوية في فهم أفضل لخصائص الألسنة البشرية؛

2. "وضع مبادئ نظرية واحتياطات منهجية تمكن من الحصول على وصف ملائم لها ومعطيات موثوق بسلامتها"[46]؛

3. "تجنب إسقاط بنية لسان على آخر وهو أمر حصل بالفعل في تاريخ التفكير اللغوي الأوروبي"[47].

4. وعي البنيويين "بأن من مخاطر الوصف اللغوي ومزالقه تبني الباحث بصفة لا واعية التقسيمات والمقولات التي أَلِفها في لسانه الذي نشأ عليه سواء على مستوى الوحدات الصوتية أو الوحدات الصرفية والنحوية والمعجمية وإسقاطها على بناء اللسان الذي يصفه، وهو ما يشوه بنية اللسان موضوع البحث"[48].

5. ثم لا بد ألا ننكر الأساس المنهجي الذي قدمته النماذج البنيوية لما تلاها من النماذج المسماة "ما بعد البنيوية" وخصوصا الثنائيات التي أسس عليها دو سوسير نظريته، وهي من بين العناصر الصائبة في نموذجه والتي لا "يمكن لأي ألسنية علمية أن تستغني عنها أو تتجاهلها. فمثل هذه الألسنية الأخيرة لا يمكن أن تقوم إن لم تملك مفاهيما تُكَافِئ في وظيفتها مفاهيم اللسان والكلام. أو الدراسة التزامنية والدراسة التزمنية (أي السانكرونية والدياكرونية)، أو ما دعاه سوسور بالمحور التركيبي ومحور التداعي في اللغة، على الرغم من ضرورة مراجعة مثل هذه المفاهيم، خاصة المفهومين الأخيرين"[49]؛ لذلك نجد تلك الثنائية حاضرة ومدرجة في أغلب أعمال ما بعد البنيوية؛ وعلى رأسها

---

[46]- مجموعة من الباحثين، إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين، ص 6.

[47]- نفسه، ص 8.

[48]- نفسه، ص 7.

[49]- ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية، الأدب والنظرية البنيوية، ترجمة ثائر الديب، دار الفرقد، ط2، 2008 ص 30.

النظرية التلفظية لدى إميل بنفنيست، والبنيوية السيميولوجية لدى رولان بارط ونظرية التأويل لدى بول ريكور.

وبناء على الفرضيات المذكورة أعلاه؛ وخاصة فرضية استقلال البنية اللغوية كان لا محال من اعتبار الخطاب والعوامل الاجتماعية والتبليغية والتلفظية "خارج مجال اهتمامات اللسانيين لأن التلفظ ـأو الكلامـ كان يمثل بالنسبة لهم ظاهرة عصية الضبط Phénomène inaccessible، (على الأقل في هذه اللحظة) هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إنه ظاهرة قليلة الجدارة بالمقاربة والتنظير العلمي، بالقياس مع ما يوجد في العلم بشكل عام".[50] وبذلك تم حصر موضوع اللسانيات في الجملة بمعزل عن سياقها اللغوي في علاقته بأحوال الخطاب ومقتضيات التواصل اللغوي وما تطرحه هذه المقتضيات من ملابسات مختلفة. و"اللغة الإنسانية على درجة من التركيب في نظامها والاختلاف في تجلياتها تجعل علم اللسانيات دائم التطور. فاللغوي يواجه وفرة عظيمة من مادة البحث تمتد بين ما يدرك بالملاحظة من التخاطب المباشر وبين العويص من التأملات الرياضية والفلسفية في اللغة."[51] وهذا ما لم تضعه في الحسبان لسانيات المرحلة الأولى وهي اللسانيات البنيوية، لما حاولت التحكم في تلك المادة الوافرة بعزل اللغة وغض النظر عن كل ما يمكن إدراكه بالملاحظة أثناء التخاطب، والتركيز فقط على التأملات الرياضية والمنطقية والتوزيعية للوحدات اللغوية؛ وتلك وجهة نظرها الخاصة بها.

وعلى الرغم مما حققته اللسانيات البنيوية من إنجازات بحثية؛ فإن رؤيتها في الدراسة والتحليل لا تسلم من بعض الانتقادات، وسنذكر في ما يلي أبرزها:

---

[50]. Catherine Fuchs et Pierre LE GOFFIC (1975), Initiation aux problèmes des linguistiques contemporaines, librairie HACHETTE, Paris, p112.

[51]- روبرت دي بوكراند، النص والخطاب والأجراء، مرجع سابق، ص 72.

ـ **حصر اللغة وجعلها مستقلة عن كل تفكير نفسي أو فلسفي أو اجتماعي**، إلى درجة أصبحت فيها اللسانيات في هذه المرحلة من تطورها مهددة بالاختناق إذا استمرت في إقصاء الخصائص الإنجازية للغة[52]. في حين أنه لا يجب حصر المعرفة الإنسانية على الإمكانات المتاحة فقط، "بل ينبغي أن يعلم الناس أي الاحتمالات أولى بالاختيار وأصلح للاستعمال في موقف بعينه ولغرض بذاته"[53]. وهذا أيضا ما لم تكشف عنه اللسانيات البنيوية التي كرست جهودها لدراسة النظم الافتراضية والبنيات المغلقة عن الواقع وغيبت مرتكزات التفعيل التي تتعرض لها اللغة أثناء عملية التواصل، والتي غالبا ما تخالف وتخرق قواعد تلك النظم الافتراضية؛ لأن "أعمال الناس وأقوالهم لا تحكمها قوانين مطلقة القواعد، [بالرغم من] أنه ينبغي للناس أن يعتدوا بكيفيات تطبيق النظام إذا أرادوا استعماله استعمالا مؤثرا"[54]. وبالتالي، لم يعد من المجدي معالجة النصوص بزعمها أنظمة افتراضية أو عناصر من أنظمة. وهذا كله ما سيتم تجاوزه في المرحلة الثانية من التطور الذي عرفه البحث اللساني دون إحداث القطيعة التامة مع المرحلة الأولى.

ـ **نقد الذاتية وإبعادها عن الدرس اللساني**، حيث فرضه التوجه الذي أخذته اللسانيات البنيوية على عاتقها، ألا وهو وضع البحث اللساني في مصاف الأبحاث العلمية الدقيقة، وكان من بين الفرضيات المقترحة في هذا التوجه هي إبعاد كل ما يتعلق بالذات الإنسانية، وبالتالي تجريد اللغة من إنسانيتها، و"القول بأن الذات الإنسانية لم تعد شيئا متمسكا وأساسيا ومحوريا، كما يفترض الإنسانويون، وإنما هي نتاج أو أثر جانبي

---

[52]. Orecchioni, (C.K), (1980), L'énonciation de la subjectivitédans le langage, librairie Colin, Paris p 5.

[53]. روبرت دي بوكراند، النص والخطاب والأجراء، مرجع سابق، ص 97.

[54]. روبرت دي بوكراند، النص والخطاب والأجراء، ص 100.

لـ«بنى» تدْرسها هذه الفروع"[55] أي فروع العلوم الإنسانية. وكان هذا من بين الأسباب البارزة في إدانتها.

نلمس عزل الذات عن اللغة في اللسانيات البنيوية بشكل جلي في التمييز الذي أقامه سوسير بين اللسان والكلام، حيث أشار إلى أن الكلام فعل فردي ينطوي على الكثير من الإرادة والذكاء volonté et d'intelligence الفرديين،[56] وتتدخل فيه ذاتية المتكلم وأجَّله إلى أن يُدرس من قبل فروع معرفية أخرى. وكذلك كان مع إميل بنفنيست في كتابه قضايا اللسانيات العامة، حيث أعاد الاعتبار للكلام والذات المتكلمة وخصص لهما حيزا مهما من أعماله، نذكر منها "الذاتية في اللغة"[57]، "والجهاز الصوري للتلفظ"، و"الشكل والمعنى في اللغة"[58].

غير بعيد عن هذا؛ قامت كاترين كيربرات أوركيوني بجمع بعض مسلمات البحث اللساني البنيوي مع الانتقادات الموجهة لها، وهي على الشكل التالي:

1- الاهتمام باللسان وإبعاد الكلام وهو الشفرة العاملة

تقول أوركيوني في هذا الصدد: "إنها لسانيات السنن C'est une linguistique du code ينبغي أن تردّ إليها وقائع الكلام كلها"[59]. في حين، ليست للشفرة أية واقعية تجريبية، أي أن هناك استعمالات متنوعة لهذه الشفرة، لم تُؤخذ بالاعتبار في اللسانيات

---

[55]- ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية، الأدب والنظرية البنيوية، مرجع سابق، ص 32.

[56]- Ferdinand de saussure, (1916), Cours de linguistique générale, p 30.

[57]- صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص 135.

[58]- إميل بنفنيست، الشكل والمعنى في اللغة، ترجمة الحسن الهلالي، مجلة نوافذ، العدد 30، ديسمبر 2004.

[59]- Orecchioni, (C.K), (1980), L'énonciation de la subjectivité dans le langage, p 6.

البنيوية. ناهيك عن عدم التساؤل عن "الطريقة التي تتجلى بها الشفرة في الخطاب، عن طريق نموذج للإنتاج والتأويل"[60].

2- إقصاء الوحدات عبر-جملية (Transphrastique):

لقد نتج هذا الإقصاء بسبب توقّف البحث البنيوي عند مستوى الجملة، وقالت أريكشيوني في هذا الصدد: "ومن هذا المنظور، فإن الوحدة الكبرى التي يقف عندها التحليل هي الجملة....."[61]، وتدعو هنا إلى ضرورة الإحاطة بوحدات أكبر من الجملة وهي الخطاب والنص والملفوظ.

3- بساطة آليات البحث عن المعنى:

قالت أريكشيوني في هذا الصدد: "إن آلية إنتاج المعنى بسيطة نسبيا، وهي ذات دعامة مزدوجة:

- الدال المعجمي، والذي لا يحمل دلالة وحيدة إلا إذا وُضع في سياق بعيد عن حالات الالتباس ولعبة الكلمات.
- بعض الأبنية التركيبية، المترابطة دلاليا، والتي تكشف عن العلاقات الدلالية بين الدوال المعجمية"[62].

ونلاحظ أن هاتين الدعامتين غير كافيتين للكشف عن المعنى، والحال أن الدال المعجمي لا يحمل دلالة واحدة إلا إذا وقع خارج حالات وصفتها أوركيوني بالمرضية pathologiques، وهي حالات الالتباس ولعبة الكلمات، ونادرا ما تستعمل الدوال خارج هذه الحالات. أما الأبنية التركيبية فلا تتجاوز دور الكشف عن العلاقات بين الدوال المعجمية. كما تقصد أوركيوني من هذا الانتقاد أن اللسانيات البنيوية غيبت دور باقي

---

[60]. ماري آن بافو و جورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، ترجمة: محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2012، ط 1، ص 282.

[61]. Orecchioni, (C.K), (1980), L'énonciation de la subjectivité dans le langage, p 6.

[62]. Ibid, p 6.

الوحدات اللغوية التي تشارك بشكل فعال في بناء المعنى، كالوحدات الأصواتية، والخطية، والإيقاعية، والنصية كذلك.

4- عدم الاهتمام بالإخفاقات التواصلية

وذلك نتيجة عدم تمثُّل الشفرة العاملة، وهي الكلام، من زاوية تطبيقية، ففي الخطاطة التواصلية التي وضعها رومان جاكبسون يتجلى الكلام كمواجهة مثالية بين شخصين حرين واعيين، ويملكان الشفرة نفسها، ومن تم يكون شفافا ناجحا على الدوام، وترى أوركيوني أن النموذج الذي قدمه جاكبسون في التواصل اللساني أقصى الجوانب المحيطة بالعملية التواصلية والقدرات اللغوية والثقافية والإيديولوجية للمخاطبين، والتي تساهم أحيانا في إنجاح هذه العملية، أو إخفاقها أحيانا أخرى. ومن تم قدمت نموذجا بديلا[63] طعَّمته بتلك العناصر السياقية وقدرات المتخاطبين الإيديولوجية والثقافية، وقيود عالم الخطاب Contraintes de l'univers de discours، التي تقوم بتوجيه نشاط حل السنن، وتظهر هذه القيود في نمطين من العوامل:

- ✓ الظروف الملابسة للعملية التواصلية؛
- ✓ الخصائص الموضوعية والبلاغية للخطاب، وبالإجمال، قيود "الشكل"[64].

كما قامت بتوظيف نموذجي الإنتاج Modèle de production ونموذج التأويل Modèle d'interprétation، اللذين يتأسسان انطلاقا من فعل تلفظي فعال ينتج عن تعبئة المعارف التي يتوفر عليها المشاركون حول لغتهم. فالذوات المرسلة والمتلقية توظف قواعد عامة تحكم سيرورات عقد السنن وحله[65].

وانطلاقا من هذا التفكير المنهجي، تحول اللسان من سنن منظم لأجل نقل المعلومة، "إلى وصفه واعتباره جوهر العلاقات البين-ذواتية Intersubjectives" قيد

---

[63]. Orecchioni, (C.K), (1980), L'énonciation de la subjectivité dans le langage. P19.

[64]. Ibid, P 17.

[65]. Ibid, P 18 .

التنفيذ في الخطاب"[66]. ومن هنا بدأ الاهتمام باللغة وهي في حالة الاستعمال، ودراستها في علاقاتها بملابسات الإنتاج كالحالة النفسية للمتخاطبين أو الجانب الاجتماعي والثقافي المتعلق بالسياق والمقام والخصوصيات الثقافية للذات المتكلمة/المستمعة، وأثر هذه العلاقات في المعنى.

5- الإيمان القوي بمقولة المحايثة l'immanence

أخذت هذه المقولة باللسانيين البنيويين إلى غض الطرف عن كل العناصر خارج لسانية، في حين تبين أنه لا يمكن استبعاد السياق والمرجع أثناء دراسة الظواهر اللغوية ذات الانتماء الدلالي إلى سياقات الإنتاج مثل الضمائر والإشاريات. ومنه "اتضح أن عزل اللغة عن الفكر والواقع "أي دراستها في ذاتها ومن أجل ذاتها" لم يعد له اليوم الضرورة العلمية، خاصة بعد ظهور وتطور النظريات التداولية التي فتحت أفق البحث أمام المجال الحيوي للفعل الإنساني بما يحمله من مؤهلات ذاتية تطلق لدى الفرد حرية المبادرة والإبداع، وبما يراكمه من تجارب فردية ومعارف موسوعية ووقائع خارجية تنقل الفرد من مجال الأقوال إلى ميدان الأفعال، وهو انتقال لا يتم بشكل اعتباطي أي بدون ضوابط وقواعد، بل هو محكوم بقواعد لسانية، منطقية، نفسية، واجتماعية، قيمية جمالية ثقافية...هي خلاصة ما وصلت إليه نظريات متعددة تناولت تلك القطاعات المعرفية بشكل متخصص"[67].

مفاد القول من هذا؛ إن اللسانيات البنيوية عزلت اللغة عن الفكر والواقع ولم تهتم بتجارب الفرد (المتكلم) ومعارفه الموسوعية التي تتدخل في إنجازاته وأفعاله الكلامية

---

[66]- Ducrot Oswold (1989), Logique, structure, Énonciation, lectures sur le langage, Minuit, P149.

[67]. عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، ط 2، 2012، ص 7.

وتنقلها إلى أفعال حقيقية بناء على قواعد لسانية ومنطقية ونفسية واجتماعية وثقافية، لم تأخذها لسانيات البنية بعين الاعتبار كما أشرنا.

ويمكن أن نلخِّص الانتقادات المنهجية التي وجهتها أوركيوني للسانيين البنيويين فيما سماه ليونارد جاكسون «Leonard Jackson» بـ "البؤس المنطقي"؛ وهو بؤس بيّن عجز المدارس البنيوية عن تقديم نظرية وافية في اللغات الإنسانية، حيث أصبح واضحا بالنسبة ليونارد جاكسون "أن ثمة نقاط ضعف جوهرية في نموذج اللغة السوسوري؛ وهي نقاط ضعف تبلغ من الشدة ما يكفي للقول، بمجرد إلقاء نظرة سريعة عن ذلك النموذج، إنه عاجز منطقيا عن تقديم نظرية وافية في اللغات البشرية. وإنما أدعو هذا النوع من نقاط الضعف الجوهرية "بؤسا منطقيا""[68]. إذ تبين أن النماذج البنيوية عاجزة عن تقديم نظرية وافية في اللغة، فما بالك بأن نعول عليها في تقديم نموذج تحليلي شاف للخطاب وللعلوم الإنسانية أو للنظرية الأدبية، ويعود سبب هذا الضعف بالدرجة الأولى إلى كون "النموذج السوسوري [مثلا] لا يشتمل على تصور واف للنحو أو التركيب، وفي أن فكرته عن المقولة الأساسية في هذا النموذج وهي الدالول، فكرة مضطربة ومشوَّشة، والأهم من كل هذا هو تصور النموذج بوصفه "نظاما من التقابلات المحضة دون إي حدود إيجابية ثابتة، فلا يكون لدال معين كالصوت " cat" أي معنى إلا بتقابله مع دوال أخرى كالصوت "dog"."[69]

نشير إلى أن هذه العوامل، أو هذه النواقص البحثية، ساهمت في تغيير وجهة نظر الباحثين حول اللغة ومناهج دراساتها، من التعامل معها بوصفها بنية إلى مطاردة أوجه استعمالها في السياقات المختلفة، وبالتالي بروز لسانيات الاستعمال، وهي المرحلة الثانية من مراحل التطور التي عرفها البحث اللساني.

---

[68]- ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية، الأدب والنظرية البنيوية، مرجع سابق، ص 27.

[69]- ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية، الأدب والنظرية البنيوية، ص 27.

نخلص من هذا إلى أن العوائق التي اعترضت البحث البنيوي تنقسم إلى عوائق تتعلق بطبيعة اللغة التي تستعصي عن أي ضبط داخل قوالب تركيبية ودلالية جاهزة، عندما تتحول إلى خطاب عند استعمالها في وضعيات تلفظية متباينة. وعوائق تتعلق بالمنهج لعدم كفايته في الإحاطة بوحدات اللغة التي تفوق الكلمة والجملة، كالخطاب والنص والملفوظ، لأن الوحدات فوق- جملية لابد أن يتدخل فيها ما هو ذاتي وما هو سياقي اجتماعي.

3.2. لسانيات الاستعمال اللغوي

لقد بدأ الاهتمام بالخطاب والتلفظ والاستعمال اللغوي في بداية ستينيات القرن الماضي، بعد كشف قصور المنهج البنيوي، ونتيجة انفتاح اللسانيات على العلوم الإنسانية والمعرفية، مثل الفلسفة علم النفس وعلم الاجتماع والسيميولوجيا والدراسات الأدبية؛ حيث بدأت تتلاشى تلك الحدود الضيقة التقليدية للبحث اللساني نتيجة هذا الانفتاح والتفاعل بين فروع العلوم الإنسانية؛ وظهرت لسانيات الجيل الثاني ذات النزعة الخطابية والتلفظية، تأخذ بعين الاعتبار العلاقات المعقدة للنشاط التواصلي والتفاعل الاجتماعي في الدراسات اللسانية، من زوايا متنامية وشاملة، ويرى أصحاب هذا التوجه "أن أنظمة العلاقات اللغوية ليست هدفا في ذاتها، بل إنها ليست دائما إلا وسيلة لأغراض غير لغوية. ولذلك تتحكم فيها عوامل خارجية، ولا تشرح شرحا تاما إلا على هذا النحو"[70]. وعلى العكس من هذا انهمكت البنيويات في دراسة اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها وليس لغرض غير لغوي. كما أنه لا يمكن النظر إلى الخطاب في ضوء النسق التزامني وحده كما فعل دو سوسير، وإغفال تعالقه بالمواقف والأحداث التي تنسب إليه، حيث يصعب أن نعزل الخطاب عن ظروف إنتاجه وعن ثقافته وخصوصيات مستعمليه وذواتهم. ولهذا؛ فإن تحليلنا للخطاب

[70]. جرهارد هلبش، تطور علم اللغة منذ 1970م، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، 2007، ط 1، ص 25.

يجب أن نأخذ فيه بعين الاعتبار "حركة العلاقة المتوترة بين البيئة والاستعمال اللغوي. وإذا كانت العلامة تعتمد على سياقها الملفوظ من قبل ومن بعد فإنها باستمرار تحيل على مواقف محذوفة. وينتج قدر كبير من سوء التفسير من إهمال هذه الموافق وطرقها في التدخل"[71].

ولهذا، فقد أصبح من فرائض البحث اللساني الحديث النظر إلى اللغة انطلاقا من حقيقة اشتغالها؛ أي لحظة تحققها الواقعي في شكل خطاب أو خطابات، وإدراج الخطاب والنص والملفوظ والسياق الاجتماعي والثقافي التاريخي والعاطفي لاستعمال اللغات في حسبان الأبحاث اللسانية، إلى أن صارت قضايا الخطاب والتداول اللسانيّيْن مركز اهتمام لسانيات التلفظ والتداوليات والسوسيولسانيات.

ومن بين النظريات التي اتخذت هذا التحول بالحسبان نجد التداولية، فهي من بين النظريات التي قاربت اللغة في علاقتها بالمستعمل ومؤول العلامات وبالسياقات المختلفة التي تستعمل فيها اللغة. وهذا ما أورده مسعود الصحراوي حيث عرف التداولية بأنها: "مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفية استخدام العلامات اللغوية بنجاح والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب...."[72]. وتتميز التداولية بتشعب مباحثها وتخصصاتها وتنقسم إلى ثلاثة اتجاهات أساس:

1. **نظرية التلفظ:** يعتبر إميل بنفنيست Émile Benveniste من روادها ما بين 1950-1976، حيث كتب مقالا بعنوان "الجهاز الصوري للتلفظ"[73]، حاول فيه البرهنة على ضرورة الأخذ بالوضعية التواصلية في دراسة الاشتغال اللساني، وعرف التلفظ بقوله

---

[71]. مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة، يناير 1995، ص 290.

[72]. مسعود الصحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، ط1، 2005، ص 5.

[73]– Émile Benveniste, 1974, Problèmes de linguistique générale, Éditions Gallimard, T2, PP 79 – 88.

"هو توظيف اللغة عبر فعل (Acte) فردي الاستعمال"[74]، وحاولت أوركيوني، من جهتها، حصر حدود اشتغال لسانيات التلفظ بقولها " آن الأوان لحصر حقل دراستنا، يعني أن نقدم جوابا عن السؤال: ما المقصود إذن بالتلفظ؟ ماذا يجب أن يكون؟ وماذا يمكن أن يكون موضوعا "للسانيات التلفظ"... ومحاولة كشف الالتباس l'ambiguïté الذي سيمس تصور هذا التلفظ"[75]. ولهذا الغرض تهتم نظرية التلفظ بدراسة الإشاريات والمبهمات، والذاتية في اللغة، والعلاقات المرجعية بين المتخاطبين.[76] لقد "كان هم اللسانيات التلفظية في مراحلها الأولى، رصد وتحليل السامات (marques) التلفظية في الكلام، وهذه السامات هي عبارة عن أدوات للغة، وظيفتها تسجيل ذاتية المتكلم في التلفظ"[77]، وهذه الأدوات اللغوية هي الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والإشاريات.

2. **نظرية أفعال الكلام:** وعرفت في بدايتها مع جون أوستين في كتابه "كيف نصنع الأشياء بالكلمات"[78]، وبناها بعده سورل، ثم طورها بول كرايص بوضع مبادئ التعاون المعروفة لديه[79]، إذ يعود الفضل إلى هذه النظرية في وضع مفهوم الفعل اللغوي، والقصد والقصدية، ومفهوم الأداء والإنجاز، والاستلزام الحواري.

3. **النظرية الحجاجية:** بزعامة أوزولد ديكرو الذي ساهم بعدد من الأعمال في بناء هذه النظرية، منها وضعه للسلالم الحجاجية. وتنشغل نظرية الحجاج – التي تعتبر

---

[74]– Émile Benveniste, 1974, Problèmes de linguistique générale, T2, p 80.

[75]– Orecchioni (C.K), L'énonciation de la subjectivité dans le langage, P 28.

[76]. ينظر: نور الدين أجعيط، تداوليات الخطاب السياسي، علم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012، ص 62.

[77]. ماري آن بافو، جورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص 283.

[78]. أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني، افريقيا الشرق، 1991.

[79]. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998، ص 237 وما بعدها.

نقطة التقاء التلفظية ونظرية أفعال الكلام[80]– بالحوار والمؤشرات الحوارية في اللغة وقوانين التخاطب ووظيفة اللغة القائمة على التأثير في الآخرين.

ورغم هذا التقسيم للتداولية إلى هذه الاتجاهات المذكورة، فهناك غالبية من علماء اللسان لا تتفق حول معالم الفصل بين هذه الاتجاهات ولا ترى أي ضرورة في الفصل بينها، كما يذهب بعض اللسانيين إلى اعتبار التداولية على تيارين: "تيار ينبع من أطروحات فلسفية ومنطقية مختلفة، يمكن جمعها تحت عنوان "الفلسفة اللغوية" وتجمع نظريات مختلفة ومتداخلة كالفلسفة التحليلية والنماذج المنطقية المختلفة، وتيار ينبع من اهتمام اللسانيين بالتخاطب وذاتية المتكلم وخصائص الخطاب"[81]. فالأول يقصد به نظرية أفعال الكلام، أما الثاني فهو الخاص بنظرية التلفظ، لتبقى نظرية الحجاج نقطة التقاء بين التيارين الفلسفي واللساني.

إننا إذا أمعنا النظر قليلا في قضايا هذه الاتجاهات التداولية؛ سنلاحظ التغيُّر الملموس الذي عرفته سيرورة البحث اللساني. لقد سجّلنا أن التداوليين تنبّهوا إلى حساسية اللغة ودورها في المجتمع وأشكال التلاوين التي تتخذها في الخطاب انطلاقا من سياقات استعمالها. وبفضل ذلك، قفزت هذه الاتجاهات من سلة مهملات اللسانيات ومن كونها توجهات مكمّلة أو ثانوية تابعة للسانيات إلى مركز التحليل اللساني؛ مُشهِرةً بطاقة الصدارة ضمن قائمة النظريات الأساسية في البحث اللساني الراهن باعتبارها "تداولية تسعى أن تكون مندمجة في اللسانيات لا تكملة لها، بل هي جزء لا يتجزأ منها، ومن ذلك التداولية المدمجة كما عرضها ديكرو"[82]، وكذلك كان حيث حققت هذا الإدماج وبرهنت

[80]. صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، ط1، 2008، ص7.

[81]. صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، مرجع سابق، ص7.

[82]. نور الدين أجعيط، تداوليات الخطاب السياسي، مرجع سابق، ص 61.

على قدرتها على سبر أغوار الإشكال الذي أرّق البنيويين ألا وهو إشكالُ المعنى وزِئْبَقِيَّتُهُ المستمرة.

3. خلاصة

نستنتج مما سبق تناوله في هذا الفصل المعنون بـ "الخطاب واللسانيات: المفهوم والمكانة"، أن مفهوم الخطاب لا يتحدد بشكل واضح إلا بوضعه في شبكة التقابلات مع المفاهيم المحيطة به كاللغة والجملة والنص... مثلما لا يتحدد هذا المفهوم إلا بالنظر إلى المقاربات اللسانية التي اهتمت به ولو بشكل جزئي، مثل النظريات البنيوية والتداولية التي أشرنا إليها.

وخلصنا، أيضا، إلى أن مكانة الخطاب في اللسانيات لم تكن وليدة لحظة دقيقة ومباشرة، وإنما سجل أغلب الباحثين أن الخطاب عرف انزياحا تدريجيا في دخوله لمجال البحث اللساني. فبعد أن تحرر، هذا البحث، من قبضة المنهج البنيوي الذي سجن اللغة زمنا لا يقل عن نصف قرن، – منذ ظهور المحاضرات السوسيرية إلى حدود ستينيات القرن الماضي– اتجه نحو دراسة اللغة في علاقتها بالإنسان والمجتمع والظواهر الثقافية والتاريخية والسياقية المحيطة بها.

نشير إلى أننا لا ننكر فضل المنهج البنيوي على لسانيات الخطاب عامة، – ولسانيات التلفظ بشكل خاص– حيث شكل المنطلق الأول الذي ألْهم اللسانيين لخوض الغمار في دراسة الخطاب وتحليله، والنظر إلى تحققاته الفعلية، إذ يشهد اللسانيّون ويصرحون بأن "البرنامج النظري للسانيات الكلام منصوص عليه بوضوح من لدن سوسير

في (CLG)"[83] لو لم يتخل عنه، وأجَّله إلى أن يستوي عود البحث اللساني بين العلوم الحقة ذات التوجه النسقي التجريدي.

فرغم ذلك، وعلى الرغم من التراكمات التي حقّقتها اللسانيات، فإن مجهودات سوسير تبقى "ذا قيمة لا تنكر، إذ لا تزال مجموعة من الإشكاليات التي أثارها راهنة وغير محسوم في أمرها حسما نهائيا. فضلا عن ذلك، ورغم دقة المناهج اللسانية وصرامتها، فإنه يمكن القول إن أي شيء لم يجد حله النهائي مع أي عمل من الأعمال اللسانية الرائدة"[84]. وليس هذا حال المناهج اللسانية فحسب؛ بل هو ديدن العلوم، والعلوم الإنسانية منها على وجه الخصوص، لا تملك حلا نهائيا لأي قضية، وإنما تبقى أسئلتها الإشكالية تتدحرج من نظرية إلى أخرى، ومن مقاربة إلى أخرى، فتنمو وتتطور ككرة ثلج.

[83]- ماري آن بافو و جورج إلياسرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص 281.

[84]- مبارك حنون، مدخل للسانيات سوسير، مرجع سابق، ص 6.

الفصل الثاني:

لسانيات التلفظ

وتحليل الخطاب:

التحديد والسيرورة

تمهيد

تعتري حقل "تحليل الخطاب"، أولا، فوضى اصطلاحية نظرا لتداخله مع مصطلحات خاصة بحقول أخرى، كمصطلح "تحليل النص" أو "تحليل المضمون" أو "تحليل المحادثة"، وتعتريه، ثانيا، مزايدات معرفية تأريخية تختلف من حيث تاريخ ظهوره التدريجي، ومن حيث مراحل نمو الوعي بالاهتمام به بين الباحثين في اللغات والآداب، كما تعتريه، ثالثا، إشكالات تعدد زوايا النظر التي تحوم حوله من لسانيات اجتماعية وتداولية وتلفظية ونفسية ونصية وعلم الاجتماع ونظريات الأدب....

سنحاول، في هذا الفصل، إيضاح هذه القضايا المذكورة أعلاه، وهي قضايا تطرح نفسها أمام الباحث في تحليل الخطاب، كما سنتحدث عن الخطوات المنهجية التي تتبعها لسانيات التلفظ في دراسة الخطاب. وسنستهل هذا الإيضاح بطرح تحديد لمفهوم "تحليل الخطاب".

1. تحليل الخطاب: تعريف وتأريخ

1.1. مفهوم تحليل الخطاب

يتداخل تحليل الخطاب[85] Discourse Analysis مع تحليل النصوص وتحليل المطارحة[86] وتحليل المحادثة؛ غير أن زاوية النظر هي التي تحدد الفروق الدلالية بين هذه المفاهيم. فتحليل الخطاب نعثر عليه في الأعمال المتعلقة بلسانيات الخطاب، أما تحليل النصوص فهو المفهوم المعتمد في لسانيات النص خاصة، وفي اللسانيات البنيوية عند اشتغالها بتحليل النص الأدبي، والذي يعبر عنه أحيانا بـ "تحليل المضمون"

[85]. "تحليل الخطاب" هو ترجمة للمقابل الإنجليزي الذي وضعه زليغ هاريس وهو "Discourse Analysis".

[86]. "تحليل المطارحة" مفهوم استعمله حسن محمد وجيه واعتمده باعتباره أقرب الكلمات تحقيقا للمقابل الانجليزي: discourse Analysis، ينظر: مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي، عالم المعرفة، ع 190، أكتوبر 1993، ص 72.

«Analyse de contenu»: وهو فرع من الفروع اللسانية التي تحاول إعادة الاعتبار ليس للجملة فقط وإنما لمتوالية من الجمل والتي تشكل بدورها نصوصا وذلك بـ "محاولة تحديد القواعد التي تتحكم في تسلسل مدلولات النص: وهذا ما يسمى بتحليل المضمون"[87].

في حين يرد مفهوم تحليل المحادثة Analyse conversationnelle عند النظريات اللسانية الحديثة التي تحتفل بقواعد الحوار مثل التداولية في الصيغة الكرايصية (نسبة إلى كرايص الذي طورها، ووضع مبادئ التخاطب قصد التحكم في الأفعال الكلامية) والتداوليات المدمجة لدى ديكرو، حيث يرد هذا المفهوم بمعنى "دراسة التبادلات اللفظية الشفهية أو المكتوبة، مع التسليم بأن كل خطاب يكون تفاعليا في الأساس"[88].

يقصد بتحليل الخطاب، (أو تحليل الملفوظ)، "الفرع المعرفي المعني بالنظر في الوسائل المختلفة التي يوظفها المتحدثون، والكتاب؛ للربط بين الجمل المفردة ربطا يكوّن نصا كليا، يتسم بالتماسك الشكلي، والدلالي"[89]. يمكن أن يُنْسب هذا التعريف، بالنظر إلى وحداته اللغوية، إلى اللسانيات النصية؛ لأنها تهتم في تحليلها بمفهوم التماسك والانسجام داخل النصوص، كما يقصد بتحليل الخطاب، من هذا المنظور، "تقسيم بنية النص إلى وحدات أساسية وفق رؤية منهجية محددة سلفا"[90]. وإن أخذنا في هذه الرؤية المنهجية

---

[87]. Jean Dubois et autres, 1973, Dictionnaire de linguistique, Librairie Larousse, Paris, p 32.

[88]. ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص 328.

[89]. جين إتشسن، اللسانيات مقدمة إلى المقدمات، ترجمة عبد الكريم محمد جبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016، ص 212.

[90]. نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، عالم الكتب الحديث، عمان، ط1، 2009، ص 96.

بظروف إنتاج هذا النص فإننا بصدد تحليل الخطاب؛ أي أننا بصدد التعامل مع النص بوصفه خطابا حيث "إن دراسة النص بإرجاعه إلى ظروف إنتاجه يعني تصوره بوصفه خطابا"[91] وهنا يتداخل مفهوم تحليل النص مع تحليل الخطاب.

أما تحليل الخطاب بالمعنى الذي نريده هو التحليل الذي "لا يفصل الملفوظ عن البنية اللسانية، ولا عن شروط إنتاجه سواء كانت شروطا تاريخية وسياسية، كما أنه لا يفصل الملفوظ عن التفاعلات الذاتية، إنما يقدم قواعد القراءة حتى يسمح بتأويل معين"[92]. إن هذا المعنى الأخير لتحليل الخطاب هو الأقرب للصورة التحليلية التي تقترحها لسانيات التلفظ، حيث يستحضر هذا التعريف أغلب العناصر التي تستعين بها التلفظية في تحليل الخطاب مثل عدم الفصل بين الملفوظ والبنية اللسانية و"شروط الإنتاج" و"التفاعلات الذاتية" التي تحدّد هوية المتلفظ والمتلفظ له، وتقول ذهبية حمو الحاج، في هذا الصدد: "في تحليلنا للخطاب آثرنا اعتبار اللغة في مركز القوة والفاعلية (أي في ماهيتها الحقيقية =الاستعمال) بحيث إن كل من هوية المتكلم والمخاطَب تتحدد إلى جانب الحديث ضمن ظاهرة الاستمرارية Continuité والتفاعلية Interaction"[93].

ويعرف جون دوبوا تحليل الخطاب بأنه: "التوجه اللساني الذي يحدد القواعد المتحكمة في إنتاج متوالية من الجمل المبنية structurées"[94]. ويقصد به، من المنظور التداولي، تحليل استعمالات اللغة بهدف الكشف عن المعنى المرتبط بظروف الإنتاج؛ أي تحليل أشكال التلاوين التي تتخذها معاني الملفوظات عند كل استعمال جديد، والبحث في دور ظروف الإنتاج في تغيُّر هذه المعاني.

---

[91]. ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص 328.

[92]. فرانسين مازيير، تحليل الخطاب، (الفصل الأول)، ترجمة ذهبية حمو الحاج، مجلة الخطاب، دار الأمل للنشر والتوزيع، ع 3، مارس 2008، ص 383.

[93]. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل، ط2، 2012، ص 143.

[94]. Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, p 32.

انطلاقا مما سبق ذكره، فمفهوم تحليل الخطاب يتغيّر تبعا للدراسة المتبعة وزاوية النظر المعرِّفة له، حيث تُضَمِّن، في تعريفها له، مفاهيمها ورؤيتها التحليلية المقصودة. ويبقى تحليل الخطاب ما هو إلا "إحدى استراتيجيات عديدة في التحليل، ومن المفيد دائما استخدام تحليل الخطاب مع أشكال أخرى من التحليل كـ: مبحث الأعراق والثقافات أو أشكال دراسة المؤسسات"[95]؛ أي أنه يبقي دائما في حاجة إلى ضميمة تضاف إليه لتُخصِّصَهُ أكثر، وتقنِّن مجال اشتغال محلّليه، وترسم حدودهم المنهجية والموضوعية، كأن نضيف نوع الخطاب المراد تحليله: الخطاب الروائي/ الشعري/ السياسي/ الديني/ الحزبي، إلخ. ثم ندقق تحليلنا أكثر بالتصريح بالمنهج المعتمد منذ أول وهلة.

ورغم هذا التعدد وهذا التغير الذي يطبع مفهوم "تحليل الخطاب" تبقى الخصيصة الأساس التي تميزه هي الجوانب التالية:

- تجاوز حدود الجملة والبنية؛
- الأخذ بعين الاعتبار تفاعلية الخطاب؛
- وضعيات تلفظه وحالات المتخاطبين؛
- مراعاة علاقات السلوك اللغوي بالسلوك البشري؛
- تفاعل الذات مع الخطاب، وانعكاسها فيه.

فما دون هذه الاعتبارات لا يمكن أن ننسبه إلى "تحليل الخطاب".

2.1. تحليل الخطاب: إشكال تعدد زوايا النظر

يتوزع "تحليل الخطاب" بين مجموع فروع البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، حيث لا يمكن أن ننسبه، باعتباره موضوعا مستقلا، إلى تيار بحثي خاص أو إلى نظرية محددة، ولا يمكن لأي نظرية أو تيار لغوي أو اجتماعي أو نفسي أن يقول بامتلاك

[95]. نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب، التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ترجمة طلال وهبه، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009، ص 20.

"تحليل الخطاب" موضوعا خاصا به. ولكن تبقى وجهة النظر التي دُرس بها الخطاب هي المحدد الأساس والمميز لكل اقتراح من مقترحات تحليل الخطاب.

يقوم بتحليل الخطاب كل من اللساني وعالم الاجتماع وعالم النفس إلخ، كل من زاويته الخاصة، مما يؤكد أنه "بإمكان تحليل الخطاب أن يعنى بنفس المدونات على غرار علم الاجتماع وتحليل الحديث إلخ، ولكن تحليل الخطاب، باستناده إلى هذه التخصصات المجاورة، يتبنى وجهة نظر مختلفة. فدراسة استشارة طبية مثلا تفضي إلى الاحتفال بقواعد الحوار (موضوع تحليل الحديث) والتنوعات اللغوية (موضوع علم الاجتماع اللغوي) وأساليب المحاجة (موضوع البلاغة) إلخ، غير أن هذه الإسهامات المختلفة مدمجة من قبل محلل الخطاب"[96]. غير أن هذا له انعكاس سلبي على مستوى تحديد حقل تحليل الخطاب، حيث إن تعدد زوايا النظر للخطاب و"الاختلاط المألوف بين تحليل الخطاب ومختلف مباحث الخطاب هاته (تحليل المحادثة، وتحليل الخطاب، ونظريات الحجاج، ونظريات التواصل، واللسانيات الاجتماعية، واللسانيات الإثنية... واللائحة طويلة)"[97] من بين الأسباب الرئيسية في ضبابية معالم هذا الحقل.

ومع غياب رؤية منهجية واضحة لدى لسانيات الخطاب؛ "فإن تخصيص تحليل الخطاب كونه "قانونا علميا" أو "لسانيا" يكون عسيرا وصعبا بحيث لا تزال لسانيات الخطاب تبحث عن منهجية خاصة في ميادين مختلفة كالتاريخ، الفلسفة، الاقتصاد... رغم خصوصياته اللسانية، بحيث انزاح عن هاته الأخيرة بعدما احتضنته علوم لسانية وقعدت له، وصار حقلا من حقولها"[98]. أي أنه حتى ذلك التفاؤل باحتضان لسانيات

[96]. دومنيك مانغنو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، مرجع سابق، ص 10.

[97]. ألفا أوصمان باري، تحليل الخطاب: أسسه النظرية، ترجمة لحسن بوتكلاي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 5، 2014، ص136.

[98]. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، مرجع سابق، ص 152.

الخطاب لـ "تحليل الخطاب"، نظرا للخصوصية اللغوية لهذا الأخير، زعزعه انزياح تحليل الخطاب إلى فروع إنسانية أخرى فـ "لم يعد موضع اهتمام فريق من المتخصصين دون غيره"[99]؛ لأنه أصبح موضوعا حيويا لدى كافة تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية، إلى درجة أن وصفه "كلود ليفي شتراوس" بالأسطورة أو بالعمل الترقيعي Mythe ou Travail de bricolage.

إن مردَّ هذا الإشكال يعود بالأساس إلى مفهوم الخطاب الذي استعصى عن أي اتفاق تعريفي موحد بين وجهات النظر المتعددة المهتمة به. "فهذا المصطلح يضم في الآن نفسه، معاني عديدة وخطابات متنوعةً؛ تعوّق أي محاولة لخلق توافق بين وجهات النظر حول تعريف وحيد مقبول عند كل الباحثين".[100]

ومفاد هذا القول إنه يمكن أن تلتقي هذه التخصصات وغيرها من فروع العلوم الإنسانية حول دراسة نفس الخطاب، حول خطاب من جنس واحد، إلا أن زاوية النظر الخاصة بكل تخصص هي التي تميز هذا التحليل عن ذاك. كما يعود تنوع زوايا النظر إلى الخطاب إلى كون لسانيات الخطاب ليست تخصصا ذا موضوع محدد؛ ولكنها مقاربات عديدة بينها علاقة خاصة حيث تتدرج تحت مسمى "لسانيات الخطاب" كل من لسانيات النص ولسانيات التلفظ والتداولية، وكل الفروع التي تهتم بالبعد عبر الجملي للملفوظات، وإن تعددت هذه الفروع فإن بينها قاسما مشتركا ألا وهو "تجاوز وجهة النظر التي قال بها البنيوي: تجاوز حدود الجملة وتجاوز لسانيات الملفوظ، التي تركز على تحليل متن محكم، دون أي إشارة إلى نشاط المتكلم"[101] وإقامة تحليلها للخطاب على

---

[99]. حسن محمد وجيه، مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي، علم المعرفة، الكويت، ع 190، أكتوبر 1993، ص 73.

[100]. ألفا أوصمان باري، تحليل الخطاب: أسسه النظرية، مرجع سابق، ص 136.

[101]. Dominique Maingueneau, 1976, Initiation aux méthodes de l'analyse du discours, Librairie HACHITTE, p 100.101.

أساس دراسة السلوك اللغوي في علاقته بظروف إنتاج الخطاب وفي علاقته بالسلوك الثقافي وبالذات المتكلمة أيضا، وبحثها في كيفية تشكل النصوص وانسجامها، وأشكال تحول تلك النصوص إلى خطابات.

غير أن تعدد هذه الزوايا المهتمة بتحليل الخطاب أدى هذا الأخير ضريبتها، المتمثلة في فقدانه للاستقرار من جهة الموضوع ومن جهة المنهج، فوجود "تحليل الخطاب يقف في مفترق طرق العلوم الإنسانية، [جعله] عرضة لعدم استقرار جم، ذلك أنه يوجد محللون للخطاب هم بالأحرى علماء اجتماع وآخرون هم بالأحرى لسانيون والبعض الآخر علماء نفس"[102].

يظهر من خلال هذا الكلام، أننا إذا أردنا أن ننجو من هذا الخلط المفهومي والمنهجي، يجب علينا أن نحدد الإطار الذي نشتغل عليه، وذلك بوسم تحليلنا بخطوات منهجية واضحة، تميّزه عن باقي الأساليب التحليلية التي تقدمه باقي الفروع التي تشاركنا في نفس الموضوع. ويوجِّهُنا سعيد يقطين لقارب النجاة هذا، بقوله: "لتحديد الخطاب وتحليله التحديد والتحليل المقبولين علينا أن نحدد الاتجاه الذي ننتمي إليه والمجال الذي نشتغل فيه وفق أسئلة إبستمولوجية محددة. نجيب من خلالها عن هذه الأسئلة. لماذا هذا التعريف؟ وما هي الإجراءات المناسبة؟ إلى ماذا ينبغي الوصول؟ وكيف؟...."[103]

ومن هذا المنطلق، يتحدد مجال اشتغالنا في تقديم وجهة نظر لسانيات التلفظ حول تحليل الخطاب حيث سنركز الحديث حول العناصر التلفظية في تحليل الخطاب الروائي. كما أننا ملزمون، بناء على الأسئلة المشار إليها أعلاه، بطرح الأسئلة الإبستمولوجية الخاصة بالمنظور التلفظي في هذا الموضوع، (وسنطرحها في حينها).

---

[102]. دومنيك مانغنو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، مرجع سابق، ص 10-11.

[103]. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، الزمن والسرد والتبئير، مرجع سابق، ص 25.

3.1. موجز تاريخ تحليل الخطاب

تعود جذور تحليل الخطاب إلى التمييز الذي أقامه دو سوسير بين ثنائية "اللسان/الكلام": الأول بوصفه نسق دلائل يعبر عن أفكار، في حين كانت لسانيات أستاذ جنيف تنظر إلى الثاني (الكلام) مدار العشوائية والقرارات الفردية، وهي خصائص لا تنسجم مع شروط الدراسة الدقيقة، ومنذ أن وضع دو سوسير هذا التمييز إلى حدود خمسين سنة بعده، طرح تيار لسانيات الكلام أهمية النظر في وظائف التواصل في دراسة اللغة، وظيفة تعبيرية، عاطفية، ذاتية، فردية،... التي تطرح إشكاليات دراسة الملفوظات التي تفوق الجملة، خاصة فيما يتعلق بالتلفظ[104]، هذا من جهة أولى.

ويرى فريق آخر، من جهة ثانية، وهو الطرح الأكثر اطرادا لدى الباحثين، أن بداية تحليل الخطاب تعود إلى الباحث الأمريكي زليغ هاريس حيث كتب مقالا بعنوان "تحليل الخطاب (1952)" سمح فيه "بتعدي حدود الجملة، ولكن من وجهة نظر توزيعية بعيدة تماما عن إشكالية التلفظ، في حين كان على تحليل الخطاب أن يتضمن، بالتوازي، تصورا يتجاوز حدود الجملة، ويهتم بإشكالية التلفظ"[105]. أي أنه وإن تجاوز حدود الجملة التي يقف عندها التحليل التوزيعي للغة فلم يشمل إشكالية التلفظ، ما دام أن هاريس اقترح الإبقاء على الإجراءات التوزيعية في تحليل الخطاب حين اصطدم بإشكال تعالق اللغة بالثقافة وبالذات المتكلمة. إن الإبقاء على نفس الإجراءات التحليلية هي – إن صح القول– أساس عدم مصداقية المحاولة التي قدمها زليغ هاريس.

ومن جهة ثالثة؛ يقرن فريق من الباحثين اللسانيين بداية الاهتمام بالخطاب بأحداث ماي 1968، التي عرفتها فرنسا آنذاك. حيث خرج الطلبة بلافتات تحمل شعارات

---

[104]. Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, p 32.

[105]. Dominique maingueneau, 1976, Initiation aux méthodes de l'analyse du discours, p 101.

من قبيل "فلتسقط البنيوية"، لكن لا يعني هذا أن دراسة الخطاب تبدأ من هنا؛ بل قد سبقتها دراسات أخرى، كالدراسات المسماة "بالعلوم الاجتماعية" التي قام بها ميشيل فوكو[106]، وقبلها تلك الدراسات البلاغية اليونانية والعربية.

غير أن ما يبرر انطلاقة الدراسات الخطابية بعد تظاهرات ماي 1968 هو تلك الهيمنة التي كانت تتمتع بها البنيوية، بشقيها الفلسفي واللغوي، في الجامعات الغربية والعربية بعدها؛ فضاق خاطر الطلبة منها ومن جفافها المنهجي، وطالبوا بإسقاطها بعد أن بانت أوجه فشلها في مستويات من التحليل اللغوي، وظهر فقرها وعَوَزُها المنهجي أمام ظواهر لغوية تبين أن فهمها وتحليلها يستدعي ضرورة الخروج عن النظام أو النسق بعبارة سوسير، إلى الاهتمام بالسياق والتداول، والبحث في مفعول اللغة في المجتمع والاقتصاد والذات المتكلمة/المستمعة، وذلك من أجل كسب فهم أفضل ومقبول لإشكال أرَّق الباحثين منذ أمد بعيد وهو إشكال اللغة.

نخلص مما سبق إلى أن تاريخ تحليل الخطاب مر بثلاث محطات مختلفة، فالمحطة الأولى وهي التي تعود إلى تمييز دو سوسير بين اللسان والكلام وبين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، يمكن أن نسميها **مرحلة تأسيس وتأجيل**؛ حيث أسست هذه المرحلة، بالفعل، للسانيات خاصة بفاعلية المتكلم وبالكلام عامة، ومرحلة تأجيل لأنه تم تأجيلها لصالح النزعة العلمية التي كانت تصبو إليها اللسانيات، تلك النزعة التي لا تستطيع التعامل مع الكلام نظرا لخصوصيته الفردية/ الذاتية، والاعتباطية.

في حين تتجلى المحطة الثانية في التأريخ لتحليل الخطاب بربط بدايته بتاريخ ظهور مقال "تحليل الخطاب" للساني الأمريكي زليغ هاريس؛ فيمكن أن نسميها **مرحلة**

---

[106]. ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة عزالدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2001، ص 80.

المحاولة، حيث حاول هاريس تعريف الخطاب، وتحديد الصعوبات التي تواجه هذه المحاولة، وهي:

- **الصعوبة الأولى:** تتجلى في توقف اللسانيات الوصفية عند حدود الجملة؛
- **الصعوبة الثانية:** هي العلاقة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللغوي والتي ينظر إليها دائما باعتبارها خارج لسانية[107].
- **الصعوبة الثالثة:** هي "أن كل متوالية من الخطاب تُنتج في وضعية محددة، تُعيِّن شخصا ما يتكلم..."[108]؛ أي أنه يصعب تحديد القواعد المتحكمة في إنتاج الخطاب لأنه يتميز بتغيُّر معانيها بتغير وضعيات إنتاجه اللانهائية.

أما مرحلة أحداث (68)، وهي المحطة الثالثة، فيمكن أن نسميها **مرحلة ثورة ووعي**، حيث وعي الطلبة والباحثون في تحليل الأعمال الأدبية بلا جدوى التحليل البنيوي وبقصوره المنهجي، فتمت تعبئة الدعوى لإسقاط كل أشكال الممارسات التحليلية التي تعزل الخطاب/ النص عن سياقه، وتجرده من تفاعله مع الذات المنتجة/المتلقية ومع محيطه الثقافي والاجتماعي....

ولكن، ألا يمكن أن ننسب البدايات الفعلية للاهتمام بالخطاب إلى الباحث الفرنسي إميل بنفنيست الذي انطلق في دراسته من إعادة النظر في المسلمات السوسيرية، وأقر لسوسير بالتنظير الأوّلي وتمَّمَ عملية بناء صرح لسانيات تلفظية تتجاوز حدود النسق وتأخذ بعين الاعتبار وضعيات التلفظ؟.

لقد قدم إميل بنفنيست مجموعة من الأعمال، تؤهله بحق إلى أن يكون من المؤسسين الأوائل لـ "تحليل الخطاب" من منظور لساني محض. من بين هذه الأعمال

---

[107]. Harris Zellig S, 1952, Analyse du discours, traduit par Françoise Dubois-Charlier, In: Langages, 4eannée, n°13, 1969, p 9-10.

[108]. Harris Zellig S, 1952, Analyse du discours, Ibid, p 11.

نذكر: "اللغة والتجربة الإنسانية"؛ "الشكل والمعنى في اللغة" "الجهاز الصوري للتلفظ"؛ "طبيعة الضمائر" إلخ. وقد تجيب هذه الأطروحة على هذا السؤال، أو لنقل، ستجيب على جزء مهم منه. وقد يصبح هذا السؤال هو الأطروحة نفسها التي ندافع عنها.

إن ما يزيد من نسبة صحة هذا الطرح هو حجم الاستفادة التي نالتها نظريات الأدب والسرديات وتحليل الخطاب من أعمال هذا الباحث حيث إننا كلما فتحنا كتابا في هذه المجالات والتخصصات المجاورة لها، إلا ووجدنا اسمه حاضرا بصفة بارزة.

2. لسانيات التلفظ وتحليل الخطاب

لم يكن اهتمام لسانيات التلفظ بالخطاب وليد لحظة أو نتيجة ترف فكري، وإنما جاء نتيجة قراءة فاحصة للإرث السوسيري، والكشف عن أهم مزالقه، كما جاء أيضا نتيجة وعي رواد النقد والتحليل الأدبيين بقصور المناهج السابقة مثل المنهج البنيوي والتوزيعي والتفكيكي، فحاولوا الاستفادة من الجهاز المفهومي الخاص بلسانيات التلفظ، وبلسانيات الخطاب عامة.

ونظرا لهذه السيرورة التطورية التي عرفها تحليل الخطاب بشتى أنواعه، لا بد أن نعرِّج على الحديث عن منظور المناهج السابقة في هذا الصدد، مركزين على أسلوب نظرها في العمل الأدبي، لنكشف مزاياها ومزالقها، ولنبين من خلالها الوعي الجديد بعدم انفكاك الخطاب الأدبي وغيره، عن عناصره المنتجة/المتلقية وعن بيئته ومحيطه الاجتماعي. هذا الوعي الذي أصرت لسانيات التلفظ على استحضاره لحظة تحليلها للخطاب.

1.2. التحليل البنيوي للخطاب الروائي

يستعمل البنيويون مفهوم "النص الروائي" بدل "الخطاب الروائي" في غالب الأحيان لكون مفهوم "النص" هو الأنسب لما يذهبون إليه في خطواتهم التحليلية، ولكون مفهوم "الخطاب" يتطلب النظر في مجموعة المعطيات التي تخرج عن نطاق المنهج البنيوي في الدراسة والتحليل.

يقوم التحليل البنيوي "للخطاب" الروائي على النظر في بنية النص باعتباره بنية كلية مستقلة عن واقعها الخارجي وعن مؤلف هذا النص، "ففي داخل النص يحضر النص بكليته وشموليته وتداخله وتكامله في ترتيبه، وفي شخصياته، وفي عالمه الافتراضي، كما يظهر للقارئ في أثناء القراءة. أما خارج النص فلا يوجد إلا الكتاب الذي يعد شيئا ماديا أو سلعة تجارية من سلع العالم الفعلي"[109].

يُظهر لنا النص أعلاه، بشكل واضح، الاقصاء التام لكل ما هو خارج نصي في تحليل الخطاب الروائي، حيث إن هذه المقاربة لا تؤمن إلا بما يوجد داخل النص، ولا ترى في "خارج النص" إلا كتابا معروضا على رفوف المكتبات. في حين غيبت الفاعلية الخطابية التي ينسجها الخطاب الروائي في علاقاته المعقدة بين المؤلف والواقع الاجتماعي والسياسي الذي ينتمي إليه، من جهة، وبين عناصر هذا الخطاب؛ من شخوص وأزمنة وأمكنة، والتي تشكل انعكاسا أدبيا وجماليا لما يعتمر ذهن الروائي من وقائع سياسية وثقافية ودينية واجتماعية بصورة عامة، يلفظها في خطابه الروائي، في روايته، من جهة ثانية.

[109]. مرسل العجمي، تجليات الخطاب السردي، الرواية الكويتية نموذجا، أعمال الندوة الرئيسية لمهرجان القرين الثقافي الحادي عشر، 2004، "الرواية العربية ممكنات السرد"، عالم المعرفة، الكويت، ع 357، 2008، ج1، ص69.

إن التحليل البنيوي يتعامل مع مكونات السرد الأساس وهي: الخطاب والحكاية، لا باعتبارهما "عنصرين متحققين في الواقع الفعلي خارج النص، وإنما ينبغي النظر إليهما بوصفهما مفهومين إجرائيين يستعين بهما الباحث في تحليل النصوص السردية...."[110].

ويقصد بالحكاية، من هذا المنظور: "المتن الموضوعي بمكوناته المختلفة: الأفعال والوقائع، الشخصيات، الفضاء المكاني/الزماني. ويمثل الخطاب الكيفية التي يجري عن طريقها تقديم ذلك المتن إلى متلق مفترض في صياغة كتابية ناجزة"[111].

إذن فالحكاية، هنا، هي كل مكونات المادة الخام للنص الروائي، أما الخطاب فهو الصورة التي تنتظم فيها تلك المكونات لتخرج في شكل صياغة خطابية "كتابية" للقارئ المفترض. غير أن لسانيات التلفظ ستقدم هذين المفهومين في صورة جديدة؛ تعريفا وشرحا وتحليلا.

ويعد هذا الذي استشهدنا به سابقا، شكلا من أشكال الوقفات التي ينظمها المحللون البنيويون أمام "المرايا المحدبة"، "وقد وقف أمامها الحداثيون جميعا ودون استثناء، الأصليون منهم والناقلون، لفترة كانت كافية لإقناعهم بأن صورهم في المرايا المحدبة هي حقائقهم"[112]، نتيجة الحماس الشديد الذي أخذهم تجاه السعي نحو تحقيق علمية التحليل والنقد. غير أن هذه الحقائق، وهذا الطموح العلمي لم يحقق منه الشكلانيون والبنيويون إلا النتيجتين التاليتين:

- النتيجة الأولى: طرح نموذج ضيق "لا يسمح لنا بالتعرف على كل إمكانيات العمل الأدبي. إن فكرة وجود شكل كوني سابق الوجود في جميع أنواع السرود، تتبع من تصور

---

[110]. مرسل العجمي، تجليات الخطاب السردي، الرواية الكويتية نموذجا، المرجع السابق نفسه، ص69.

[111]. مرسل العجمي، نفسه، ص69.

[112]. عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، علم المعرفة، الكويت، ع 232، أبريل 1998، ص 6.

أكثر جمودا، وبالتالي من تصور اختزالي. وعليه ينبغي إذن تجاوز البنيوية وتوجيه التفكير باتجاه فكرة أكثر دينامية للأدبي"[113]؛

– النتيجة الثانية: سجن اللغة، والفشل في تحقيق معاني النص ودلالاته؛ لأن الكشف عن المعاني المضمرة و"قراءة ما بين السطور" "lire entre les lignes" يمر عبر طريقتين:

أ. "الأولى تركز على التوظيف الواسع لمحيط النص (ظروف إنتاجه، وهدفه العام)؛

ب. الثانية هي التركيز على التأثير الذي يحدثه النص في المتلقي"[114].

ولا نلمس في التحليل البنيوي – انطلاقا من النصوص التي استشهدنا بها في الفقرتين السابقتين – أي اعتماد على إحدى هاتين الطريقتين. فالبنيوية الأدبية كما يرى بول ريكور، مثلا، "وهي تضع نفسها في حرم المحكي، لا تبحث في مكان آخر خارج علامات عملية السرد، إشارةَ هذا المستوى السردي، وبما أنها تمنع على نفسها كل سيكولوجية متعلقة بالسارد أو المستمع، وكل سوسيولوجية المستمعين، فإنها تقتصر على وصف القانون الذي يدل من خلاله السارد على طول المحكي نفسه"[115]، وبهذا فهي تفضل أن نبقى في تأجيل النص، وأن نتعامل معه باعتباره نصا معزولا عن عالمه وعن مؤلفه، وسنشرحه إذن انطلاقا من علاقاته الداخلية ومن بنيته. وبالتالي تأجيل النظر إليه باعتباره شكلا من أشكال التواصل الاجتماعي الذي يقدمه المؤلف في صورة مكتوبة ومنمذِجَة لأشكال الخطابات الفعلية. وبالتالي؛ فهي تقف عند حدود القراءة، حسب بول

---

[113]. فانسون جون، الأدب عند رولان بارط، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص 22.

[114]. Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, p 34.

[115]. بول ريكور، من النص إلى الفعل، ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2001، ص 128.

ريكور، ولم تتجاوزها نحو مرحلة التأويل أو قراءة ما بين السطور كما أشار إلى ذلك جون دوبوا.

إن التحليل البنيوي، بوقوفه عند شرح العلاقات الداخلية للنص – وهو ما يسميه بول ريكور بالتأويل الساذج الذي يقابله بالتأويل النقدي، أو تأويل السطح مقابل تأويل العمق– وتأجيل النظر في علاقاته المرجعية، حصر مهمته عند مرحلة القراءة فقط، أما إذا رفع هذا التأجيل واقتحم عقبات التواصل المباشر والخطاب الفعلي فإنه سيتجاوز مهمة القراءة إلى التأويل، مما يعطيه إمكانيات أكثر للفهم، وفرصا للإمساك بالمعنى. فهذا التحليل، حسب بول ريكور، لا يعدو كونه لعبة تبادل الكلمات وتركيب العلاقات الداخلية للنصوص، وكل تأمل في خطواته المنهجية لا شك أنه سيطرح السؤال المعهود: ماذا بعد أن كشفنا عن هذه العلاقات؟ ما المحصول المستفاد من هذا التحليل؟، مما يبرّر أن المناهج البنيوية الخاصة بتحليل المستويات اللغوية التي لا تفوق الجملة، لم تعد تغني الباحث في بحثه عن الحقيقة، بعد أن فقدت فرضيات هذه المناهج بريقها، واهترأت أوتارها ولم يعد أحد يعزف على إيقاعاتها. وقد هاجر بعض البنيويين أنفسهم أطلال هذه الطروحات والفرضيات، ومنهم رولان بارط "الذي أعلن عام 1970 أنه هجر الطريقة التي اتبعها عام 1966 عندما كتب مدخله الشهير إلى "التحليل البنيوي للقص""[116]، و"دعا إلى التعويل على القارئ الذي يكتب النص وهذا بإعادة تركيب المعاني الواردة فيه"[117]. كما تنكر لها ألتوسير وفوكو (وهما من الآباء الروحيين لها ومن مؤسسيها الأوائل) وبول ريكور الذي أصدر عمله "من النص إلى الفعل (1986)"، أظهر فيه وجهة نظره تجاه البحث البنيوي في قراءة النص الأدبي وتأويله، باعتباره أثرا.

[116]. إديث كريزويل، عصر البنيوية، ترجمة: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1993، ص 10.

[117]. حسين خالفي، البلاغة وتحليل الخطاب، منشورات الاختلاف، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2011، ص 41.

وسبب مغادرة البنيويين أنفسهم للأطروحة البنيوية هو التناقض المنهجي الذي يمسّ المقاربات المحايثة الخاصة بالخطاب الروائي، وهو تناقض يمكن اكتشافه بنظرة بسيطة، وذلك حين تلغي كل مرجع خارج النص علنا، وفي الآن نفسه نعثر في تحاليلها على الحديث عن مرجعيات الواقع الحكائي، لنتأمل في النص التحليلي البنيوي التالي الذي يحمل صورة من ذلك التناقض:

"إن الواقع الحكائي في المدونة الروائية الكويتية يحيل على مرجعيات مختلفة يمكن تحديدها في ما يلي: مرجعية الواقع الاجتماعي المعاصر الذي يناظر أو "يحاكي" مجتمع كويت ما بعد النفط"[118].

مرد هذا التناقض هو وعي بعض البنيويين، ومنهم جناح من الشكلانيين، في آخر المطاف، بـ "أنه برغم استقلالية البناء اللغوي للنص، فإننا لا نستطيع أن نفصله فصلا كاملا عن البنى التحتية التي تشكل الثقافة ووعي الكاتب، أي أننا لا نستطيع أن ندرس أو نحلل العمل الأدبي بمعزل عن القوى الاقتصادية والاجتماعية والصراع الطبقي"[119].

ومع تقدم البحث؛ تزايد الوعي بأهمية العمل الأدبي وبضرورة الأخذ بعين الاعتبار محيطه الاجتماعي وظروف إنتاجه وسيكولوجية منتجه ومتلقّيه. ما أدى إلى تجاوز النزعة المتعالية "التي تلغي التاريخ وتغترب بالإنسان في سجون "النسق" و"البنية" و"النظام"[120].

إن من مظاهر هذا الوعي هو النظر إلى الخطاب الأدبي ـ وإلى الرواية ـ باعتباره جزءا "من ثقافة المجتمع. والثقافة، مثل الرواية، مكونة من خطابات تعيها الذاكرة الجماعية، وعلى كل واحد في المجتمع أن يحدد موقعه وموقفه من تلك الخطابات. وهذا

[118]. مرسل العجمي، تجليات الخطاب السردي، الرواية الكويتية نموذجا، مرجع سابق، ص69.

[119]. عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، مرجع سابق، ص 165.

[120]. إديث كريزويل، عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور، مرجع سابق، ص 9.

هو ما يفسر حوارية الثقافة وحوارية الرواية القائمة على تنوع الملفوظات واللغات والعلامات..."[121] فيصبح الروائي منتجا للمعرفة ومحاورا لثقافته ولمجتمعه؛ ومنظما لـ "علائق حوارية متبادلة بين اللغات والأجناس التعبيرية، بين لغة الماضي ولغة الحاضر والمستقبل"[122] فتتحول الرواية من مونولوج مغلق إلى نسيج من الملفوظات واللغات.

إن معضلات التحليل البنيوي للخطاب الأدبي، بشتى أجناسه، تجعلنا نعانق، بقناعة، التوجهات الحديثة التي فتحت هذا الخطاب على مُنتجه وعلى مجتمعه وسياقه السياسي والاقتصادي. لقد أدركت لسانيات الخطاب، منذ الوهلة الأولى، أهمية ما هي قادمة على القيام به، كما وعت بخطورته. ومن تلك الخطورة ما عاينّاه من صعوبة تحديد مفهوم الخطاب، وكذا تعدد زوايا النظر التي تشاطرها في تحليل الخطاب من علم الاجتماع وعلم النفس وفلسفة اللغة إلخ.

وبهذا؛ فإن من مظاهر الإدراك المبكر لمعضلات البنيويين ولخصوصيات الدراسات الخطابية، -كما أشرنا- هو تجاوز وجهات النظر القائلة بأن الخطاب الأدبي مونولوج مغلق موجه إلى متلق سلبي إلى الإيمان به بوصفه جزءا من ثقافة المجتمع؛ ومن خطابات مستوحاة من الذاكرة الجماعية، تحمل مواقف أفراد المجتمع وإيديولوجياتهم وترسم حدودهم الثقافية وموقعهم من باقي الخطابات. ويُعد هذا شكلا من أشكال الوعي بـ "أهمية اللغة/اللغات داخل المجتمع، وفي التراث المكتوب والشفوي، وصياغة للحوار بين الذات الساعية للمعرفة وبين العالم الخارجي"[123].

ويشير أحمد العاقد إلى أنه كلما أخذنا بالاعتبار تفاعل ما هو لساني بما هو ثقافي وتعالق الذات بمعرفة العالم "قلنا إن الكتابة الروائية فعل تواصلي بامتياز. لما لا؟ [...]

---

[121]. ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1987، ص 22.

[122]. ميخائيل باختين، نفسه، ص 22.

[123]. نفسه، ص 22.

ومن ثمة، نذهب إلى أن التحديث في البنية السردية والتجريب في الكتابة الروائية تفعيل سيميائي في اللغة والعالم. ولما تلازم التحديث والتجريب في تشكيل نسق الكتابة من منظور حداثي وجب علينا وسم النسق السردي وسما تواصليا حيث ترجيح الموجه تداوليا على المؤسس قضويا. وترجيح الإنجازي على النحوي".[124] أي ترجيح التحليل التلفظي/ السياقي/ التفاعلي على التحليل النسقي المغلق. ومنه أخذ العاقد بافتراض السرد "سيرورة تواصلية" قائمة على التفاعل بين السارد والمتلقى، وبالتالي الانتقال الإجرائي من اعتبار الإنتاج الروائي نصا Text إلى اعتباره خطابا Discourse، يتفاعل فيه ما هو لغوي بما هو اجتماعي وثقافي. سنشير في ما يلي من فصول هذا البحث إلى صور هذا التفاعل ومظاهره.

صفوة القول من هذا؛ إن الخطاب الروائي ليس مجموعة من الجمل التي تشكل نصوصا مستقلة بذاتها، ولها عالمها الخاص و"الافتراضي" كما يسميه البنيويون؛ وإنما هو خطاب، أو نسيج من الخطابات التي لا انفكاك لها عن ذاتية السارد والمؤلف وعن محيطها الاجتماعي الذي أنتجت فيه. وبالتالي؛ فأي نظرة إلى هذا الخطاب غير آبهة بهذه الخصوصيات وهذه التفاعلية تبقى نظرة تجريدية اختزالية ناقصة كحال نظرة البنيويين والشكلانيين.

2.2. التحليل التلفظي للخطاب

إذا كان المقصود بالتحليل هو تقسيم بنية الخطاب أو النص إلى وحدات أساسية باتباع خطوات منهجية واضحة ومحددة؛ فإن التحليل التلفظي للخطاب هو تقسيم هذا الأخير إلى مكوناته الأساس وفق العناصر التي تهتم بها نظرية التلفظ. وهذه العناصر هي: السياق التلفظي، وعناصر الإطار التلفظي، والضمائر والإشاريات، وصيغ التلفظ،

[124]– أحمد العاقد، آليات التواصل، دراسات في تنوع أشكال الخطاب، دار أبي رقراق، الرباط، طبعة 2016، ص89.

ومستويات الخطاب. والسؤال الذي يطرح نفسه، هنا، هو كالتالي: كيف تفكك نظرية التلفظ هذا الخطاب؟ وكيف تحلل هذه العناصر؟ وبعبارة أخرى، ما الذي يستفيده التحليل التلفظي من السياق؟ وكيف تستعين نظرية التلفظ بعناصر الإطار التلفظي في فهم معاني الملفوظات؟ وكيف تدرس ضمائر الخطاب وإشارياته؟ وكيف تحدد مستويات الخطاب وصيغه؟.

وبالنظر إلى منطلقات نظرية التلفظ، فإن تحليلها للخطاب يقوم على مراعاة الظروف الخارجية لإنتاج الخطاب، فتدرس التغيرات التي تطرأ نتيجة تحوُّل اللغة إلى خطاب حيث تلعب سياقات هذا التحول دورا هاما في تغيُّر معاني الملفوظات من استعمال إلى آخر، مما يؤكد أهمية السياق في تحليل الخطاب الذي يركز على تحليل استعمالات اللغة، ليس لتحليل البنية اللغوية، وإنما لإظهار المعاني التي تولدها ظروف إنتاج الخطاب.

إن البحث في تحليل الخطاب من منظور لسانيات التلفظ يوقفنا أمام أسئلة تطرح نفسها بنفسها، هي كالتالي:

أ. ما الخطاب عند لسانيات التلفظ؟؛

ب. كيف استطاعت لسانيات التلفظ أن تفرض نفسها في الساحة اللسانية؛ معلنة ثورتها على النماذج البنيوية؟؛

ج. ما هي الإجراءات التحليلية التي اقترحها اللسانيون التلفظيون في تحليل الخطاب؟ ولتحليل الخطاب الروائي بشكل خاص؟؛

د. إلى أي حد استطاعت المقاربة التلفظية أن تحتوي، بمنهجها، الخطاب الروائي بكل خصوصياته؟.

لقد أعادت لسانيات التلفظ النظر في اللسانيات السوسيرية واتخذتها منطلقا لبناء تصور شامل يتجاوز لسانيات الجملة إلى الاهتمام بالخطاب والتلفظ، وإعادة الاعتبار للذات المتكلمة/المستمعة التي أُبعدت من الدرس اللساني في النماذج البنيوية. لقد انطلق إميل بنفنيست من الثنائية السوسيرية لسان/كلام، وأكد على أنه لا بد من الاهتمام بالكلام والتلفظ، حيث برهن على عجز التحليل البنيوي عن تقديم إجابات حول كيفية تشكل المعنى في بعض الوحدات السانية مثل الضمائر والإشاريات. وفيما يلي أهم المحاور التي يركز عليها التحليل التلفظي للخطاب:

- إعادة النظر في مفهوم اللغة، وظائفها، والانتقال بها من وصفها أداة للتواصل إلى اعتبارها مكمن "الذاتية" عندما يحولها المتكلم لحسابه الخاص أثناء عملية التلفظ التي يقوم بها؛ إذ يعلن عن نفسه متكلما وينصب الآخر مستمعا له. يقول إميل بنفنيست في هذا الصدد: "إن الإنسان ينشأ ذاتا داخل اللغة وعبرها لأن اللغة وحدها تؤسس مفهوم "أنا" «ego» في الواقع وذلك في واقع اللغة، وهو ذاته واقع الوجود (=الكون). إن الذاتية التي نعالجها في هذا السياق هي قدرة المتكلم على فرض نفسه "ذاتا"[125]. وسنفصل الحديث في هذا حال مناسبة المقام لذلك.
- وضع عناصر العملية التواصلية: المتلفظ والمتلفظ له؛ "في صلب العلاقات التي توجد بين السلوك الثقافي وبين الخطابات الاجتماعية. وفي هذا الإطار، تصور منظرو التلفظ والتداولية الخطابَ مجموعة من الملفوظات ذات بعد تفاعلي وقدرة تأثيرية في الآخر، ومندرجة في مقام تلفظي وسائطه: المتلفظ والمتلفظ إليه، ولحظة التلفظ، ومكانه"[126]. كما يقوم التحليل التلفظي للخطاب على عملية الاستعلام Repérage وهي

[125]. إميل بنفنيست، عن الذاتية في اللغة، ترجمة صابر الحباشة، ضمن كتاب: لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، دار الحوار، سورية، ط1، 2010، ص 137.

[126]. ألفا أوصمان باري، تحليل الخطاب: أسسه النظرية، ترجمة لحسن بوتكلاي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 5، 2014، ص 136.

تحديد المتكلم و"الطريقة التي يسجل بها حضوره في خطابه (الضمائر)، التعرف على السياق (الزمان والمكان)، والهدف من الحديث، والمخاطَب المستفيد من الخطاب"[127]؛

❖ الأخذ بعين الاعتبار السياق وظروف إنتاج الخطاب؛ أي الاستعانة بعوامل خارج لغوية لفهم الخطاب "فابتداء من هذه المرحلة، لم يعد موضوع تحليل الخطاب يقوم على البحث على ما يقوله النص، بل على الكيفية التي يقوله بها"[128]؛

❖ البحث عن أشكال تمظهر الذات في الخطاب، أو ما يسمى بعملية "التذويت"[129] «Subjectivisation» ـ وهي عملية تتضمن حالات ظهور الذات المبدعة في الخطاب، وتظهر عبر الصوت السردي، أو عبر الحوار الذي يقيمه السارد بين شخوص الرواية ـ، وذلك بالكشف عن العناصر التي يبرز المتكلم من خلالها ذاته في الخطاب، وهذه العناصر هي الضمائر والإشاريات وصيغ الخطاب؛ وذلك أن "الفعل الفردي لامتلاك اللغة يُدخل المتكلم في كلامه وهو اعتبار جوهري في تحليل الخطاب"[130] عند رواد لسانيات التلفظ على الخصوص؛

❖ التمييز بين مستويات التلفظ الأساس: التلفظ التاريخي والتلفظ الخطابي، أو ما أصبح يسميه محللو الخطاب الروائي بـ "الخطاب والحكاية"، وأساس هذا التمييز هو حضور العناصر الإشارية وغيابها.

فمن خلال ما سبق؛ يمكن القول إن لسانيات التلفظ تسعى "إلى أن تكون تخصصا تفسيريا لإنتاج الخطابات. فبمجرد وضع الكلام في إطاره الاجتماعي، فإن الذات المتكلمة تستعيد موقعها في قلب الملفوظات. ويلجأ المحلّل إلى مفهوم التلفظ المقدم، إما بوصفه ظهورا للذات في الملفوظ، أو علاقة يقيمها المتكلم مع المخاطب عبر الخطاب، أو أخيرا

---

[127]. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، مرجع سابق، ص 158.

[128]. ألفا أوصمان باري، تحليل الخطاب: أسسه النظرية، مرجع سابق، ص135.

[129]. ينظر: عبد الرحمن التمارة، مرجعيات بناء النص الروائي، دار ورد، الأردن، ط1، 2013، ص 84.

[130]. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، مرجع سابق، ص 167.

موقفا للذات المتكلمة من ملفوظها..."[131]. انطلاقا من هذا النص؛ إن لسانيات التلفظ تقوم على تحليل نتيجة "فعل التلفظ" لكشف أشكال ظهور الذات المتكلمة في الخطاب، والكشف، أيضا، عن أشكال العلاقات التي يقيمها هذا الفعل بين المتخاطبين عبر العناصر الأكثر استعمالا في الخطاب ألا وهي الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة.

هذه هي الخطوط العريضة، إذن، للنموذج التحليلي الذي تقترحه لسانيات التلفظ لتحليل الخطاب؛ إذ ينصب اهتمامها على الأجزاء الأساس المشكّلة لهذا الخطاب وهي الضمائر والإشاريات بصورة عامة.

3. خلاصة

صفوة القول من هذا؛ إن الوضوح المنهجي والمفهومي هو السبيل الوحيد لإخلاء طريق البحث في تحليل الخطاب من إشكال تعدد زوايا النظر ومن التداخل الاصطلاحي مع المفاهيم المذكورة سلفا. والمقصود بهذا الوضوح هو اتباع خطوات منهجية محددة والحرص على استعمال جهاز مفهومي مضبوط ومتعمد في الأساس المنهجي المُتّبع مع الحرص على تحديد نوع الخطاب المراد تحليله لقياس مدى ملاءمة المنهج المنتقى لهذا الخطاب. وحرصا منا على هذه الضوابط، قمنا بحصر مجال اشتغالنا في مجال "تحليل الخطاب الروائي"، متبعين الخطوات المنهجية للسانيات التلفظ، ومن الواجب علينا، أيضا، أن نحرص على توظيف الجهاز المفهومي لهذه النظرية في الفصول القادمة والتي سنخصّصها لتطبيق المنهج التلفظي على نماذج من الخطاب الروائي المغربي المتمثل في رواية "الحنش" للروائي عبد الإله الحمدوشي.

[131]. ألفا أوصمان باري، تحليل الخطاب: أسسه النظرية، مرجع سابق، ص 140.

وخلصنا أيضا إلى القول بأن لسانيات التلفظ قدمت مقترحات منهجية واضحة في مجال تحليل الخطاب، تستحق بها أن تذكر على لسان كل مؤرخ لتحليل الخطاب، وستبدي لنا الفصول القادمة صحة هذا الطرح خصوصا إذا علمنا أن فترة الظهور التدريجي لهذه النظرية لا تبعد بكثير عن تاريخ ظهور بعض المحاولات في تحليل الخطاب كالمحاولة المشهورة لزليغ هاريس سنة 1952، حيث يعود مقال إميل بنفنيست "طبيعة الضمائر" «la nature des pronoms» إلى سنة 1956، وأضاف إليه سنة 1958 مقال "الذاتية في اللغة" «De la subjectivité dans le langage» وأُعيد نشرهما في كتابه «Problèmes de linguistique générale 1» سنة 1966. نقصد بهذا أن نؤكد على أن أعمال إميل بنفنيست عاصرت تلك المحاولات التي عدها الباحثون البدايات الفعلية للاهتمام بتحليل الخطاب في اللسانيات.

لقد تردد كثيرا في هذا الفصل ذكر "لسانيات التلفظ" دون تحديدها والتعريف بمفاهيمها وقضاياها النظرية والتطبيقية وأصولها الابستمولوجية، ولهذا فكلي تكتمل الصورة، ولو في جزئها الأبرز، لابد أن يلي هذا الفصل فصلٌ خاص بلسانيات التلفظ: أصولها ومفاهيمها وقضاياها.

الفصل الثالث:

في نظرية التلفظ

الأصول والقضايا

تمهيد

ظهرت لسانيات التلفظ بعد أن حقق البحث اللساني مجموعة من التراكمات، وبرزت على وجه البحث البنيوي عدد من علامات القصور، والتي بدت في حاجة إلى إعادة النظر والتجديد، وقد أخذت لسانيات التلفظ، إلى جانب الفروع الأخرى من لسانيات الخطاب عامة، مهمة هذا الترميم. فأعادت النظر في علاقة البحث اللساني بالذات المتكلمة وبالسياق والمعنى المتجدد بتجدّد فعل التلفظ. ولكن هذا لم يكن وليد لحظة مستقلة؛ ولكنه نتج عن معالجة أصول سابقة والاستفادة منها، مثل الإيطوس الأرسطي والنحو العربي والفلسفة الوجودية وغيرها من المباحث اللغوية والفلسفية القريبة من تصورات لسانيات الجيل الثاني، بما فيها لسانيات التلفظ.

سنغوص في هذا الفصل في الحديث عن الأصول الابستمولوجية لنظرية التلفظ، والتي من شأنها أن تعيننا على تمثلها، وفهم توجهاتها الكبرى، وغاياتها البحثية، ثم سننتقل إلى البحث في خصائص هذه النظرية، وقضاياها وبعض مفاهيمها المركزية.

وبهذا سنقسم هذا الفصل إلى محورين بارزين وهما:

- أصول نظرية التلفظ؛
- قضاياها ومفاهيمها وإشكالاتها.

1. أصول نظرية التلفظ

1.1. الإيطوس الأرسطي

الإيطوس عند أرسطو عبارة عن مجموعة من الخصوصيات الأخلاقية التي يوظفها المتكلم لإقناع المخاطب، أو هو صورة الذات Image de soi التي يمكن الكشف عنها من خلال بعض الوحدات اللغوية الذاتية التي يبصم بها المتكلم خطابه[132].

تعتبر لسانيات التلفظ من بين فروع علوم اللغة التي اهتمت بتحليل الإيطوس الأرسطي، أو هي "المرسى اللساني الأول لتحليل الإيطوس الأرسطي، بدراستها الوحدات اللسانية (الموصولات، والعينات، والصيغ، والمفاهيم التقييمية، إلخ) والتي تسمح للتكلم ببصم الملفوظ بذاتيته في التواصل (بشكل صريح أو ضمني) وبما يعود على ذاته"[133].

ويقرّ الباحثون بأن لسانيات التلفظ أعادت الاعتبار للذات المتكلمة في الخطاب، واعتبروا أن اهتمامها هذا بتجليات الذاتية ما هو إلا زاوية أخرى من زوايا صورة الذات التي تحدث عنها أرسطو. فقد أشار حاتم عبيد إلى أن لسانيات التلفظ قد "مضت قدما في هذا الاتجاه لتكشف لنا عن أن الملفوظ الواحد لا تسكنه ذات واحدة، بل تسكنه أصوات متعددة وتتنازعه جملة من الذوات، ما صورة الذات التي تحدث عنها "أرسطو" وعبر عنها بالإيطوس إلا واحدة منها"[134].

---

[132]. Ali Alsafar, 2014, Ethos discursif et construction des rapport intersubjectifs dans les profession de foi des élection présidentielles françaises de 2007 et de 2012, thèse doctorat, Université Montpellier. Paul Valéry, p 13.

[133]. Ali Alsafar, 2014, Ethos discursif et construction des rapport intersubjectifs dans les profession de foi des élection présidentielles françaises de 2007 et de 2012, op. cit, P 39.

[134]. حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص 36.

غير أنه يجب أن نميّز، هنا، بين زاويتي النظر الأرسطية والتلفظية بصدد البحث في صورة الذات في الخطاب، فقد اهتم أرسطو بالإيطوس أو صورة الذات في الخطاب، لإبراز دورها في إقناع المخاطب، إذ يَعتبرُ "الحجج التي تتولد من صورة المتكلم لدى السامع (Ethos) أهم من تلك التي تأتي من انفعالات السامع وعواطفه (Pathos)، ومن الحجج المتأتية من اللغة ذاتها (Logos)"[135].

فالإيطوس عند أرسطو لا يتجلى فقط من خلال الوحدات اللسانية، كالضمائر والموصولات والصيغ التلفظية التي تناولتها لسانيات التلفظ، بل يتجلى أيضا عبر الشخصية التي "ينحت الخطيب ملامحها من كيفية إلقائه وطبيعة نبرته وطريقة اختياره الكلمات وتجريده الحجج"[136].

أما صورة الذات عند لسانيات التلفظ فإنها تتجلى في الوحدات اللسانية التي تُبرز حضور المتكلم في الخطاب كالضمائر والموصولات والإشاريات الزمانية والمكانية إلخ، إلا أن ما يميز بحث إميل بنفنيست في هذه العناصر أنه ذهب متعمقا في العناصر الأكثر تمثيلية لذاتية المتكلم وحصرها فيما سماه بالضمائر الشخصية فقط، وفي أشكال تصنيف الزمان والمكان في الخطاب حيث تتدخل ذاتية المتكلم في هذا التصنيف. وبعد أن طورت أوركيوني وسيرفوني هذه الأبحاث تبين أن هناك عناصر أخرى بإمكانها كشف ذاتية المتكلم إلى درجة أصبح الحديث عن موضوعية الخطاب ضربا من الوهم، كما سنبين ذلك في الفصل الخاص بتجليات الذاتية في اللسانيات.

ويمكن القول بوجود نوع من التقارب، إن لم نقل حدا من التطابق، بين الإيطوس الأرسطي والذاتية في لسانيات التلفظ؛ وذلك إذا علمنا أن إميل بنفنيست يعرف الخطاب: "هو كل تلفظ بين متكلم ومخاطب عند الأول نية التأثير في الثاني" فحضور عنصر

[135]. حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، نفسه، ص 93.

[136]. حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، نفسه، ص 100.

التأثير في هذا التعريف هو وجه من أوجه الإقناع التي بحث فيها أرسطو، مما يكشف لنا عن تقارب الزاويتين، وهذا ما يبرر أيضا إدراجنا للإيطوس الأرسطي ضمن أصول نظرية التلفظ، هذا الإيطوس الذي صار "اليوم فكرة مركزية تتقاطع فيها البلاغة وحقول معرفية كثيرة تهتم بدارسة الخطاب ومسالك التأثير"[137].

2.1. النحو العربي

لقد سجلنا مجموعة من الإجراءات المنهجية التي يلتقي فيها إميل بنفنيست مع علماء النحو العربي؛ وهي إجراءات تخص بعض التصورات المتعلقة بالضمائر في اللغة، وقد أشار في أكثر من موضع إلى تأثره بالدراسات التي قام بها النحاة العرب القدماء فيما يتعلق بالمضمرات، بل وقد دعا إلى الانطلاق من التفاصيل التي اقترحوها بصدد التمييز بين أنواعها، إذ قال: "إن نظرية لسانية خاصة بالضمير المتصل بالفعل لا يمكن أن تتشكل إلا بالانطلاق من التقابلات التي تميز الشخوص بعضها عن بعض، واختزالها كلها في بنية هذه التقابلات. وللكشف عنها، يمكن الانطلاق من التعريفات التي استخدمها النحاة العرب. فالشخص الأول عندهم هو المتكلم al-mutakallim الذي يتكلم؛ أما الثاني فهو المخاطب al-muẖàtabu أي من نخاطبه؛ ولكن الثالث فهو الغائب al-yàîbu هو الشخص الغائب. نجد في هذه التسميات مفهوما دقيقا للعلاقة بين الأشخاص، ومفهوما أكثر دقة في تحديد علاقة ضمير الشخص الثالث بالضميرين الشخصيين الأولين"[138].

لهذا؛ فقد انطلق بنفنيست في تمييزه بين الضمائر الشخصية والضمائر غير الشخصية، من تقسيم النحاة العرب للضمائر إلى ضمائر الحضور وضمائر الغيبة، فالأولى هي الضمائر التي تحضر عائداتها في الوضعية التواصلية وهي الزوج أنا/أنت،

---

[137]. حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، ص 92 – 93.

[138] . Émile Benveniste, 1966, Problèmes de Linguistique Générale T1, p 228.

وما يشاكلهما، أما ضمائر الغيبة؛ فقد سميت بـ"الغيبة" لأنها تقع خارج الوضعية التلفظية التي تستعمل فيها، ويمثل الضمير "هو" وما يندرج تحت هذا الصنف من الضمائر.

أما من حيث طبيعة المعنى الخاص بالضمائر فإنه يلتقي مع الزمخشري وابن يعيش وابن قاسم المرادي وأخرين، حول الفكرة التي تقول: "إن الضمير عبارة عن دليل فارغ لا يحمل معنى إلا عند استعماله في الخطاب الفعلي"، وهو القول نفسه الذي صرح به النحاة العرب، بصيغة أخرى، كالذي قاله ابن يعيش في شرحه للمفصل: "والمضمرات لا لبس فيها، فاستغنت عن الصفات، لأن الأحوال المقترنة بها قد تغني عن الصفات. والأحوال المقترنة بها حضور المتكلم والمخاطب، والمشاهدة لهما. وأضعفهما تعريفا كناية الغائب، لأنه يكون كناية عن معرفة ونكرة حتى قال بعض النحويين: كناية النكرة نكرة"[139].

وقد أشار محمد الشاوش إلى أن المقصود بهذا المعنى الذي يُنكر إميل بنفنيست وجوده في الضمائر؛ هو المعنى الوظيفي، أي المعنى الخطابي الإحالي، الذي تؤديه الضمائر أثناء توظيفها في سياق القول، لذلك نجده يربط، في هذا الصدد، بين تصور إميل بنفنيست والنحاة العرب، فقال: "فإذا كان الأمر على هذا النحو هان الخطب، وارتفع التناقض، على أن ذلك لا يكون دون أن يلتقي كلام بنفنيست بما سبق النحاة العرب إلى الكشف عنه، ولكن من سبل مختلفة أساسها نظرية العامل"[140].

أما إذا ركزنا على قول ابن يعيش: "وأضعفهما تعريفا كناية الغائب" فهو الأضعف لأنه يعود على شخص أو شيء واقع خارج وضعية التواصل، فلا ينجلي معناه بالتمام كما ينجلي فيما تمثله ضمائر الحضور. لذلك يعتبره إميل بنفنيست ضميرا غير شخصي،

---

[139]. ابن يعيش، (ت643)، شرح المفصل للزمخشري، دار الكتب العلمية، ط1، 1422/2001م، ج2، ص 292_293.

[140]. محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 1421هـ/2001م، الجزء الأول، ص 49.

لأنه قد يعود على إنسان أو حيوان أو جماد، فقال: "الشكل المسمى بضمير الشخص الثالث يشمل دلالة الملفوظ على شخص أو شيء ما، لكنه لا يُعيِّن شخصا محددا... إنه بالفعل ‹الغائب› عند النحاة العرب"[141]؛ بل إنه صيغة الفعل التي تؤدي وظيفة التعبير في مقولة الضمير اللاشخص non-personne.

وفي الصدد ذاته؛ أشار الخضري في حاشيته على شرح ابن عقيل على الألفية، إلى أن الضمائر لا تُفسَّر إلى بقرينة التكلّم عكس أسماء الأعلام التي تعين مسماها في كل الأحوال الخطابية، إذ قال: "العلم هو الاسم الذي يعين مسماه مطلقا أي بلا قيد التكلم أو الخطاب أو الغيبة فالاسم جنس يشمل النكرة والمعرفة ويعين مسماه فصل أخرج النكرة وبلا قيد أخرج بقية المعارف كالمضمر فإنه يعين مسماه بقيد التكلم كأنا أو الخطاب كأنت أو الغيبة كهو"[142]. ويقصد بقوله "بلا قيد" أي بدون قرينة أي أنه تعيينٌ مطلق في كل السياقات التلفظية، ويتضح ذلك بقوله: "تفسير للإطلاق أي بلا قرينة خارجة عن ذات اللفظ لأن تعيين العلم من ذات وضعه بخلاف باقي المعارف فإنها موضوعة لتعيين مسماها لكن بواسطة قرينة إما معنوية كالتكلم وأخويه للضمير والتوجه والإقبال للمنادى أو لفظية كالصلة في الموصول وأل في مدخولها والظاهر أن منها الإضافة غلام زيد أو حسية وهي الإشارة بنحو الأصبع في اسم الإشارة فتعيين المدلول إنما بهذه القرائن لا من الوضع"[143].

فالمقصود بهذا هو أن الضمائر لا تحمل معنى من الوضع وإنما من خلال السياق الذي تستعمل فيه، بواسطة قرينة التكلم أو الحضور أو إرفاقها بإشارة الأصبع عند التلفظ بها، أما إميل بنفنيست فقال:" خارج الخطاب الفعلي، الضمير ليس إلا شكلا فارغا إذا لم يُربط بموضوع أو بمفهوم معين ليوصل بحقيقته ومضمونه داخل الخطاب فقط. وليس

---

[141]. Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, p 228.

[142]. الشيخ محمد الخضري، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار الفكر، ج1، ص 62.

[143]. الشيخ محمد الخضري، حاشية على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج1، ص 62.

ضمير الشخص هو الشكل الوحيد الذي يحمل هذه الصيغة فقط، بل هناك مؤشرات أخرى تشترك في نفس الوضعية، بما في ذلك سلسلة الإشاريات"[144].

وهذا هو الوجه التداولي والسياقي للمضمرات الذي أشار إليه علماء النحو العربي قبل زمن ليس بالقليل، وحاول، بعد ذلك؛ أن يبينه إميل بنفنيست وأسس عليه نظريته الخاصة بالضمير، والتي تعد جزءا هاما من نظرية التلفظ عامة.

وغير بعيدا عن هذا؛ يتفق بنفنيست مع الزمخشري في أن الضمير "أنا" لا يسع أكثر من ذات واحدة، وبيَن الزمخشري هذه الفكرة بعدم قبوله التثنية والجمع "لأن تثنية ضمير المتكلم، وجمعه ليس على منهج تثنية الأسماء الظاهرة وجمعها [...]، لأن المتكلم لا يشاركه متكلم آخر في خطاب واحد"[145]، أما بالنسبة لضمير الجمع "نحن" مثال: "نحن خارجان" فهي حالة متكلم يتكلم عن نفسه وعن غيره، و"لم يرد ضم متكلم إلى متكلم كما كان التثنية ضم اسم إلى اسم. وإنما المتكلم يتكلم عن نفسه وغيره، ولم يكن المتكلم مما يلبس بغيره لإدراكه بالحاسة"[146]. في حين عبر بنفنيست عن ذلك بقوله "لا يوجد هناك "أنا" يسع كل "الأنوات" التي تتلفظ بها الأفواه كل حين من قبل جميع المتكلمين، بالمعنى الذي نجده في "شجرة" الذي تلتقي حوله جميع الاستعمالات الفردية لكلمة شجرة. فـ "أنا" لا يعين أي كيان معجمي"[147].

وبناء على هذا؛ فإن النحو العربي يعد من بين الأصول البارزة التي ألهمت صاحب النظرية التلفظية، الذي أشار إلى دور الدراسات النحوية العربية في بلورة أفكار لسانيات التلفظ ومبادئها، وما يبرر ذلك ـ ناهيك عن الأقوال التي صرح بها في كتابه "قضايا

---

[144]. Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale,T2, p 68. 69.

[145]. ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 295.

[146]. ابن يعيش، نفسه، ص 306.

[147]. صابر حباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، مرجع سابق، ص 140.

اللسانيات العامة"، والمدرجة في هذه المحور – هو أن إميل بنفنيست ولد في مدينة حلب السورية وعاش فيها عدة سنوات قبل أن يغادر في بعثة يهودية إلى فرنسا، أي أنه يُحتمل أنه تلقى بعض المعارف على يد أساتذة شعبة اللغة العربية، كما يحتمل أن يكون قد تتلمذ على يده طلبة من أصول عربية وأمدّوه بهذه الأصول النحوية العربية عن طريق البحوث التي أطرهم فيها.

غير أن الغرض الذي كان يصبو إليه إميل بنفنيست في دراسته، هاته، للمضمرات، هو الكشف عن الإمكانات التي تقدمها اللغة للمتكلم لإبراز ذاته في الخطاب، فتوصل إلى أن الضمائر هي العناصر الفعلية القادرة على أداء هذا الدور، وإن كانت تتفاوت في درجة تمثيلية الذات المتكلمة في الخطاب، حيث أبرزها تمثيلا لها هو ضمير المتكلم ثم المخاطب، وأخير ضمير الغائب، ولا يقتصر هذا الدور على الضمائر فقط، وإنما تشترك فيه، أيضا، الإشاريات الزمانية والمكانية، وسنبين ذلك في حينه.

3.1 الفلسفة الوجودية

يعود الاهتمام بالذات الإنسانية إلى الفلسفة الوجودية التي عرفت بنزعتها الإنسانية. فقد تعلقت دراسات إميل بنفنيست لمفهوم الذاتية كثيرا، بـ"خطاب الفردية عن الأنا، أو الخطاب الديكارتي عن الذات"[148]. مما يبين أنه قد "اقتفى أثر الفلاسفة الذين بحثوا في تأسيس الذاتية حول مفهوم "الأنا" "ego" التي تطبع اللغة، انطلاقا من حريتها الخاصة اللامتناهية"[149]، والقصد من هذا الكلام هم رواد الفلسفة الوجودية أمثال جون بول سارتر ومارتن هايدغر وغيرهما. وسنبين في هذا المحور أشكال هذا التعالق بين الخطاب الفلسفي الوجودي والخطاب التلفظي عن الذاتية في اللغة. انطلاقا من الفروع التالية:

---

[148]- نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص 236.

[149]. Catherine Fuchs et Pierre LE GOFFIC, 1975, Initiation aux problèmes des linguistiques, contemporaines, librairie HACHETTE, p 113.

1.3.1 علاقة اللغة بالذات

بداية؛ لقد انطلق إميل بنفنيست في تصوره للذاتية في اللغة، من نقد التصور الوظيفي الذي يعتبر اللغة أداة للتواصل، ليبرهن على أن اللغة تؤدي وظائف أكثر من مجرد أنها أداة لتبادل المعارف، فقال: "إن كل خصائص اللغة: طبيعتها اللامادية، اشتغالها الرمزي، انتظامها المتمفصل، كونها ذات محتوى، كل ذلك يجعل مماثلة اللغة للأداة أمر مثار للشبهة، وهي مماثلة تروم نزع خاصية اللغة عن الإنسان"[150]؛ لأن الأداة تفيد الشيء المادي كالمعول والسهم والعجلة، وكل الأشياء التي صنعها الإنسان لخدمته، في حين أن اللغة لم يصنعها الإنسان بل نمت معه ولازمته "ولا يوجد البتة إنسان بمعزل عن اللغة، ولا يمكن أن نشاهده يوما يخترعها [...]. إن ما نقف عليه في العالم هو إنسان متكلم يخاطب إنسانا أخر، واللغة ترشد إلى تعريف الإنسان ذاته"[151].

الأساس في هذا أن بنفنيست سار على النهج الذي اتخذه سارتر في بحثه في الوجود الإنساني، فقال هذا الأخير: "قد يقال إن هذه المحاولات المختلفة للتعبير تفترض اللغة. ونحن لا نمانع في ذلك، بل نقول: إنها اللغة، أو إذا شئنا، ضرب أساسي من ضروب اللغة. لأنه إذا وجدت مشاكل نفسانية وتاريخية تتعلق بوجود وتعلم واستخدام مثل هذه اللغة الخاصة، فليس ثم أية مشكلة خاصة تتعلق بما يسمى اختراع اللغة. إن اللغة ليست ظاهرة مضافة إلى الوجود –الغير: بل هي أصل الوجود –الغير، أعني واقعة أن الذاتية تستشعر نفسها موضوعا للغير. وفي عالم من الموضوعات الخاصة، لا يمكن اللغة بحال من الأحوال أن تكون "مخترعة"، لأنها تفترض أصلا علاقة بذات أخرى، وفي

[150]. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، ص 137.

[151]. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، ص 136.

ما بين ذاتيته التي لذاتها، ليس من الضروري اختراعها، لأنها معطاة من قبل في تعرُّف الغير"[152].

إن هذا النص، الطويل، لسارتر يكشف لنا درجة التلاقي بين التصورين الوجودي والتلفظي حول طبيعة اللغة ووظائفها، إذ يتفقان معا على أن اللغة لم يخترعها الإنسان وإنما لازمته، كما يتفقان على أنها تمثل أدوارا تتجاوز أن نختزلها في الأداة فقط، ويتفقان كذلك على العلاقة الضرورية التي تجمع اللغة بالذات الإنسانية.

ولم يختلف إميل بنفنيست عن باقي رواد الوجودية في تصورهم لعلاقة اللغة بالذات والوجود، إذ قال هايدغر: "إن اللغة في جوهرها ليست أداة تجلي عضوية ما، وليست تعبيرا خاصا بكائن حي ما. لهذا لن يتحقق التفكير في اللغة بطريقة مطابقة لماهيتها إن تم الانطلاق من قيمتها كعلامة ولربما من قيمتها كدلالة. اللغة هي في نفس الوقت الإقدام الكاشف والكاتم للكينونة نفسها"[153]. يؤكد لنا هذا القول أن أصل التفكير في الذاتية في اللسانيات التلفظية يعود إلى احتكاك إميل بنفنيست وغيره من التلفظيين، بتصورات الفلسفة الوجودية، كما بينا ذلك أن من تجليات البحث في الذاتية في اللغة هو تبعية الأبحاث اللسانية بفروعها، للأبحاث الفلسفية، فكانت عودة الفلسفة إلى النزعة الإنسانية والاهتمام بها، إشارة ضمنية للتغيرات التي ستلحق اللسانيات مع بروز اللسانيات التلفظية والتداولية عامة.

ويُرجع هايدغر إعادة الاعتبار للذاتية في البحث الفلسفي واللغوي أيضا، إلى الطلب المُلِح الذي أصبح يفرضه سوق العلم – بتعبيره– حيث قال: "أكيد أنه تم الاستياء من

---

[152]. جان بول سارتر، الوجود والعدم، بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، ترجمة عبد الرحمن بدوي، منشورات دار الآداب، بيروت، ط1، 1966، ص 601.

[153]. مارتن هايدغر، الفلسفة والهوية والذات، ترجمة: محمد مزيان، دار الأمان، الرباط، ط1، 1436هـ/2015م، ص 130.

"النزعات" وذلك منذ زمن بعيد. لكن سوق الرأي العام يطالب بالجديد دون توقف، وهناك استعداد دائم لتلبية هذا الطلب. وواقع الحال، أن مصطلحات مثل "منطقي"، "أخلاقي"، "فيزيائي" لم تظهر إلا في اللحظة التي عرف فيها الفكر الأصيل أفوله"[154]. ويقصد بالفكر الأصيل الفلسفة التجريبية ذات النزعة العلمية التي حاولت التخلص من الفرد ووعيه الذي يشوّش على علمية الدراسات المبتغاة. وسنبيّن ذلك في الفصل الخاص بالذاتية في اللسانيات.

وبالموازاة مع هذا الأفول سجلنا كذلك أفول النظريات اللسانية التابعة لهذا الفكر والناهمة من تصوراته، كاللسانيات السوسيرية والتوزيعية، حيث إن الطلب المُلح على إعادة الاعتبار للإنسان في اللسانيات يلزمنا أن نتحرر من التأويل التقني للخطاب الذي ورثناه عن الفلسفة البنيوية، والتي ورثته عن التأويل التقني للفكر لدى أرسطو وأفلاطون[155].

في إطار علاقة اللغة بالذات، يرى هايدغر أن "اللغة مسكن الكينونة حيث يعيش الإنسان في ملجئها. والمفكرون والشعراء هم حراس هذا الملجأ، فحراستهم إنجاز لفعل انكشاف الكينونة من حيث إنهم يجعلون هذا الانكشاف ينفذ إلى اللغة عبر قولهم إذ يحفظونه فيها"[156].

ولهذا؛ فإذا كانت النزعة الإنسانية الوجودية تقول للإنسانية: "إنه ليس ثم مشرع غير الإنسان، ولأنها تدعوه إلى أن يحقق نفسه خارج نفسه"[157] فإن نظرية التلفظ تدعوه أن يحقق ذاته في اللغة وبواسطتها.

---

[154]. مارتن هايدغر، الفلسفة الهوية والذات، نفسه، ص 121.

[155]. ينظر: مارتن هايدغر، الفلسفة والهوية والذات، مرجع سابق، ص 120.

[156]. مارتن هايدغر، نفسه، ص 117.

[157]. عبد الرحمن بدوي، دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للنشر، ط1، 1400هـ/1980م، ص 266.

2.3.1. علاقة الأنا بالآخر

نحصل على هذا التعالق بين تصورات الفلسفة الوجودية ولسانيات التلفظ، عن طريق المقارنة بين البحثين من جهة نظرهما في طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر في الخطاب.

يجب أن نشير إلى أن الذاتية ليست فردية مستقلة بذاتيتها وإنما لا تتحدد إلا من خلال بناء علاقة لها مع الأخر؛ "لأن إدراك وجود الذات ينطوي في الوقت نفسه على إدراك وجود الغير، فالذي يكشف عن وجود نفسه، إنما يكشف في الوقت نفسه عن وجود غيره، بل إن وجود الغير شرط لوجود الذاتي، وإنه ليس شيئا إلا أذا اعترف له الآخرون بأنه شيء. فالغير ضروري لوجودي، كما أنه ضروري للمعرفة التي لدي عن نفسي"[158].

يبين هذا النص ضرورة حضور الغير في كشف ذاتية الفرد، فكذلك على مستوى الخطاب، فإنه لا يمكن أن أكشف عن ذاتي إلا من خلال الإعلان عن نفسي بصفتي ذاتا متكلمة وتعيين الآخر مستمعا، باعتباره ذاتا أخرى، أو باعتباره "أنا" الثانية أثناء الحوار الفردي الداخلي أو المناجاة. فدور اللغة، هنا، هو أنها "تؤلف جزءا من حال الإنسان، وهي أصلا التجربة التي يمكن ما هو لذاته أن يقوم بها لوجوده _ للغير، وفيما بعد، تجاوز هذه التجربة واستخدامها لإمكانيات هي إمكانياتي، أي إمكانياتي أن أكون هذا أو ذاك بالنسبة إلى الغير"[159].

أما بالنسبة لنظرية التلفظ فالذات المتكلمة لا تتحقق في اللغة إلا من خلال التقابل بين الزوج "أنا/أنت"، على شكل مواجهة تواصلية بين الأنا والأنت تجعل اللغة تنبثق كحال من أحوال وجود الذات وتحقق في الخطاب[160]؛ أي انطلاقا من تحقق مبدأ التقابل

---

[158]. عبد الرحمن بدوي، دراسات في الفلسفة الوجودية، مرجع سابق، ص 264.

[159]. جان بول سارتر، الوجود والعدم، بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، مرجع سابق، ص 601-602.

[160]. نفسه، ص 602.

(أو "الانعكاسية") الذي اقترحه إميل بنفنيست، وقاعدته هي أن "كل ما يصدق عليّ يصدق على الغير. وبينما أسعى لاستعباد الغير، يسعى الغير لاستعبادي. ولا يتعلق الأمر هنا بعلاقات من جانب واحد مع موضوع – في– ذاته، بل بعلاقات تبادلية متحركة. والأوصاف التالية ينبغي أن تُنظر داخل منظور التنازع conflit. والتنازع هو المعنى الأصلي للوجود –الغير"[161]. وهذا ما يبرر تصورنا القائل: إن إميل بنفنيست على وعي بضرورة الآخر في معرفة "الأنا"، لذلك عمد إلى اعتماد مبدأ التقابلات (أو الانعكاسية) الذي بنت عليه الوجودية مبحثها في وجود الأنا وعلاقته بالآخر، ويظهر ذلك في قوله: "«أنت/tu» يتحدد بالضرورة عبر «أنا» ولا يمكن أن نفكر خارج الوضعية المعطاة إلا بالانطلاق من «أنا/je»، وفي نفس الوقت يحدد «أنا» كمسند لـ «أنت»"[162]؛ أي أنها دائما في حالة تعيين متجدد مع الغير "أنت"، وبهذا يصب رأي إميل بنفنيست في منحى التحديد الذي قدمته الفلسفة الوجودية للعلاقة بين الذات والغير، وبناء على رأييهما "ليس ثمة ذات مفردة معطاة وحدها. بل كل ذات تفترض بطبعها الغير الذي تساكنه وتوجد معه"[163].

[161]. جان بول سارتر، الوجود والعدم، بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، نفسه، ص 587_588.

[162]. Émile Benveniste, 1966, Problèmes de linguistique générale, T1, p 228.

[163]. عبد الرحمن بدوي، دراسات في الفلسفة الوجودية، مرجع سابق، ص 24.

2. في لسانيات التلفظ: المكانة والموضوع/ التأصيل والتأسيس

1.2. لسانيات التلفظ: النظرات الأولية

لقد تخللت هذا البحث فقرات تخص لسانيات التلفظ؛ تتعلق بتاريخها وأسلوب مقاربتها للخطاب، والخطاب الروائي خصوصا، ولذلك فإننا سنشير في هذا الفصل إلى بعض مفاهيمها ومكانتها بين النظريات اللسانية والتداولية الحديثة، تجنبا لأي تكرار قد يمس الهيكل العام للبحث.

تتميز لسانيات التلفظ بزاوية نظر خاصة للغات الإنسانية، وبمنهج خاص تتّبعه في دراساتها، هذا التميُّز يرد مع كل نظرية جديدة. غير أن ما يميزها أيضا هو كيفية مشاركتها باقي النظريات اللغوية في الموضوع نفسه وهو اللغة. فقد اختلف الباحثون حول كيفية ظهورها في الساحة اللسانية، كما اختلفوا حول مدى جدارتها بالعناية بتحليل الخطاب بكل صنوفه.

أولا؛ لقد ظهرت نظرية التلفظ بعد أن عرف الحقل اللساني مجموعة من التراكمات، وبعد إعادة النظر في المنهج البنيوي الذي ساد لأزيد من أربعة عقود حيث ظهرت مجموعة من العيوب في اللسانيات البنيوية، فتبين قصور منهجها في تناول بعض الظواهر اللغوية التي تتشكل من نسيج العلاقات الاجتماعية، والظروف والسياقات الخارجية. إذ "كان هم اللسانيات التلفظية في مراحلها الأولى، رصد وتحليل السامات (marques) التلفظية في الكلام، وهذه السامات هي عبارة عن أدوات للغة، وظيفتها تسجيل ذاتية المتكلم في التلفظ"[164]، وهذه الأدوات اللغوية هي الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والإشاريات. ورغم طبيعة النشأة التي برزت عبرها نظرية التلفظ وطبيعة التراكم الذي حققته (تراكم متعددة الجوانب)؛ "إلا أنها توصلت إلى النقاط التي لم

[164]- ماري أن بافو، جورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص 283.

تولها المدارس اللسانية والبنيوية على اختلافها أهمية، حيث استطاعت الإجابة عن عدة تساؤلات من قبيل: من يتكلم؟ من المتلقي؟ في ما يكمن الغموض في الكلام؟ ماذا نفعل ونحن نتكلم؟ لماذا نتوجه إلى التلميح؟ لماذا نتخفى وراء أقوالنا؟..."[165].

إذ تتثبت لسانيات التلفظ أولا من علاقة المتكلم بملفوظاته، وبسياق إنتاجه لها. وتنقل البحث اللغوي من الرؤية البنيوية الضيقة إلى الرؤية التفاعلية القائمة بين المتكلم والوضعية التلفظية لاستعمال اللغة؛ من ميدان كون هذه الأخيرة "نظاما من الأدلة إلى ميدان الفاعلية والنشاط، وتنظر إليها مختلف التحديدات اللاحقة على أنها نشاط كلامي تتحكم فيه شروط تارة ذاتية وتارة موضوعية؛ منها توفر شخصين على الأقل، للأول نية التأثير في الثاني؛ ويتفاعلان ضمن معطيات حال الحديث من زمانية ومكانية"[166].

ورغم وضوح هذه الرؤى الخاصة بمشروع التلفظية، غير أن دمينيك مانغونو يرى أنها لم تتأسس "بوصفها تخصصا مجدِّدا، بدقة لدرجة كافية لتنفصل عن التركيب والدلالة لتصبح في الأخير نظرية كاملة. يصح القول إن هناك عناية إضافية في لسانيات التلفظ بالظواهر التي يمكن أن نجد لها وضعية واضحة في النظرية اللسانية. لكن ليس من السهل إذن أن نميز بين ما ينتمي إلى التلفظية وما لا يندرج تحتها"[167]. إن حرص مانغونو على وضع نظرية للخطاب هو ما دفعه لهذا القول، حيث إن المعطى عنده "هو أننا لا نملك نظرية للتلفظ، أو على الأقل، نظرية تلفظية باعتبارها عنصرا من نظرية في

---

[165]. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، مرجع سابق، ص 15.

[166]. ذهبية حمو الحاج، نفسه، ص 16.

[167]. Dominique Maingueneau, 1976, Initiation aux méthodes de l'analyse du discours, Librairie HACHETTE, Paris, p 101.

الخطاب، [بالتالي] سيبقى هدفنا هو عبارة عن نوع من بانوراما سريعة لبعض النقاط الدالة حول ما يتعلق بردود فعل التلفظ، على ضوء الضروريات الخاصة بتحليل الخطاب"[168].

ونحن بدورنا؛ لا نريد أن تصير هذه الأطروحة على هذا الشكل، لتصبح بانوراما سريعة للمقاربة التلفظية في تحليل الخطاب، وإنما نريد من خلالها تعميق البحث ونحن نبحث عما جدّ في هذه النظرية وفي علاقتها بكل من اللسانيات والتداولية، كما نطمح أيضا إلى التأكد من مدى صحة هذا التصور وهذه الخلاصة التي خرج بها دمينيك مانغونو وهو المعدود ضمن رواد تحليل الخطاب.

وإن كان من أمر؛ فإن هناك عدة أصوات تشيد بمنجزات التلفظيين بصدد تحليل الخطاب، وبدقة المقترحات المنهجية التي طرحها أصحاب لسانيات التلفظ لفك التباسه، وزئبقية أوجهه، وهو ما سيلي ذكره.

إن "للسانيات التلفظ أساس مشترك يتمثل في نقد لسانيات اللغة، وفي إرادة دراسة وقائع الكلام التي تعني إنتاج ملفوظات من لدن المتكلمين في تواصل حقيقي. إن البرنامج النظري للسانيات الكلام منصوص عليه بوضوح من لدن سوسور في (CLG)، لكنه تخلى عنه بسرعة"[169]. إذ يكشف هذا النص عن أهمية لسانيات التلفظ بكونها جزءا مكملا للنقص الذي كان يعتري اللسانيات البنيوية، ثم إن التنصيص على برنامجها مسبقا خير دليل على مكانتها بين النظريات اللسانية الخاصة بتحليل الخطاب، وهذا هو مربط علاقتها باللسانيات.

ثم إن لسانيات التلفظ لم تخرج خروجا مباشرا عن بنية اللغة وعن مبادئ اللسانيات البنيوية، نظرا لأن "مستويي القول (الحكاية والخطاب) لم يحددا انطلاقا من مقاييس خارج

---

[168]- Dominique Maingueneau, Initiation aux méthodes de l'analyse du discours, op.cit ibid, p 101

[169]. ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص 281.

اللغة. فالمقابلة بين اللغة والخطاب إذن ليست مبرَّرة أو معلَّلة لا من حيث البنية اللغوية ولا من حيث اشتغالها. إن عملية القول هي بالفعل مكوِّن وظيفي من مكونات البنية. وإن كان من مهام التداولية دراسة استعمال الأبنية اللغوية فإنها لا يمكن أن تكون إلا مدمجة في اللسانيات"[170]، بل مدمجة ضمن مهام لسانيات التلفظ التي تبدو أقرب إلى اللسانيات العامة. وهذا التصور لارتباط نظرية التلفظ باللسانيات هو الذي أخذ بعض الباحثين بالقول إن مقاربة إميل بنفنيست للتلفظ هي مقاربة نحوية لأن مفهوم التلفظ عنده يقف عند حدود الجملة كما ذهب إلى ذلك ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي[171]. وإن كان قد انطلق من النحو في تحديده للتلفظ وبنائه لنظرية خاصة بالضمائر؛ فإن الأمر لا يعني أنه وقف عند هذا الحد، وإنما ألحّ كثيرا على المبادئ الخاصة بهذه النظرية وبخصائصها المميزة.

أما من حيث علاقتها بالتداولية؛ فلسانيات التلفظ عبارة عن مستوى من مستويات التحليل التداولي، بناء على البرنامج الذي وضعه هانسون، إذ قسم التداولية إلى الدرجات التالية:[172]

✓**تداولية الدرجة الأولى:** تهتم بدراسة الإشاريات، والمبهمات، والذاتية في اللغة، والعلاقات المرجعية بين المتخاطبين، وتسمى بنظرية التلفظ.

✓**تداولية الدرجة الثانية:** فهي التي فصلت القول نظرية الأفعال اللغوية وجهازها المفاهيمي وتسمى بنظرية الأفعال اللغوية.

✓**تداولية الدرجة الثالثة:** التي اهتمت بالحوار، والمؤشرات الحوارية في اللغة، وقوانين التخاطب، ووظيفة اللغة القائمة على التأثير في الآخرين، وتسمى بالنظرية الحجاجية.

---

[170]. جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الباحثين، دار سينترا، المركز الوطني للترجمة، تونس 2010، السحب الثاني، ص 87.88.

[171]. ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص 289.

[172]. ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، 1986، ص 38.

وانطلاقا مما سبق؛ فإن مشروع لسانيات التلفظ، وإن كان لم يظهر بتلك الصورة الواضحة على هيئة نظرية مكتملة، فإنه استطاع أن يخلق لنفسه مساحة بحثية بين اللسانيات والتداوليات وباقي النظريات المهتمة بتحليل الخطاب بشتى أنواعه.

ثم إن اللسانيات التلفظية اتخذت من الذاتية موضوعا للبحث الذي همشته اللسانيات البنيوية بكل فروعها، فأخذت تبحث في أشكال تجليات هذه الذات في الخطاب عبر الفعل الفردي الخاص باستعمال اللغة من طرف المتكلم أو عبر أشكال استعمال الضمائر والإشاريات، وشكل توزيعها في الخطاب.

ونشير إلى أنه يمكن أن نرجع هذا النقص الذي يلحظه الباحثون (أمثال دمينيك مانغونو) بصدد اكتمال نظرية تلفظية خاصة بتحليل الخطاب؛ إلى تلك الصيغة الأولى التي ظهرت بها أعمال التلفظيين وخصوصا إميل بنفنيست. فقد كانت جل أعماله تصدر في مقالات تصب في منحى إعادة قراءة اللسانيات البنيوية وكشف ثغراتها، ثم محاولة اقتراح بدائل نظرية، وذلك ما فعله في مقال "الذاتية في اللغة" ومقال "الجهاز الصوري للتلفظ" ومقال "اللغة والتجربة الإنسانية" وغيرها. ثم اتّبعه على نفس النهج كل من أوركيوني وأزوالد ديكرو وأنطوان كوليولي وجون سيرفوني وغيرهم.

2.2. تأطير المفاهيم الأساسية

1.2.2. مفهوم التلفظ

يجب أن نشير، أولا، إلى أن مفهوم التلفظ لا يتحدد بدقة إلا بمقارنته باللغة وبالكلام ثم بالخطاب، ونشير أيضا إلى إن المعتاد عند من وقفوا على هذا المفهوم أن يذهبوا مباشرة إلى التعريف المعهود الذي قدمه إميل بنفنيست للتلفظ في معناه المباشر، ولكنهم يهملون –إلى حد ما– ربط هذا التعريف بالتوجه العام لنظرية التلفظ، ثم إنهم لم يدققوا النظر في التفاصيل الدقيقة التي أرفقها بنفنيست بمفهوم التلفظ، حيث ربطه باللغة والخطاب وبالكلام أيضا.

تتحدد علاقة اللغة بالتلفظ في كون هذا الأخير هو تحَقّقٌ للغة وتفعيل لها لحظة الخطاب وذلك عبر الفعل الفردي، لهذا قال بنفنيست: "الفعل الفردي هو الذي نستعمل اللغة بواسطته ويُنتج المتكلم كآلية في الظروف الضرورية للتلفظ. قبل التلفظ اللغة ليست إلا إمكانية للسان. وبعد التلفظ يتم تفعيلها في لحظة الخطاب. انطلاقا من التحقق الفردي يمكن أن نعرف التلفظ، بالمقارنة مع اللغة، باعتباره سيرورة امتلاك"[173]. وهي سيرورة تتحقّق حين يمتلك المتكلم الجهاز الصوري للغة، ويعلن عن وضعيته بصفته متكلما عبر مؤشرات خاصة بذلك. نستشف من خلال قول إميل بنفنيست أنه استفاد من تعريف دو سوسير للكلام، وإذا دققنا النظر في نصه نجده قد ميّز فعل التلفظ عن الكلام بالعناصر التالية:

- ارتباط التلفظ بالذات، أي أنه سيرورة امتلاك اللسان؛
- التلفظ هو تفعيل اللغة في الخطاب.

تُبين علاقة اللغة بالتلفظ أسس الجدة التي أخذت بها نظرية التلفظ في زاوية نظرها للغة، من بين هذه الأسس أنها لا تنظر إلى اللغة كبنية ثابتة ومستقرة، وإنما هي نشاط كلامي وفاعلية فردية يضطلع بها المتكلم في التخاطب. وفي هذا الصدد تتحدد علاقة التلفظ بالكلام، فالتلفظ هو "الفعل ذاته الذي ينتج عنه الكلام، والملفوظ Enoncé بصفته نتيجة لهذا الفعل، فلا يعدو التلفظ أو الحديث أن يمثل النشاط الكلامي الذي يؤديه المتكلم في اللحظة التي يتحدث فيها، أي تلك الممارسة التي ينسبها لذاته متفاعلا مع الآخر"[174].

إذا كان التلفظ هو حدث استخدام اللغة؛ فإن الكلام هو التجسيد الفعلي لما جرى به اللسان، وهذا التجسيد هو حدث التلفظ بعينه. وإن كان الأمر على هذه الشاكلة، فإن عددا من الباحثين لا يرون التلفظ كلاما فقط، ومنهم دومنيك مانغونو، فقد ميز، على

---

[173]. Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, PP 81. 82.

[174]. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، مرجع سابق، ص 86.

الخصوص، بين التلفظ ومفهوم الكلام عند دو سوسير، فقال: "التلفظ ليس هو الكلام بالمعنى السوسيري، إنه يتعلق بفعل إنتاج الملفوظ وليس نص التلفظ. التلفظ هو الحدث الذي يحوِّل فيه المتكلم اللغة لحسابه. يأخذ اللسان لجعله آلة، ويدمجه في خطابه، ويضع نفسه بصفته متكلما بواسطة المؤشرات الخاصة (والتعابير ذات المظهر الإشاري في اللغة): الضمائر الشخصية، أزمنة الأفعال..."[175]. نستشف من هذا أن التلفظ يتميز عن الكلام من حيث علاقتهما بالمتكلم؛ فالتلفظ هو الحدث الذي يبرز الذات المتكلمة ويبني فيه الخطاب على ذمة هذه الذات. أما الكلام فقد لا يصدق بالضرورة عن الذات المتكلم، وإن كان هو أيضا يتميز بالفرادة (بكونه فعلا فرديا) والإرادة والذكاء بعبارة أستاذ جنيف.

بهذا؛ فإن ما يميز فعل التلفظ هو تحكمه في كل العناصر الإشارية؛ وهو المسؤول عن طبيعة المعاني التي تكتسيها في حضرته (أي عندما يحدث الفعل التلفظي) فالضمائر لا تحمل معنى إلا عند التلفظ بها، بل إنها تجدِّد معناها من فعل تلفظي لآخر، وكذلك الزمن فلا تتحدد أشكاله إلا بالموازاة مع لحظة التلفظ، وكذلك باقي العناصر ذات البعد الإشاري في اللغة. وقد حدد "معجم اللسانيات" مفهوم التلفظ وميّزه بالخصائص التالية:[176]

- تجلٍ للذات في الملفوظ؛
- علاقة تربط المتكلم بالمخاطب عبر النص؛
- وضع الذات المتكلمة من منظور ملفوظها.

نخلص من هذا؛ إلى أن أساس التمييز بين التلفظ والكلام هو قيام الأول بعكس الذات المتكلمة في الخطاب بكل ما تملك من خصوصيات عند كل تلفظ، لذلك ربط إميل

---

[175]. Dominique maingueneau, 1976, Initiation aux méthodes de l'analyse du discours, Op.cit, Ibid, p 100-101

[176]. Jean Dubois, 1969, Enoncé et énonciation, in langages, 4^{e}année, n°13, p 100.

بنفنيست التلفظ بالذاتية وهذا هو جوهر نظريته، فالتلفظ عنده هو الذي "يطرح التحويل الذاتي «la conversion individuelle» للغة في الخطاب"[177].

أما علاقة التلفظ بالخطاب، فقد ميز إميل بنفنيست بينهما بقوله: "التلفظ فعل توظيف اللغة عبر فعل فردي الاستعمال. الخطاب هو كل ما ننتجه عندما نتكلم، هذا التجلي للتلفظ ليس ببساطة هو "الكلام" بل يجب الأخذ بعين الاعتبار الظروف الخاصة بالتلفظ، هذا الفعل نفسه هو إنتاج ملفوظ وليس نص الملفوظ الذي هو موضوعنا، وهو نفسه الحدث الذي يحول فيه المتكلم اللغة لحسابه الخاص"[178].

يبدو من الوهلة الأولى أنه من الصعب تعيين الحدود بين الخطاب والتلفظ؛ إلا أنه "يمكن أن نعرف الخطاب في مظهره البسيط باعتباره مجموعة من الجمل منظمة بصورة منطقية لغرض التواصل، في حين، إن التلفظ فعل لغوي يستعمله المتكلم لإرسال ملفوظ لمتلق معين"[179].

فالخطاب يتميز بتفاعله بالدرجة الأولى؛ قد يكون اعتبار التبادل الشفوي هو الاستعمال الأصيل للخطاب، وأن سائر أشكال التلفظ هي استعمالات له، "لكن يحسن عدم الخلط بين تفاعلية الخطاب الأساسية، والتفاعلية الشفوية، فكل تلفظ، ولو أنجز بدون حضور مرسل إليه، هو في الواقع داخل في تفاعلية تكوينية، فهو تبادل صريح أو ضمني مع متكلمين آخرين افتراضيين أو واقعيين، [مثال حالة مخاطبة الذات، أو المونولوج] ويفترض دائما حضور جهة التلفظ أخرى يتجه إليها المتكلم ويبني خطابه بالنسبة إليها،

---

177. Émile Benveniste, 1974, Problèmes de linguistique générale, T2 , P 81.

178. Émile Benveniste, ibid, T2, p 80.

179. Jessica Da Silva Anunciacao, 2013, Le discours de la persuasion : une étude pragmatique et cognitive, thèse doctorat, sous la direction de Patrice Brasseur, Université d'Avignon, p 66.

ومن هذا المنظور فإن التحادث لا يعتبر الخطاب الأمثل، وإنما طريقة من طرق تجلي تفاعلية الخطاب الأساسية حتى ولو كانت بلا شك أهمها"[180].

أو بعبارة أخرى؛ فالتلفظ يقتضي تجلي الذات المتكلمة في الملفوظ، بينما الخطاب لا يقتضي ذلك، إذ هو ما ننتجه حينما نستعمل اللغة، وقد يكون هذا الملفوظ يعود إلى ذات أخرى كما هو الحال في التلفظ التاريخي الذي تُغيّبُ فيه كل الأشكال ذات الدلالة على ذاتية المتكلم؛ لحظته ومكان تواجده. ثم إننا إذا علمنا أن الخطاب عند بنفنيست هو: "كل تلفظ يفرض متكلما ومستمعا، عند الأول قصد التأثير في الآخر بأي أسلوب كان"[181]، فإننا نسجل تلاقي الخطاب والتلفظ حول شرط حضور المخاطِب والمخاطَب، وقد يختلفان من حيث عنصر التأثير؛ فالخطاب تحضر فيه نية التأثير في المخاطب، في حين لم نلمس أي تركيز على هذا العنصر في طروحات إميل بنفنيست لمفهوم التلفظ؛ وإنما راهن حول دوره في تسليط الضوء على الذات المتلفظة والمتلفظ لها، ما دام أن مسعاه هو وضع نظرية للذاتية في اللسانيات.

2.2.2. التلفظ عند أوزوالد ديكرو

ساهم أوزوالد ديكرو Oswald Ducrot في بناء معمارية لسانيات التلفظ، والتداوليات المدمجة كذلك، بمجموعة من الأعمال؛ نذكر منها: les mots du discours 1980، les échelles argumentatives 1980، Le dire et le dit 1984، Logique structure énonciation 1989، بالإضافة إلى الأعمال المشتركة مع جون كلود أنسكومبر، منها L'argumentation dans le langue، ومعجمه المشترك مع جان ماري سشايفر الذي عنوناه "القاموس الموسوعي الجديد لعلوم

---

[180]- باتريك شارودو . دومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، دار سيناترا، ص 183.

[181]- Émile Benveniste, 1966, Problèmes de linguistique générale, T1, p 239.

اللسان". لقد أهّله هذا وغيره ليكون، بحق، من رواد لسانيات التلفظ، ومن المدافعين عن وجودها الشرعي إلى جانب لسانيات اللسان، إذ إنه "لا يرى وجود لسانيات للسان دون لسانيات الكلام"[182].

سنركز في هذا العنوان حول مفهوم التلفظ والملفوظ عند أوزوالد ديكرو، ووجهة نظره الخاصة بهما.

1.2.2.2. في الفرق بين التلفظ والملفوظ

بداية، أكد ديكرو على أن لسانيات التلفظ تفترض "أن مجموعة من الأشكال النحوية ومن مفردات المعجم ومن الصيغ ومن التراكيب، سِمتها الاعتيادية أننا باستعمالها ننشئ أو نساهم في إنشاء علاقات مخصوصة بين المتخاطبين"[183]؛ أي أنها نظرية تشتغل على العلاقات البيذواتية التي ينسجها المتخاطبون لحظة استعمال اللغة.

ثم؛ أشار إلى ضرورة التمييز بين الجملة والملفوظ من جهة؛ والتلفظ والملفوظ من جهة أخرى. إذ قال: "فالتلفظ هو الواقعة التاريخية التي تنشأ عبر ظهور الملفوظ، وبعبارة أخرى هو حدث إنجاز الجملة"[184]. إنه ـ وفق هذا التعريف ـ انبثاق للملفوظ؛ أي هو الحدث الذي ينتج عنه ملفوظا محققا في وضعية محددة. و"التلفظ مزامن له، إنه وجود الملفوظ ذاته"[185].

---

[182] ـ Benoit Habert, Enonciation et argumentation: Oswald Ducrot, in mots, N°5, 1982, p 203.

[183]ـ صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، مرجع سابق، ص 24. يتضمن هذا الكتاب مختارات مترجمة لعدد من الباحثين؛ من بينها مقال أوزالد ديكرو المعنون بـ "التلفظ".

[184]ـ صابر الحباشة، نفسه، ص 26.

[185]ـ نفسه، ص 26.

بعبارة أخرى: "إنه الحدث التاريخي الذي يتكوَّن من عبارة تم إنتاجها، أي من جملة تم إنجازها"[186]. وقد عرفه ديكرو، أيضا، باعتباره "النشاط اللغوي الذي يقوم به المتكلم عندما يتكلم"[187].

ويتميز التلفظ عنده بكونه لا يتحقق أكثر من مرة، فهو "في جوهره التاريخي، حدثي، ولا يمكن إعادة إنتاجه هو بالذات مرة ثانية"[188].

وحسب ديكرو، دائما، فإنه "يجب أن نميز، أيضا، بين الملفوظ، وهو الموضوع المُنتج من طرف المتكلم عندما يختار استعمال جملة ما، والتلفظ الذي يُفهم بعدِّه الحدث الذي يتأسس لإنتاج الملفوظ، أي أنه يعطي لجملة ما تحققا ملموسا"[189].

إذ يشكل الملفوظ "الموضوع المنتج بواسطة المتكلم الذي اختار استعمال جملة ما،"[190] وهو عبارة عن "متتالية متحققة فعلا؛ أي هو تعلق مخصوص لكيانات لسانية. ولْنفترض أن باثا آخر مختلفا عن الذي تخيلناه أعلاه، يحدث في نقطة أخرى من المكان والزمان فيطرح السؤال نفسه لفظةً لفظةً، فإننا نقول إن ذلك يتعلق بملفوظ آخر. فاعتبار ملفوظين تحققين للجملة نفسها، يعني أنهما كليهما يستخدمان البنية اللسانية نفسها"[191]. بعبارة أخرى؛ إن الملفوظ لا يمكن إنتاجه مرة ثانية وإن استعمل المتلفظ بنية الملفوظ الأول نفسها، وذلك لارتباط معناه بالوضعية التلفظية التي أُنتج فيها، وهي وضعية غير مستقرة ومتجددة، وتؤثر دوما في معنى الملفوظ.

---

[186]. أزوالد ديكرو و جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، طبعة منقحة، ص 646.

[187] . Orecchioni, (C.K), 1980, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, p 28.

[188] . Orecchioni, (C.K), 1980, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, pp 28.29.

[189] . Oswald Ducrot, 1984, Le Dire et le dit, Editions de Minuit, Paris, P 95.

[190]. Oswald Ducrot, les lois de discours, in langue française, n 42, 1979, p 21.

[191]. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، مرجع سابق، ص 25.

ومنه؛ فالتلفظ عند أزوالد ديكرو هو الحدث الذي ينتج ملفوظا في وضعية محددة، ومن قبل متكلم محدد. ويتميز التلفظ والملفوظ بارتباطهما الوثيق بالوضعية التلفظية التي أُنتجا فيها، لذلك يشدّد ديكرو على أنهما لا يتكرران أبدا بسبب هذا الارتباط.

2.2.2.2. في الفرق بين الجملة والملفوظ

لقد أكد ديكرو في مناسبات عديدة من منشوراته على ضرورة التمييز بين مفهوم الجملة والملفوظ من جهة، والملفوظ والتلفظ من جهة أخرى، للقدرة على فهم الفعل التلفظي والوعي بأهميته في تأويل الملفوظات والكشف عن معانيها المضمرة، وقيمتها الحجاجية أيضا. وفي هذا الصدد يقول: "يجب التمييز بين الملفوظ، وهو الموضوع المنتج بواسطة المتكلم الذي اختار استعمال جملة ما، والتلفظ renonciation يفهم باعتباره الحدث الذي يشكل إنتاج الملفوظ أي أنه يعطي للجملة تحققا ملموسا. باختيار اصطلاح اعتباطي، أسمي «الدلالة» «signification» القيمة الدلالية المرتبطة بالجملة، و«المعنى» «sens» ما يرتبط بالملفوظ، يعني مجموع أفعال اللغة (التي تعرف هنا بالأفعال الإنجازية) التي يطمح المتكلم لإنجازها بواسطة تلفظه: معنى الملفوظ يشكل أيضا التمثيل الجزئي للتلفظ من طرف المتلفظ ".[192] ففي هذا التمييز أخذ ديكرو بعين الاعتبار الفصل الواضح بين الدلالة ومفهوم المعنى، فالأولى ترتبط بالجملة وتلزَمها في كل حالتها المباشرة، في حين أن المعنى يتعلق بالملفوظ ولا يلزمه إلا في وضعية واحدة لأنه دائم التجدّد وفقا للوضعية التلفظية التي أُنتج فيها. بعبارة أخرى، إن "الجملة كينونة مجردة، والملفوظ هو التحقق الخاص، الإخراج اللحظي hic et nunc للجملة"[193].

مفاد هذا؛ إن التمييز بين الجملة والملفوظ يقتضي التمييز كذلك بين المعنى والدلالة، فديكرو ينسب الدلالة إلى الجملة، -كما أشرنا- ويربط المعنى بالملفوظ. ويقولها

---

[192] . Oswald Ducrot, les lois de discours, in langue française, n 42, 1979, p 21.

[193] . Oswald Ducrot, Le Dire et le dit, op.cit. P 95 - 96.

بعبارة أخرى "فالتفريق بين الملفوظ والجملة، وقد ألقي في المجال الدلالي، يتطلب لازمة طبيعية، هو التفريق بين القيمة الدلالية المسندة إلى الملفوظ (ونسميها، اعتباطا، معنى) والقيمة الدلالية المسندة للجملة (نسميها دلالة)"[194].

نضيف إلى هذا؛ أنه ميز بينهما من حيث الملاحظة؛ حيث يشير إلى أن المعنى المتعلق بالملفوظ يمكن ملاحظته، بوصفه معطى وحدثا يُفَسَّرُ. في حين أن الدلالة فقط أداة مفسرة لمعنى الملفوظ، وفي الواقع فإن ما تعبر عنه الجملة مغاير لما يعبر عنه الملفوظ، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، يمكن أن نميز بين هاذين المفهومين من جهة التحقق Occurrence، فالملفوظ "متتالية متحقق فعلا، أي هو تعلق مخصوص لكيانات لسانية. لنفترض أن باثا آخر مختلفا [عن باث يكون قد استعمل الجملة]، يتحدث في نفس نقطة أخرى من المكان والزمان فيطرح السؤال نفسه لفظة لفظة [هل قدم زيد؟]، فإننا نقول أن ذلك يتعلق بملفوظ أخر. فاعتبار ملفوظين تحققين للجملة نفسها، يعني افتراض أن كليهما يستخدمان البنية اللسانية نفسها"[195] بمعنى أن الجملة تتحقق مرة واحدة فقط، فإن أعيد استعمالها من جديد، فهي تحقيق لملفوظ جديد، وليس لنفس الجملة. ويمكن أن نعبر عن ذلك بمثال آخر:

- الجو مكفهر.

فهذه المتوالية تدل على اضطراب الجو دلالة لسانية خارج الاستعمال. وإذا أخذنا هذا الأخير بعين الاعتبار، فإن الجملة تصير ملفوظا، وتتحول دلالتها إلى معنى متعلق بالملفوظ، فتأخذ بذلك معان متعددة حسب لحظة استعمالها:

- حالة الطقس لا تسمح بالخروج للصيد؛

[194]- صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، ص 27.

[195]- صابر الحباشة، نفسه، ص 25.

- الجو شديد البرودة؛
- تساقطات قوية؛
- اضطراب الطبيعة؛
- تقلب مزاج شخص مقصود؛ أو هيئة معينة.

فدلالة الجملة تبقى واحدا في حين تختلف معاني الملفوظات، مما يعبر عن تعدد الملفوظات للجملة الواحدة مادام لكل استعمال خرج out put معين، يتمثل في الملفوظ كما يعبر أيضا على تعدد المعاني للدلالة اللسانية الواحدة.

إن ولادة المعنى في الملفوظ، عند ديكرو، تمر بمكونين؛ الأول هو المكون اللساني (Composant linguistique)، والتي يحمل فيها الملفوظ دلالة معينة. أما الثاني فهو المكون البلاغي Composant rhétorique، الذي يُعطِي للملفوظ معنى تلفظيا محددا انطلاقا من معطيات المكون اللساني وطبيعة الوضعية التلفظية. ومنه ينسب ديكرو الدلالة إلى الملفوظ معزولا عن وضعية استعماله؛ في حين ينسب المعنى إلى التلفظ، ويبيِّن عمل هذين المكونين عبر الخطاطة التالية[196]:

[196] .Oswald Ducrot, 1984, Le Dire et le dit, Editions de Minuit, Paris, P 60.

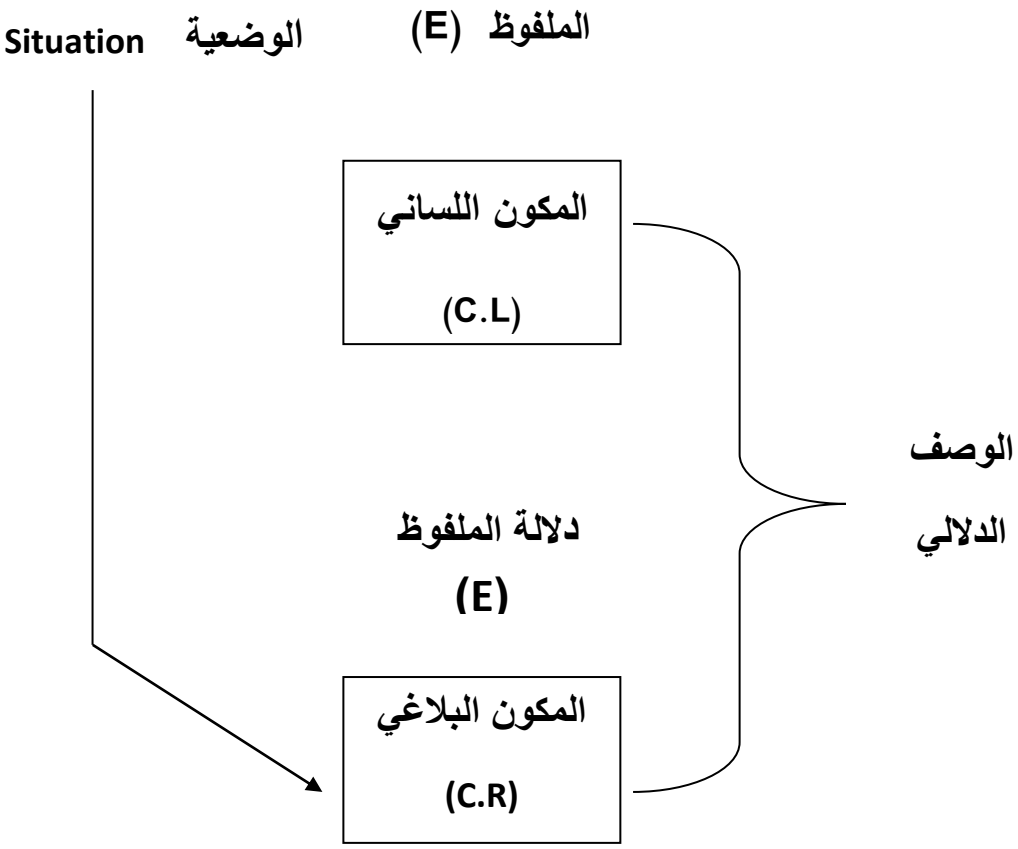

معنى الملفوظ في الوضعية (S)

بناء على هذا؛ "تعتبر الجملة كينونة مجردة، والملفوظ هو التحقق الخاص، إنه الإخراج اللحظي hic et nunc للجملة"[197]، بعبارة أخرى؛ الملفوظ عبارة عن تحققات متعددة لنفس الجملة المتكررة باستمرار والتي تتميز بالوفاء للدلالة اللسانية عكس الملفوظ الذي يعبر في كل استعمال على معنى معين، ولا يتحقق إلا مرة واحدة، هذا ويظهر الفرق بين الملفوظ والجملة على مستويين:

- **مستوى الالتزام الدلالي**، وتمثله الجملة الخالصة لدلالتها اللسانية، بدل الملفوظ الذي يعْدل عنها عند كل إعادة لاستعمال نفس الجملة.

[197] . Oswald Ducrot, Le Dire et le dit, Ibid, P 95.

❖ **مستوى التحقق:** فالجملة يعاد استعمالها باستمرار، في حين أن الملفوظ لا يتحقق إلا مرة واحدة حيث نحقق ملفوظا جديدا عند كل استعمال، وليس نفس الملفوظ بسبب ارتباطه بالوضعية التلفظية، كما أسلفنا الذكر.

خلاصة القول؛ يكشف هذا التمييز الذي أقامه ديكرو عن درجة الوعي بأثر الوضعية التلفظية في دلالة الجمل، حيث تصير معنى متجددا كلما تجددت تلك الوضعية أو تغيرت، فالملفوظات لا يستقر لها حال ما دامت تمشي بين ألسنة المتلفظين في وضعيات استعمالية متغيرة باستمرار؛ فعند استعمال كل ملفوظ يُشحن بمعنى جديد غير المعنى السابق، مثال: "كم الساعة؟" فدلالتها في الجملة هي سؤال الزمن؛ في حين تعني التوبيخ إذا قالها الأستاذ لطالب ما قبل ولوجه القاعة، وتعني بلوغ فترة الاستراحة إذا قالها وسط الحصة، كما قد تعني نهاية الدرس إن قالها في وقت متأخر من بداية المحاضرة، إلخ. فكل هاته المعاني تتدخل فيها متغيرات الوضعية التلفظية وقصد الأستاذ من ملفوظه هذا، وهو قصد ينكشف في حال تلفظه بـ "كم الساعة؟".

3.2.2. مفهوم التلفظ والملفوظ عند دمينيك مانغونو

1.3.2.2. مفهوم التلفظ عند دمنيك مانغونو

ربط دومينك مانغونو مفهوم التلفظ بتحليل الخطاب، أو بالأحرى عرفه من منظور تحليل الخطاب، فدعا إلى ضرورة الابتعاد عن بعض الافتراضات المسبقة التي قد نلصقها بتعريفنا لهذا المفهوم، ومنها[198]:

- لا يجب تصور التلفظ كامتلاك الفرد لنظام اللغة: فالفرد لا يلجأ إلى التلفظ إلا من خلال القيود المختلفة لأنواع الخطابات؛
- لا يقوم التلفظ على المتلفظ وحده: بل يقوم على التفاعل في المقام الأول؛ أي يتطلب وجود المتلفظ Enonciateur والمتلفظ المشارك Co-énonciateur.

[198]. دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 53.

- إن المتلفظ ليس بالضرورة هو الذي يتكفل بالتلفظ، ولا يعني دائما أنه يتحمل مسؤولية القول.

إذ نراه هنا يعيد النظر في بعض المسلمات البنفنيستية بصدد تحديد مفهوم التلفظ، حيث يرى إميل بنفنيست أن التلفظ هو حدث امتلاك الفرد للغة وتحويلها لحسابه الخاص عبر توظيف الضمائر الشخصية والتعبير عن وجهة نظره الخاصة وإدراجها ضمن الملفوظ، في حين يعارضه مانغونو بفكرة مفادها أن المتكلم لا يمتلك اللغة؛ بحكم أنه لا يستعملها إلا وفق ما تمليه عليه خصائصها البنائية والوضعية وقواعدها التركيبية.

أما بصدد الافتراض الثاني فلم يختلف الباحثان بصدد ضرورة حضور الجانب التفاعلي في التلفظ، وقد عبر إميل بنفنيست عن ضرورة حضور المستمع أثناء عملية التلفظ، وقد يكون ذاتا ثانية كما يحدث في الحوار الداخلي.

وبعد هذا؛ اهتدى مانغونو إلى تعريف محدد للتلفظ فقال: "يشكل التلفظ محور العلاقة بين العالم واللغة: يسمح بتمثيل الأحداث في الملفوظ، ولكنه يشكل هو نفسه فعلا في ذاته وحدثا فريدا محددا في الزمان والمكان"[199].

2.3.2.2. مفهوم الملفوظ

قد "يطلق الملفوظ للدلالة على نتاج فعل التلفظ énonciation،"[200] ولكن شأنه شأن مفهوم الخطاب والتلفظ، لا يتحدد إلا عبر وضعه ضمن سلسلة من التقابلات:

- ✓ **الملفوظ والتلفظ:** إذا كان التلفظ هو "الحدث التاريخي الذي يتكون من عبارة تم إنتاجها، أي من جملة تم إنجازها"[201]؛ فإن الملفوظ هو نتيجة هذا الحدث الفردي؛ أي هو ما ينتجه المتلفظ عند استعمال اللغة، ولابد لهذا الملفوظ أن يصطبغ بالظروف

---

[199]. دومينيك مانغونو المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، نفسه، ص 53.

[200]. دومينيك مانغونو، نفسه، ص 51.

[201]. أوزوالد ديكرو، جاك ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللغة، مرجع سابق، ص 646.

المحيطة بفعل التلفظ، والتي تغير معناه وترفع اللبس الذي يُحتمل أن يحيط به؛ وتُجدّد معناه عند كل استعمال، وقد عبَّر مانغونو عن هذا بقوله: "هذا المعنى الذي يقوم المتلقي، الذي يملك نفس السنن، ويتحدث نفس اللغة، بفك سننه. ضمن هذا التصور للنشاط اللساني، يندرج المعنى في الملفوظ بشكل ما بناء على الفهم الذي يمرُّ بمعارف المعجم والنحو الخاص بتلك اللغة؛ ثم يأتي الدور الخاص الذي يلعبه السياق، إنه يقدم المعطيات التي تسمح برفع الالتباسات المحتملة للملفوظات"[202].

فالملفوظ إذن هو نتاج التلفظ، ويتميز بتدخل الوضعية التلفظية في تشكُّل معناه ورفع اللبس عنه، كما تساعد المتلفظ المشارك في الكشف الدقيق عن هذا المعنى، وتأويله انطلاقا من تلك الوضعية.

- ✓ **الملفوظ والجملة:** "يحدد الملفوظ هاهنا بوصفه وحدة اتصالية تبليغية أولية ومتوالية ذات معنى وتامة من حيث التركيب"[203]. يرجع هذا التحديد إلى الوجهة التركيبية، حيث لا يختلف الملفوظ عن الجملة في شيء من جهة البناء والدلالة. ولكن لا يجب أن نطمئن لهذا الاتفاق، إذ فصّل أزوالد ديكرو الحديث كثيرا عن الفرق بين هذين المفهومين، كما سلف الذكر.
- ✓ **الملفوظ والنص:** ف"على صعيد أعلى، يعتبر الملفوظ وحدة مساوية للنص، أي متوالية لغوية منوطة بمقاصد نفس المتلفظ والتي تشكل كيانا لنوع خطابي معين: نشرة جوية، رواية، مقالة صحفية إلخ"[204]؛ أي أنه وحدة مساوية للنص من حيث الحجم والمقاصد التلفظية التي يتغيّاها المتلفظ من الملفوظ، غير أنه يختلف عن النص من جهة ارتباطه بالاستعمال اللغوي في زمان ومكان محددين، وفي وضعية تلفظية تنعكس على

---

[202]. Dominique MAINGUENEAU, 2005, Analyser les textes de communication, ARMAND COLIN, Paris, p 5.

[203]. دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 51.

[204]. دومنيك مانغونو، نفسه، ص 52.

الملفوظ وتؤثر في معانيه، حيث إن الإشاريات مثلا تُعيَّن مع الملفوظ بواسطة المشاهدة والمعاينة، وتشكل لحظةُ إنتاج الملفوظ المرجعَ المحدد لزمان التلفظ ومكانه؛ في حين على مستوى النص لابد من تدقيق العناصر الإشارية عبر الوصف، ويشكل السياق النصي/اللغوي الإطار المرجعي للوحدات اللغوية، ويشكل زمن الكتابة الزمن المرجعي وانطلاقا منه تُحدَّدُ باقي الأزمنة.

4.2. أنطوان كوليولي: من التلفظ إلى التلفظ المشترك

قام أنطوان كوليولي بمجموعة من الجهود ثمّن بها جهود باقي زملائه التلفظيين، تركزت في كتابه «Pour une linguistique d'énonciation (1990)» الذي يشمل ثلاثة مجلدات، اقترح فيها بعض وجهات النظر بصدد موضوع اللسانيات الحديثة، وبصدد زوايا النظر التي تجدر بالتقدير في دراسة اللسان البشري. ومن بين ما ألح عليه هو إعادة النظر في ما يمكن أن يكون، فعلا، موضوعا للسانيات، وأكد على أن موضوعها هو النشاط اللغوي L'activité de langage الذي يتحقق عبر "عمليات التمثيل représentation والتأشير référenciation والضبط régulation"[205]، وقسّم هذا النشاط إلى قسمين: نشاط الإنتاج «Production» الذي يقوم به المتلفظ، ونشاط التعرف «reconnaissance» الذي يخص المتلفظ المشارك.

ويري أ. كوليولي أن دراسة هذا النشاط اللغوي تتطلب مقاربة أكثر مرونة؛ وأقل صلابة من المقاربات البنيوية التي تقدس البنيات والتراكيب وتعزلها عن سياقها الاجتماعي، ويصفها بالعجز عن الإحاطة بخصائص النشاط اللغوي، إذ يقول بأن كل نظرية لا تهتم بالقضايا التي تُبرزها سياقات الأقوال كالمجازات والتباسات المعاني اللغوية

[205]– Antoine CULIOLI, 1990, pour une linguistique de l'énonciation, tome 1, OPHRYS, Paris, P 14.

"أو تدعها لحساب تقديس حرية الأساليب المنحرفة، أو لغموض درجات النحوية تُعرف (النظريات) سلبيا بالنسبة للغة... فهي غير ملائمة جذريا لفهم النشاط اللغوي"[206].

1.4.2.2. مفهوم التلفظ المشترك

ينظر أنطوان كوليولي إلى العملية التواصلية باعتبارها عملية تناظرية، يتجاذب فيها المتلفظ والمتلفظ المشارك دور الفعل التلفظي؛ أي أنها عملية حوارية دورانية تتم بشكل تقابلي بينهما، ولذلك يؤكد كوليولي على أنها تتميز بميزة أساسية وهي "وضعية اللاتناظر (non-symétrie) بين الإنتاج والتعرف (reconnaissance)، ما أدى به إلى تفضيل مصطلح التلفظ المشترك (co-énonciation) على مصطلح التلفظ."[207]

ويفصح مفهوم التلفظ المشترك عن الطبيعة الحوارية للفعل التلفظي أو ما يسمى بـ "الميتاحوارية"، التي تتطلب تعاونا مستمرا بين المشاركين على مستوى عقد السنن وحله، وعلى مستوى مراعاة طبيعة السياق التلفظي للوضعية الحوارية. فبدون هذا التحاور وهذا التعاون لا يمكن أن تنجح هذه العملية التواصلية برمتها، وهذا ما يكشف لنا عن قيمة مفهوم التلفظ المشترك الذي جاء به الباحث كوليولي، وهو مفهوم يعكس مستوى الوعي بخصائص الاستعمال اللغوي المتجلية في التناظر والميتاحوارية.

ويعبّر هذا المفهوم، كذلك، عن تجاوز اللسانيين النظرة إلى المرسل إليه باعتباره عنصرا سلبيا داخل الخطاب، إلى البحث في حجم التعاون الذي يقدمه للمرسل أثناء عملية التخاطب، ومن بين تلك الأدوار ما جاء ذكره في هذا النص الدال: "فبما أن لكل واحد من المرسل والمرسل إليه دوران، حيث يكون المرسل متلقيا لنفسه، ويكون المتلقي

---

[206]. Catherine Fuchs et Pierre LE GOFFIC, 1975, Initiation aux problèmes des linguistiques contemporaines, p 122.

[207]. ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص 305.

مرسلا كامنا، فإن هناك لا تجانس (dissymétrie) أساسيا في فعل التخاطب. فكل واحد يبني، في الوقت نفسه، إنتاج الآخر واستقباله، إن الأمر يتعلق بـ "المتلفظين مشتركين""[208]، يطلق عليهما كوليولي "وسيطي الإنتاج Production والتعرف Reconnaissance". إن من بين ما يعزّز هذا النمط التلفظي هو بنية الضمائر التي يستعملها المتلفظان؛ وهي "بنية حوارية بالضرورة لأن الـ "أنا" تدخل في علاقة ضرورية واختلافية مع الضميرين الآخرين، ضمير المخاطب وضمير الغائب"[209]، ويقوم التحليل التلفظي على تفكيك طبيعة هذه العلاقة والبحث في الآثار التي تخلِّفها في معاني الملفوظات.

بعبارة أخرى؛ يعكس هذا المصطلح منظور كوليولي ـ والتلفظيين عموما ـ لفعل التواصل والتلفظ، وهو منظور مبني على أساس تشاركي بين المتلفظ والمتلفظ المشارك. إن التلفظيين لا يتصورون عملية التواصل كأنها تبادل لغوي يجري في صندوق أسود لا تتلقاه أي تغيرات أو تفاعلات قد تؤثر فيه (وهكذا يرى البنيويون)؛ وإنما هي عملية بنائية يقوم بها المتلفظ والمتلفظ المشارك، وتتجلى "بنائية" هذه العملية في كون "النشاط اللغوي لا يتأسس على نقل المعنى، وإنما على إنتاج الأشكال التي تسِم العمليات (التمثيل représentation والتأشير référenciation والضبط régulation) والتعرف عليها. وفي كون الدلالة لا تُنْقل، بل يعاد بناؤها «(re)-construire »"[210].

وتبعا لهذا الفهم؛ أخذ التلفظيون بدورانية فعل التخاطب، وبالتفاعل التواصلي «L'interaction Communicationnelle» وبدور التشارك التخاطبي بين الفاعلين في إنجاح "عملية الإنتاج والتعرف" بعبارة كوليولي، الذي يلحّ على أن "الحوار هو البعد الأساسي للتواصل، [وتبعا لذلك] يرفض كوليولي، في الآن نفسه، النموذج الخطي لإرسال

---

[208]. ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، نفسه، ص 305.

[209]. عبد المجيد الحسيب، الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2014، ص 69.

[210]. Antoine CULIOLI, 1990, pour une linguistique de l'énonciation, tome 1, P 26.

المعلومة، وكذا فكرة "عالم مجزأ سلفا، من دون تعديل، أو تكييف" اللذين يعتقد أنهما يسمحان للمتلفظين المشتركين بتواصل شفاف"[211].

2.4.2.2 المتلفظ المشارك

يقصد بالمتلفظ الفرد الذي يأخذ الكلمة ويعلن عن نفسه متلفظا، ويُنصّب الآخر "مستمعا أو متلقيا له"، ويسمي كوليولي هذا المتلقي "متلفظا مشتركا"، وعندما يستلم اللغة ويحولها لحسابه الخاص يصير متلفظا، ثم تستمر العملية التلفظية في دورانيتها المستمرة، يساهم فيها كل عنصر من موضعه، "فالمتلفظ الأول Enonciateur يبني الملفوظ أي أنه يحدد تنسيقا للعلامات بحيث إن المخاطب Co-énonciateur يرتب نسقه في تحديد وضع العلامة بفضل الملفوظ (من بين علامات أخرى) ويعيد بناء التعلمات التي يقدم النص أثرها، هكذا فإننا لا نعمل على علاقة مباشرة وناجحة دوما بين النص ومرجع ما، وبتعبير آخر، فإن الملفوظات لا تنقل مضمونا دلاليا بل تسمح ببناء قيم مرجعية"[212]، ويتجسد التعاون بين المتلفظ والمتلفظ المشارك في الكشف عن طبيعة العلاقة بين النص والمرجع، ويتجلى أيضا على مستوى بناء تلك القيم المرجعية، وذلك عبر الاتفاق المبدئي التي يتم بمقتضاه إنتاج الملفوظات وبناء التعلّمات وتأويلها.

ويستعمل أنطوان كوليولي مفهوم "المتلفظ" و"المتلفظ المشارك" لأنهما يعبران عن وجود علاقة غيرية ضرورية بينهما، على "عكس مفهوم المتكلم Locuteur والمتكلم له L'interlocuteur يوجدان دائما منفصلين ولا يمزجان الحقل البين-ذوات intersujets مع آلية التحاور"[213]. في حين يعد هذا المزج بين الذوات التلفظية وما ينتج عنها من

---

[211]. ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص 305.

[212]. أنطوان كوليولي، نظرية التكلم، لسانيات الخطاب وخطاب اللسانيات، ترجمة: زهور حوتي، مجلة فكر ونقد، العدد 89، مايو 2007.

[213] – Antoine CULIOLI, 1990, pour une linguistique de l'énonciation, tome 1, P 130.

أقوال من الدعامات الأساسية التي تعتمد عليها لسانيات التلفظ في تحليلها للخطاب، وتأخذ بعين الاعتبار أثر تعالق الذات بالتلفظ في تغير معاني الملفوظات، لذلك نجد أبحاثها تصب في اتجاه الكشف عن تجليات الذاتية في اللغة وأثرها في المعنى، إلى أن صارت نظرية لسانية للذات المتكلمة.

نخلص من هذا إلى أن أنطوان كوليولي حاول أن يعيد تأطير البحث اللساني من زاوية تلفظية، فركّز على بعض المفاهيم الدقيقة التي يجب توظيفها بصدد تحليل الخطاب أو المحادثة؛ ومن بين تلك المفاهيم نجد "التلفظ المشترك" و"المتلفظ المشارك" و"الإنتاج والتعرف" و"العمليات التلفظية" و"مستويات التمثيل" إلخ، وكلها مفاهيم تشهد له بالإسهامات الفعالة التي أغنى بها الساحة التلفظية، غير أن هذه المفاهيم لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه من طرف الباحثين في مجال الخطاب والتلفظ عموما، كتلك الحظوة التي حظيت بها المفاهيم التي اقترحها إميل بنفنيست ودومنيك مانغونو وأزوالد ديكرو. فمن خلال بحثنا هذا تبين لنا أن جل الذين اهتموا بتحليل الخطاب أو بنظرية التلفظ يركزون، بشكل لافت، على أعمال هؤلاء الباحثين، دون أعمال أنطوان كوليولي، لأسباب لم نتمثّلها بعد.

5.2.2. السياق التلفظي

لقد اختلف المهتمون بأشكال التفاعل بين اللغة وسياقات استعمالها حول مفهوم "السياق" حيث أطلقوا عليه عدة مصطلحات، نذكر منها: الوضعية التلفظية situation d'énonciation، والمحيط l'environnement، ووضعية الكلام Situation de parole، وشرط الكلام condition de parole، وسياق التلفظ contexte d'énonciation، والسياق الموضعي contexte situationnel، وكلها مسميات متعددة للظروف المتحكمة في معاني الملفوظات المنتجَة. من أجل الخروج من هذا

الإشكال فقد اخترنا أن نطلق عليه "السياق التلفظي" وهو المفهوم الذي يجاري تصور لسانيات التلفظ لعلاقة اللغة بالسياق.

لقد حظي مفهوم السياق، عموما، بعناية خاصة في الدراسات اللسانية الحديثة، وذلك بسبب الإيمان القوي لرواد هذه الدراسات بالدور الذي يؤديه في تغيير معاني الكلمات والملفوظات والخطابات عامة، فأصبح المصدر الأول للتأويل الصحيح للوحدات اللغوية ومركزها الذي تحوم حوله لفهم اللغات الإنسانية، ويتجلى "الدور الخاص الذي يلعبه السياق، إنه يقدم المعطيات التي تسمح برفع الالتباسات المحتملة للملفوظات"[214]. وقد بلغ وعي المهتمين بهذا الدور إلى مستوى التأكيد على أن "كل كلمة تفوح برائحة مهنة، نوع، واتجاه، وحزب، وعمل معين، وإنسان معين، وجيل، وعصر، ويوم، وساعة، كل كلمة تفوح برائحة السياق والسياقات التي عاشت فيها حياتها الاجتماعية بحدة وكثافة، إن الكلمات والأشكال جميعها مسكونة بالنيات. في الكلمة لا نستطيع تجنب التوافقات harmonies السياقية للنوع، والاتجاه، والفرد"[215]. إذ يبين ميخائيل باختين بهذا الكلام درجة الأهمية للسياق، الذي ينسبه إلى "التاريخ" بحيث إن" كل خطاب، عن قصد أو عن غير قصد، يقيم حوارا مع الخطابات السابقة له، الخطابات التي تشترك معه في الموضوع نفسه، كما يقيم أيضا حوارات مع الخطابات التي ستأتي والتي يتنبأ بها ويحدس ردود فعلها..."[216]. وهذا ما يسمى بالسياق التاريخي أو الثقافي.

وقد أكسبت لسانيات الخطاب السياقَ أهمية كبرى، وذلك لأمرين أساسيين:[217]

---

[214]. Dominique MAINGUENEAU, Analyser les textes de communication, op.cit. ibid, p 5.

[215]. تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين: المبدأ الحواري، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1996، ص 115.

[216]. تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين: المبدأ الحواري، نفسه، ص 16.

[217]. محمود طلحة، تداولية الخطاب السردي، دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012، ص 41.

الأول: اعتبار السياق مكوّنا أساسيا في مفهوم الخطاب، لا انفكاك لدارس الخطاب عن النظر إليه؛

الثاني: الدور الأساس لاكتشاف تأثيرات السياق في تكوين النصوص وصياغتها، المتجلية في مقتضيات التواصل والتلفظ. حيث لابد للمتلفظ والمتلفظ المشارك من معرفة سياق إنتاج الخطاب وتأويله.

وبالعودة إلى مفهوم السياق في اللغة، نجده يفيد عدة معاني منها: المهر، والسياقة، والجزية، كما يعبر في المعاجم اللغوية الحديثة على توجيه الكلام في اتجاه معين، مثال ذلك، وقولهم: "ساق الحديث: سرده، أورده بسهولة وسلاسة، ساق القصة: قصها –ساق الحديث إلى موضع معين: وجهه إليك يساق الحديثُ: يُوجَّه"[218]. ويحمل السياق، أيضا، معنى تتابع الكلام وتسلسله المنتظم ومعنى سياق الأحداث: "سياق [مفرد]: ج سياقات: مصدر ساق. تعاقب سلسلة من الظّاهرات في وحدة ونظام كتعاقب الظاهرات الفسيولوجية والسَّيكولوجية. ظروف يقع فيها الحدث أو يساق فيها الكلام «شرح المتّهم للقاضي السِّياق الذي ارتكب فيه جريمته»"[219].

يتبين لنا أن المعاجم الحديثة حددت المفهوم اللغوي للسياق تحديدا أقرب بكثير من معناه الاصطلاحي، الذي يفيد العناصر التي تؤدي إلى توجيه الكلام والتأثير على معناه في الاستعمال. بالإضافة إلى هذا، يظهر هذا التقارب بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي في ربطه بالحدث والحديث حين تحدثوا عن مادة [ساق] في علاقتها بالحديث وما يحيط به من أحداث، كما فعل أحمد عمر مختار وغيره من المعجميين المحدثين.

أما تعريف السياق اصطلاحا؛ فقد عرفه جون دوبوا في معجم اللسانيات بـ "المحيط l'environnement"، ويعني الوحدات التي تسبق وتلي الوحدة المحددة، ويسمى أيضا

[218]– أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص 1137.

[219]– أحمد محتار عمر، نفسه، ص 1138.

السياق، أو السياق اللفظي"[220]. ويتعلق هذا التعريف بالسياق اللغوي، ويعرفه أيضا بأنه: "مجموع الظروف الاجتماعية التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللساني، وهي في الغالب تعتبر كسياق اجتماعي لاستعمال اللغة"[221].

إذن، فمصطلح السياق، مفهوم واسع، يشمل مختلف العناصر التي تساهم في فعل التلفظ كالمحيط الفيزيائي، ومعارف المشاركين وحالاتهم النفسية والظروف التاريخية والاجتماعية المرتبطة بعملية التخاطب والموضوع والقناة والمقام والسنن وجنس الرسالة والحدث والمقصد، "ومن الضروري أن تعرف (على الأقل) من هو المتكلم ومن هو المستمع، وزمان ومكان إنتاج الخطاب"[222] وبهذا، فالسياق مفهوم شامل، تستعين به كل النظريات التداولية بدرجاتها الثلاث: نظرية التلفظ، وأفعال الكلام، والنظرية الحجاجية، وكذلك لسانيات النص والسوسيولسانيات.

أما بالنسبة لنظرية التلفظ، فإن بنفنيست ينظر إلى السياق باعتباره العنصر الأساس المكمِّل لفعل التلفظ، هو عبارة عن: "موجودات أو محددات موجودات. سياق وجودي مرجعي: المخاطبون وإحداثيات المكان والزمان"[223]، لأن نظرية التلفظ تختص بدراسة الحدود اللغوية التي "تتطلب معلومات سياقية أثناء التأويل، ومن هذه الحدود [المعينات] مثل: هنا، الآن، أنا، أنت، هذا، ذاك"[224]، وترجع هذه الإشاريات [أو المعينات] إلى سياقها المرجعي الذي أنتجت فيه لتأويلها، و"الانتقال من الدلالة إلى التداولية حالما يدرك

---

[220]- J. Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, op.cit, Ibid, p 120.

[221]- J. Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, Ibid, p120.

[222]- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1991، ص 297.

[223]- صابر الحباشة، الحجاج في التداولية، مدخل إلى الخطاب البلاغي، مجلة ثقافات، تصدرها كلية الآداب بجامعة البحرين، 2001، ص 205.

[224]- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، مرجع سابق، ص 297.

أن المرسل والمرسل إليه، وكذلك موقعهم الزماني- المكاني هي مؤشرات للسياق الوجودي. وعندما توضع هذه الإشارات في الاعتبار، فإنه يمكن وصف معنى التعبيرات اللغوية، بما يقود إلى صنف إشاري للدلالة"[225].

فالسياق من الزاوية التلفظية يشكّل الظروف الأساسية التي تحْكُم مرجعية السيرورة التلفظية، وهي ظروف "تخلق وضعية أكثر فرادة (تميزا)، والتي لا تؤخذ بعين الاعتبار في الغالب. حيث إن الفعل الفردي المعتمد في اللغة يُنتج المتكلم في كلامه، وهذا الكشف هو المعطى التأسيسي للتلفظ"[226].

نخلص من هذا إلى أن السياق التلفظي هو سياق وجودي ومرجعي، يركز بالدرجة الأولى على كيفية حضور المشاركين في العملية التلفظية وإحداثياتهم الزمانية والمكانية. وتأخذه لسانيات التلفظ بعين الاعتبار عند البحث في مستويات تجلي الذات في الخطاب، فالسياق التلفظي إذا حضر في الملفوظ فهو مؤشر فعلي على حضور وجهة نظر المتلفظ في ملفوظه، أما إذا غابت عناصر الإطار التلفظي، (والسياق/ الوضعية التلفظية من بينها)، فإنه يحيل على وجود المتلفظ خارج الملفوظ. بعبارة أخرى فإذا ضمَّن المتلفظ عناصر الوضعية التلفظية في ملفوظه فهو تلفظ خطابي في اصطلاح إميل بنفنيست، أو "ملفوظ موصول" بعبارة دومنيك مانغونو، أما إن غيّب عناصر تلك الوضعية فيسمى، آنذاك، تلفظا تاريخيا بتعبير إميل بنفنيست، أو ملفوظ "غير موصول" عند مانغونو.

بهذا نسجل أن السياق التلفظي أو الوضعية التلفظية، شكل معيارا أساسيا في بناء بعض المفاهيم التلفظية مثل مفهوم التلفظ والملفوظ، وهو المعيار الذي اعتمده التلفظيون

---

[225]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2004، ص 43.

[226]- Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, p 82.

في تصنيفهم لأنواع التلفظات (خطابي وتاريخي) والملفوظات (موصول غير موصول)، وفي تصنيف الخطاب، أيضا، إلى خطاب موضوعي، وتاريخي، وذاتي....

3.2. إشكاليات التلفظ

تكمن الإشكاليات التي تواجهها نظرية التلفظ في طبيعة موضوعها، وفي طبيعة القضايا والمفاهيم التي تشتغل بها وعليها، ومن بين هذه الإشكالات هي صعوبة المعالجة المباشرة لفعل التلفظ. فإذا كانت لسانيات التلفظ تهدف "إلى وصف العلاقات التي تنسج بين الملفوظ ومختلف عناصر الإطار التلفظي "Cadre énonciatif""[227]؛ فإن الإشكال المطروح هو كيفية الكشف عن قوانين التلفظ انطلاقا من ملفوظ محقَق. وهل توجد بنى خاصة بالتلفظ، وعناصر خفية قابلة للتحليل، تسمح بتأسيس عملية التلفظ داخل الملفوظ، وهذا الأمر شبيه بالبحث عن خيط غير مرئي ولكنه حاضر في النسج، لذلك اقترحت أوركيوني البحث في كيفية تمثيل آثار الفعل في الإنتاج ووصفها، وهذه الآثار توجد في الملفوظ عبارة عن مؤشرات دالة على التلفظ كحضور الإشاريات مثلا (أنا، الآن، هنا...).

وقد حاولت أوركيوني التصدي لبعض الأسئلة النظرية والمنهجية التي يتوجب على لسانيات التلفظ الإجابة عنها، فقالت "آن الأوان لحصر حقل دراستنا، يعني أن نقدم جوابا عن السؤال: ما المقصود إذن بالتلفظ؟ ماذا يجب أن يكون؟ وماذا يمكن أن يكون موضوعا "للسانيات التلفظ"... لمحاولة كشف الالتباس l'ambiguïté الذي سيمس تصور هذا التلفظ"[228].

فاقترحت أوركيوني في هذا الصدد تعقّب سير هذا الفعل كسير خيط خفي داخل النسج، وهو الاقتراح نفسه الذي اتبعته الباحثة ذهبية حمو الحاج في تحليلها للخطاب السياسي، ويظهر ذلك في قولها: "فلصعوبة هذه الإشكالية التي تطرح نفسها بنفسها،

[227]. Orecchioni (C.K), L'énonciation de la subjectivité dans le langage, P 30.

[228] .Orecchioni (C.K), L'énonciation de la subjectivité dans le langage, P 28.

ولعدم القدرة على معالجة فعل إنتاج الملفوظ مباشرة، نكتفي بالبحث عن تحديد ووصف بصمات آثار هذا الفعل في الخطاب السياسي أي المواضع التي يدخل في إطارها تشابك الأحداث التلفظية لمختلف مكونات الإطار التلفظي "Cadre énonciatif"[229].

وتقصد بهذا أنها استهدفت القضايا التي تتداخل فيها عناصر الإطار التلفظي مع الخطاب؛ وهي الذات المتلفظ والمتلفظ المشارك والوضعية التلفظية وقيود عالم الخطاب وغيرها؛ بمعنى آخر، حاولت أن ترصد تلك القضايا التي تنعكس على مستوى ملفوظات الخطاب. ومن بين هذه القضايا، نذكر الذاتية في اللغة وظاهرة التضمين والتلميح والطبيعة التسييقية للعناصر الإشارية في اللغة، هذا من جهة أولى.

ومن جهة ثانية، نجد الإشكال المتعلق بطبيعة الموضوع، الذي يتشكل من الضمائر والإشاريات الزمانية والمكانية، وكبد العقدة في هذا الباب أن هذه العناصر غير واضحة السمات والدلالات، إذ يصعب الإمساك بزمامها من حيث المعنى في الدراسة. لذلك لاحظنا أن لسانيات التلفظ عرفت تطورا ملموسا في فترة وجيزة، ومرد هذا إلى طبيعة الموضوع الذي يتميز بانفتاح صدره للبحث من لدن تخصصات أخرى لسانية وخارج لسانية. فجاء رائدها بالأرضية الأولى وهي البحث عن تجليات الذاتية في اللغة عبر شتى أنواع الإشاريات، وخلّف عددا من المقالات في ذلك. ثم أكملت أوركيوني وأنطوان كوليولي وأوزولد ديكرو مسيرته من زوايا متنامية وشاملة. ثم انتقلت هذه القضايا ومفاهيمها إلى عالم تحليل الخطاب بكل صنوفه، وإلى عالم السرديات والسيميائيات وغيرها من التخصصات الحديثة.

ومن جهة ثالثة، فدراسة العناصر الإشارية تتطلب الحرص الدقيق على شروط إنتاجها، وعلى حيثياتها النصية وخارج نصية أيضا. ثم الحرص على التجدُّد المستمر لهذه الشروط والحيثيات؛ لأن هذه العناصر تتميز بالفرادة والسياقية، فالضمائر مثلا تُنتِج

[229]. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، مرجع سابق، ص 95.

ذاتا جديدة عند كل مرة يتلفظ فيها المتلفظ بـ "أنا/ أنت". فهذه الظروف الأساسية "هي التي تحكم المرجع في السيرورة التلفظية حيث تخلق وضعية أكثر فرادة (تميزا)، والتي لا تؤخذ بالاعتبار في الغالب. فالفعل الفردي المعتمد في اللغة يُنتج المتكلم في كلامه. وهذا الكشف هو المعطى التأسيسي للتلفظ"[230]. فتتغير الذات المتمثلة في الخطاب من فعل فردي لآخر، وإن صدر هذا الفعل عن ذات متلفظة واحدة، وهذا ما يزيد من حدة إشكال هذه الدراسة.

3. خلاصة

لكل نظرية أصولها المنهجية والابستمولوجية التي تُبنى عليها وتتطور انطلاقا منها، كذلك لسانيات التلفظ التي اختلفت، قليلا، عن باقي النظريات اللسانية من جهة الأصول الابستمولوجية، حيث هي الفرع اللساني الوحيد الذي أعاد الاعتبار لذات الإنسان في اللسان؛ وذلك بأثر من الفلسفة الوجودية. ثم إنها النظرية الوحيدة –حسب علمنا– التي متحت من النحو العربي وأشادت بمجهودات علماء النحو العربي القديم. قد يسجل الباحثون في الدراسات اللسانية المقارنة بعض التطابق بين قضايا النحو العربي وباقي النظريات اللسانية، قديمها وحديثها، ولكن لم يسجلوا أي أثر ذِكر لتلك المجهودات العربية القديمة.

إن تعدّد هذه الأصول يعبر عن وعي التلفظيين وخصوصا إميل بنفنيست بالصعوبات التي تواجه هذه النظرية، في رحلة بحثها عن المعنى ضمن الوحدات الأكثر تغيّرا وتسييقا (لارتباطها الوثيق بسياق التلفظ) وهي الضمائر والإشاريات، ثم في رحلة بحثها عن تجليات الإنسان في اللسان.

---

[230]. Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, p 82.

وقد كشفنا بعضا من هذه الصعوبات حال حديثنا عن إشكاليات التلفظ، وأشرنا إلى بعض الحلول المبذولة بصدد معالجتها.

ثم؛ تتميز اللسانيات التلفظية بجهازها المفهومي الخاص، المتمثل في التلفظ والملفوظ، والمتلفظ، والمتلفظ المشارك، والسياق التلفظي، والذاتية، وغيرها. وقد فرضت هذه المفاهيم نفسها على ساحة البحث في تحليل الخطاب بشتى صنوفه، إلا أنها مفاهيم أكثر حدة من غيرها، إذ تفرض على الباحث فيها، أو بها، القدرة على تدقيقها وتمييزها عما يتداخل معها من مفاهيم أخرى، لذلك فقد حددنا مفهوم التلفظ عبر مقابلته مع مفهوم اللغة والخطاب والكلام لتَمَثُّل مكوناته التعريفية، ثم لفهمه في سياقه النظري الذي وضعه فيه إميل بنفنيست أول الوضع، كما اضطررنا مع مفهوم الملفوظ إلى مقابلته، هو كذلك، مع مفهوم اللغة والتلفظ والنص.

الفصل الرابع:

لسانيات التلفظ والذاتية في اللغة

تمهيد

لم يكن لِنلاحظ أي انسجام بين مكونات هذا العنوان: "الذات" و"اللسانيات"، إلا بعد مضي زمن ليس بالقصير من تاريخ التطور الذي عرفه البحث اللساني، حيث كانت "الذات المتكلمة" والتفاعل بين الفرد واللغة؛ من بين القضايا التي تنصلت منها اللسانيات في بداياتها حيث كان من الصعب أن تحصل ـ دون الهروب من مثل هذه القضايا ـ على تلك الدرجة العلمية التي كانت تصبو إليها مع سوسير وأخرين.

إن البحث في الذاتية في الخطاب "فكرة انفتحت عليها اللسانيات حين أعادت الاعتبار إلى المتكلم ذاتا تسكن اللغة وتترك على أديمها آثارا وبصمات تشهد عليها علامات لغوية كثيرة وطرائق تعبيرية متنوعة"[231]. ولم يكن ليتم هذا لولا نهوض مجموعة من الباحثين بإعادة النظر في المبادئ اللسانية من أولها، والقول إنه من غير المعقول أن يتم إقصاء الإنسان من مكون أساس من مكوناته الحياتية وهو "اللغة". ولهذا تنبّه اللسانيون التداوليون خصوصا، والتلفظيون بالأخص إلى ضرورة تدوير البحث اللساني إلى الذات الإنسانية وإعطائها مكانتها التي تستحقها في الدراسات اللغوية.

إذ تختص لسانيات التلفظ بدراسة العناصر الأولى التي يتشكل منها أي خطاب، شفوي أو كتابي، سياسي أو إعلامي أو روائي أو شعري. وهذه العناصر هي الضمائر وإشاريات الزمان والمكان، وتتناولها التلفظية من زاوية نظر أنها عناصر أساسية وضرورية في بصم الخطاب بذاتية المتكلم، ومنه سنقدم في هذا الفصل أشكال الاهتمام التي أولتها لسانيات التلفظ لمفهوم الذاتية في اللغة والخطاب، كما سنكشف عن تمظهرات هذه الذاتية من خلال تصور رواد التلفظية، محاولين الإجابة عن السؤال التالي:

---

[231]. حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 36.

- ما الكيفيات التي تتجلى بها ذاتية المتكلم في الخطاب عبر الضمائر وإشاريات الزمان والمكان؟.

1. التأطير الابستمولوجي

لقد حاولت اللسانيات، بدءا، أن تحرر البحث اللغوي من أسر الذاتية ومن الوعي الإنساني، فأخذت أبحاثها ترفض الاعتراف للإنسان، بأنه "ذات تمثل كيانا واقعيا؛ وتنتقص من قيمة وعيه الذي تعتبره كاذبا ومخادعا، وتنفي أن يكون متمتعا ولو بقدر نسبي من الحرية في مجال المبادرة والإبداع، ولا تكترث كثيرا بمشاعره وعواطفه، وتفرغ كلامه من المعنى والقصد. باختصار، يصح القول بأنها تقصي كل ما يتأسس على قاعدة الذات والذاتية."[232]

وجاء هذا الرفض، وهذا الانتقاص وهذا الإبعاد، نتيجة تصور اللسانيين بأن الوعي الإنساني وذاتيته، يحملان من الخصائص ما يحول دون بلوغ مشروعهم العلمي المطروح حول لسان الإنسان، ويحُولان أيضا دون قبول هذا المشروع في ساحة العلوم الدقيقة. "فالوعي يحيل ضمنيا إلى ذات شفافة تمتلك إرادة حرة، وقدرة على الانتباه والتركيز، وعلى التأمل واستباق الأحداث وحدسها. وتلك محض أوهام واستيهامات النزعة الإنسانية وفلسفة الذات التي نجحت، ولفترة طويلة، في أن تبقى العلوم الإنسانية في أسرها"[233]. لهذا، فالبنيوية اللسانية تنظر إلى الوعي كعدو خفي يبعثر أوراقها البحثية ويراوغها، ويضرب أبحاثها "العلمية" عرض الحائط، على اعتبار أن الوعي يقتضي الحرية؛ وهي بدورها "تقتضي الإمكانية، لأن الحرية تتضمن الاختيار، وكل اختيار هو اختيار بين ممكنات"[234]، لذلك هاجمَته واعتبرته من استيهمات النزعة الإنسانية والوجودية. ولم

---

[232]. عبد الرزاق الدَّواي، موت الإنسان، في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، 2000، ص 111.

[233]. عبد الرزاق الدَّواي، نفسه، ص 112.

[234]. عبد الرحمن بداوي، دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 1400هـ/1980م، ص 287-288.

يستغرب نقاد البنيوية من هذا الهجوم بعد أن علموا بسعيها نحو دمج اللغة والثقافة في أبحاث الطبيعة. ومن مظاهر هذا الإدماج، في اللسانيات البنيوية، نظر دو سوسير للكلام بأنه "فعل فردي يعبر عن الاعتباطية والذكاء، يجب أن نميز في إطاره بين الاختيارات التي توظفها الذات المتكلمة أثناء استعمالها لسنن اللسان le code de la langue لتفسير تفكيره الشخصي، والميكانيزمات النفس–فزيائية المتحكمة في هذه الاختيارات"[235]. لهذا تبين لدو سوسير أن البحث اللساني لن يحقق تلك الدرجة العلمية التي يطمح إليها إذا اهتم بهذه الفعالية وهذه الاختيارات التي يطرحها الكلام، لذلك لم يبد أي رغبة في إدارجها، آنذاك، ضمن المباحث اللسانية المطروحة، فعبر عن ذلك بقوله: "إن نشاط المتكلم يجب أن يدرس ضمن مجموعة من التخصصات التي لا مكان لها في اللسانيات غير أنها ذات صلة باللغة"[236].

غير أنه لا بد أن نشير، في هذا الصدد، إلى وجود بعض الاختلاف بين التعريف الذي قدمه سوسير وما طرحه الفلاسفة بصدد علاقة الوعي والحرية بالكلام، فالأول اعترف بفردية فعل التكلّم وحرية المتكلم، وبتَدَخُّلِ ذكائه في فعل إنتاج الكلام، أما كلود ليفي ستراوس ـ على سبيل المثال ـ فقد طرح موقفا مخالفا لذلك، فرفض فكرة الحرية في مجال الكلام والكتابة، وحسب تصوره هذا "فكلامنا يخضع لمجموعة محددة من القواعد اللاشعورية، وعندما نتكلم "نتوهم" أننا نقوم بذلك تلقائيا وعن حرية، بينما نحن في الحقيقة خاضعون لبنيات وُجدت قبل فكرنا ذاته، وقبل ظهور فكرة ما نسميه بالمعنى le sens: فاللغة كلها، توجد بالقوة وبكيفية مسبقة. وقبل أي نطق أو تعبير"[237]. فإذا كان دو سوسير قد أقر بفردية فعل التكلم وبذاتيته وأجل النظر اللساني فيه؛ فإن ليفي ستراوس نزع عن

---

[235]. Ferdinand de saussure, cours de linguistique générale, Edition Payot, Prais, p 30.31.

[236]. Ferdinand de saussure, cours de linguistique générale, p 37.

[237]. عبد الرزاق الدَّواي، موت الإنسان، في الخطاب الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 113.

هذا الفعل صفة الحرية والذكاء، انطلاقا من توجهه البحثي الذي يهدف نحو "إزاحة الفلسفات التي تناولت العالم الإنساني كوجودية سارتر، التي غذت فكرة هامشية"[238].

كما ينبغي أن نشير إلى أن الفلسفة البنيوية، أو النزعة الإمبريقية ترى أن الماهية تسبق الوجود؛ أي أن المعنى يوجد سلفا في اللغة، والمتكلم يتوهم –فقط– أنه يُنتج المعنى ويتدخل في تشكُّله، لذلك غيبت وعي المتكلم وذكائه في إنتاج الكلام، كما فعلت اللسانيات البنيوية. غير أن الفلسفة الوجودية ترى عكس ذلك؛ فسارتر– على سبيل المثال– يذهب إلى أن الوجود يسبق الماهية، فوجود اللغة يسبق ماهيتها؛ أي معناها. فاللغة توجد على شكل بنيات ومادة خام في ذهن المتكلم، إلا أن ماهيتها لا تتحقق إلا بتحققها عبر الفعل التلفظي، وهذا المذهب هو ما أخذت به لسانيات التلفظ ودافعت عنه.

ومع بداية الثمانينيات؛ وبعد مرحلة من تقدم البحث اللساني نظريا وتطبيقا، بدأت تتلاشى تلك الظروف التي ساعدت على ازدهار البنيوية، بوجهيها الفلسفي واللساني، وتتهاوى أمام تزايد الانتقادات الموجهة إليهما، إلى درجة أصبحتا في وضعية أرغمتهما على الاعتراف بما يلي: "من المتعذر علينا حقا، أن نقتنع بأن تغييب الوعي تماما عن دراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية ذاتها، يساعد على تعقل أحسن لتلك الظواهر التي من المفروض أنها نتاج لتفاعل وعي الإنسان مع الظروف والمواقف والأحداث."[239]

ولم يقف الوضع عند هذا الاعتراف؛ بل غيّر مجموعة من البنيويين من مواقفهم السابقة، وصاروا يناهضون ما كانوا في الأمس، قبل غروب شمس السبعينيات، يدافعون عنه، مثلما حصل مع ليفي ستراوس الذي تحول إلى "شاعر وفنان تفيض روحه بالمشاعر الجياشة والمرهفة، التي أطلق لها العنان كي تنفجر، بعد أن طالت فترة الكبت والإبعاد التي فرضها المنهج البنيوي، كشرط من شروط الوصول إلى الحقيقة العلمية. لقد

[238]. خالد طحطح، اللحظة البنيوية، قصة عصود نظرية وأفولها، مجلة علامات، ع 45، 2016، ص 83.

[239]. عبد الرزاق الدَّواي، موت الإنسان، في الخطاب الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 112.

أذعن عقل العالم في النهاية إلى صوت القلب، فبسط يد الهوى عندما أدرك الغروب، وهو الذي أدان من قبل، العواطف والمشاعر، واستخف بلغة "الذاتية"... ذلك "الكنز الفقير" كما أسماه"[240].

وإذا كان التيار البنيوي الفلسفي قد أعاد الاعتبار لهذا الكنز الفقير وللوعي الإنساني في بداية الثمانينيات؛ فإن اللسانيات كانت سابقة لهذا الاعتبار قبل ذلك بما يفوق عقدين من الزمن. لقد اهتم إميل بنفنيست بـ "الذاتية في اللغة" وخصص لها حيزا مهما ضمن أعماله التي تعود إلى خمسينيات وستينيات القرن الماضي، وكما فعلت كاترين كربرات أوكشيوني في كتابها " L'énonciation et la subjectivité dans le langage (1980)".

ومن هذا الباب، يجدر بنا أن نطرح التساؤلات التالية:

1. ما هي أسرار وخلفيات اهتمام اللسانيين التلفظيين بالذات والوعي في اللغة؟؛
2. ما هي الجذور الفلسفية والمعرفية التي تشكل منها البحث اللساني حول "مفهوم الذاتية في اللغة"؟؛
3. ما هي تجليات ذاتية المتكلم/المخاطب في اللغة؟؛
4. كيف كشفت لسانيات التلفظ عن هذه التجليات؟.

[240]. عبد الرزاق الدَّواي، موت الإنسان، في الخطاب الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 120.

2. خلفيات الاهتمام بالذاتية في اللسانيات

يعود اهتمام اللسانيات التلفظية بمفهوم "الذاتية"، وبحثها في أشكال تمثلات ذاتية المتكلم وتجليتها في الخطاب، إلى خلفيات عديدة، منها خلفيات لسانية ظهرت مع التطورات التي عرفتها اللسانيات الحديثة، وخلفيات فلسفية برزت بعد أن استيأس بعض الفلاسفة من مطاردة معاني الوجود واللغة والفكر خارج إطار منتجيها؛ أي خارج حرية الفرد وإراداته، والنظر إليها كبنيات مستقلة عن أي حركية حرة.

وفيما يلي أهم هذه الخلفيات:

أولا: كشف إميل بنفنيست عن مجموعة من النواقص البحثية في اللسانيات السوسيرية، من مثل بروز قضايا خارجة عن إطار البنية مثل قضايا المضمرات والإشاريات، والتي لا يمكن التحقق من وظائفها "إلا إذا درست في إطار الممارسة اللغوية وفي الإنتاج الخطابي. إن هذه الأصناف أولية ومستقلة عن أي تحديد ثقافي ومن خلالها يمكننا النظر إلى التجربة الذاتية للأشخاص الذي يتموقعون في اللغة وعن طريقها"[241].

فقد توصل إميل بنفنيست إلى أن الدراسة البنيوية المحايثة لهذه القضايا تبقى ناقصة؛ ما دام أنها قضايا خطابية تداولية استعمالية بالدرجة الأولى، وبيّن أن معناها لا يتم إلا بورودها في سياق تلفظي محدد، وتحمل انطلاقا من هذا السياق وضعا منفردا عند كل استعمال.

ثانيا: تَجَاوُزُ النظرة الاختزالية للغات والآداب التي قدمتها اللسانيات البنيوية، بحيث أشارت أوركيوني إلى ضرورة توسيع مجال اشتغال اللسانيات، لأنها، إن بقيت على هذا الحال، ستختنق بسبب بنياتها المغلقة ومنهجها الصارم الذي نبع من تصور اختزالي، ما فتئ أن أصبح أكثر جمودا، ومنه دعت الضرورة العلمية إلى تجاوزه "وتوجيه التفكير

---

[241]. إميل بنفنيست، اللغة والتجربة الإنسانية، ترجمة ذهبية حمو الحاج، مجلة الممارسات اللغوية، ع 14، 2012، ص 155-167.

باتجاه فكرة أكثر دينامية للنص الأدبي"[242] والانتقال من البحث عن الوجود الأدبي في المنتوج إلى البحث عنه في عملية الإنتاج.

ثالثا: وبالإضافة إلى ما أشرنا إليه رهن حديثنا عن تطورات البحث اللساني من البنية إلى الاستعمال، فكل تلك الردود والانتقادات ساهمت بقسط مهم في إعادة الاعتبار للذاتية في اللغة، وإعادة اللغة لذاتها المتكلمة، والبحث في الإمكانات التي تقدمها اللغة للمتكلم لكي يكشف عن ذاته، فأخذت البحوث اللسانية منذ ستينيات القرن الماضي تهتم بتمثلات الذات الإنسانية في الخطابين اللغوي والأدبي، وألقت إلى الهامش تلك التصورات التي لا تناسب الذات المبدعة، كما لا تراعي للأدب وظيفته في علاقته بالذات الكاتبة/القارئة وبالمجتمع. ومن بين هذه التصورات تلك التي تتبنى فكرة مفادها "أن الكاتب الروائي مخلوق تحركه قوى غامضة، يكتب بوحي خفي، لا يدري إلى أين يسير، ولا يعرف كنه ما يفعل، مخلوق يكتب مثلما يغرد العصافير بل هو، أكثر من ذلك، خالق عوالم استثنائية، ونبي يجترح المعجزات"[243].

إن اللسانيات التلفظية ـ بصدد هذه الفكرة ـ أخذت تبحث عن هذه القوى التي تحرك الكاتب وهي قوى استعمالية وتلفظية وسياقية مرتبطة بلحظة تلفظه بالخطاب، كما تبحث عن الاتجاه الذي يأخذ خطابه نحوه؛ أهو اتجاه ذاتي؟ أم نحو اتجاه موضوعي/ تاريخي؟....

ومن هذا وغيره، عرفت المناهج اللسانية والأدبية ثورة فعلية ضد الأشكال التي تختزل الإنتاج الأدبي وتقزم أدواره، فهمَّ الباحثون إلى مساءلة الأدب سيميولوجيا وسوسيولوجيا وسيكولوجيا، ومن جميع جوانب الحياة التي من شأنها أن تترك آثارها

---

[242]. فانسان جوف، الأدب عند رولان بارط، ترجمة عبد الرحمن بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص 22.

[243]. لوسيان كولدمان وآخرون، الرواية والواقع، ترجمة رشيد بنحدو، منشورات عيون، الدار البيضاء، ط1، 1988، ص 11.

الخاصة في هذا الأدب. وما نظرية التلفظ إلا وجها من أوجه تلك الثورة التي نحن بصدد مساءلة مقترحاتها ومدى استجابتها للمطالب الذاتية والاجتماعية التي أصبح يلوح بها كل من المتلفظ والمتلفظ المشارك في الخطاب الروائي.

رابعا: انفتاح البحث اللساني على البحث الفلسفي في أغلب تطوراته، فكان لزاما أن يرافق هذا التغير الفلسفي تغير على مستويات البحث اللساني أيضا، حيث سجلنا أن عددا من الفلاسفة ـ ذوي التوجه التجريبي ـ أعادوا النظر في عدد من مقترحاتهم العلمية التي كانت تقصي الوعي والفرد والإرادة من جملة قضاياها؛ فأعادوا إدماج هذه القضايا ومساءلتها فلسفيا، وبالتالي إعادة الروح إلى الفلسفة الوجودية، التي أدانوها بدعوى التشويش وبعثرة الصفوة العلمية للبحث الفلسفي والعلمي عامة.

ومنه فقد أتاحت هذه الخلفيات تحقيق رخاء بحثي في الساحة اللسانية؛ أتاح للسانيين تجاذب الاهتمامات والتصورات مع باقي الفروع النظرية الخاصة بالبحث اللغوي والأدبي كذلك، وقد وجدنا هذا الانفتاح بارزا في أذهان الباحثين في النظريات الأدبية والسردية، وعلى رأس هؤلاء نذكر رولان بارط، الذي طور منهجه التحليلي في مجال السرد، حيث اقتفى أثر التطورات التي عرفتها اللسانيات في انتقالها من تحليل العلامات وتبويبها، كما فعل سوسير، إلى دراسة قواعد إنتاج الكلام، فهجر "أبحاثه التصنيفية taxionomiques للأدب، من أجل دراسة ميكانزم الإنتاج الذي يكوِّن النص..."[244].

3. الذاتية وجدلية السرد والخطاب

لقد أشار جون سرفوني إلى إمكانية النظر إلى التقسيم الثنائي الذي اقترحه إميل بنفنيست لفعل التلفظ إلى تلفظ تاريخي وتلفظ خطابي، من زاوية أخرى وهي ثنائية موضوعي/ذاتي، واستهل حديثه عن هذا التفريع الجديد بذكر بعض قصور نموذج التقسيم البنفنيستي، حيث يرى أنه يقوم على اعتبارات عشوائية، سنشير هنا إلى وجه من أوجه

[244]. فانسان جوف، الأدب عند رولان بارط، مرجع سابق، ص 38.

هذا القصور وهو ما عنونه سيرفوني بـ "استراتيجية الموضوعية"، أما باقي الأوجه الأخرى سنُحدث لها ذكرا في الفصل الخاص بمستويات التلفظ عند إميل بنفنيست.

– **استراتيجية الموضوعية:** "فمؤلف نص ما يمكنه الاختباء وراء صياغات أكثر حيادية من صياغات أخرى وأيضا – مع أن ذلك أكثر صعوبة – يمكنه محاولة جعلنا نغفل أن نصه مصوغ تبعا للمتلقي. والصورة التي يكونها عنه والفكرة التي لديه عن الصورة التي يكونها المتلقي عنه"[245].

ويسجل سرفوني في هذا الصدد ملاحظتين: أولهما صعوبة الإحاطة بأشكال تمثلات الموضوعية والذاتية في اللغة، نتيجة غياب الاتصال التام أو الانفصال البيّن بين هذه التمثلات وأشكال استعمال الضمير. ثم؛ تكمن ثانيهما في أن "الأنا" أحيانا باعتباره عنصرا أساسيا لتسجيل الذاتية في اللغة، قد يبدو في بعض الصيغ التعبيرية غير قادر على أداء هذا الدور بوضوح، فيصبح "جزئيا في بعض الحالات: قد يشير إلى كائن بشري معرى نُزعت عنه كافة صفاته الاجتماعية، ويفصح عن أعز أسراره..."[246].

ومنه؛ فالأنا ـ على حد قوله سرفوني ـ لا يحمل صفة الذاتية ولا يضفي حكما ذاتيا على الأفكار المطروحة فقط، كما خصصه بنفنيست بذلك، بل قد يعكس، أيضا، فِعليّة المواقف الاجتماعية للمتكلم وواقعيتها.

وقد نحا جون سرفوني منحى أوركيوني في معالجة الذاتية في اللغة، فاستشهد بما أوردته بصدد ذاتية الضمير الشخصي "أنا": "الذاتية يمكنها افتراض سبل الـ "هو"=IL وموضوعية الـ "أنا" = JE، وأن الملفوظ "أجد هذا جميلا" يمكن عده أكثر موضوعية من الملفوظ "إنه جميل".[247]

---

[245]. جون سرفوني، الملفوظية، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد كتاب العرب، 1998، ص 53.

[246]. جون سرفوني، الملفوظية، نفسه، ص 53.

[247]. جون سرفوني، نفسه، ص 54.

وتجدر الإشارة إلى أن أوركيوني قد أعادت النظر في ثنائية "الذاتية/ والموضوعية" وكشفت عن قصور التفسير الذي قدمه إميل بنفنيست في هذا الباب، وأضافت عناصر أخرى من شأنها أن تحمل إحالة ذاتية، إلى جانب الإشاريات التي أعطاها بنفنيست نقطة الصدارة في إبراز ملامح ذات المتلفظ، وهذه العناصر هي "الألفاظ العاطفية والتقييمات (أو التقديرات) القيمية وغير القيمية والموجِّهات ومواطن أخرى لتسجيل ذات المتلفظ في الملفوظ مثل (الاختيارات الاسمية، انتقاء المعلومات وترتيبها سلميا إلخ). وقد ألحت على ما يقع فيه مفهوما الذاتية والموضوعية من التباس وأفضى كتابها إلى الاستنتاج بأن «الذاتية قائمة في كل شيء» وبأن كل الخطابات موسومة ذاتيا، لكن بأشكال ودرجات شديدة التنوع"[248].

مفاد هذا؛ إن جدلية السرد والخطاب ـ أو جدلية التلفظ التاريخي والتلفظ الخطابي عند بنفنيست ـ جدلية معقدة تعود صعوبة الحسم فيها إلى أن الأدوات التمثيلية لهذه الجدلية غير واضحة التمثيل أو المعنى، ورأينا مع سيرفوني وأوركيوني كيف أن الأشكال الأكثر ذاتية في الخطاب يمكن أن نلمس فيها، بدورها، حظا أوفر من القيم الموضوعية أي قيم السرد المحايد أو قيم التلفظ التاريخي الذي تُستبعد فيه كل أشكال الذاتية من ضمائر شخصية وإشاريات الزمان والمكان، (أو قد نتوهم فقط أنها مستبعدة). كما يمكن أن نُرجع هذه الصعوبة إلى الطبيعة الفردية والاجتماعية للغة، بما هي "إيداع فردي، تقوم الجماعة بتعميمه عن طريق التقليد؛ والتكوين النفسي للفرد هو العامل الحاسم في إيداع اللغة، وهذا التكوين محكوم بالظروف الخارجية التي يخضع المرء في حياته لتأثيرها، والتي تشكل شخصيته بطريقة حتمية. وحيث إن اللغة في الأساس هي التجلي الفردي لتكوين نفسي معين"[249]، فإن هذا التكوين النفسي ينكشف عند تحويل اللغة إلى كلام،

---

[248]. باتريك شارودو، دومنيك منغونو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، تونس، 2008، ص 537.

[249]. ميلكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني، مرجع سابق، ص 143.

ويحوّل المتكلم اللغة لصالحه عبر أخذ الكلمة. فتصير اللغة كلاما باعتباره مجموع أحداث فردية شخصية. ويصير "كلام الفرد وحده هو الذي يعبر عن الواقعية والعاطفية فعلى أرض الواقع الفرد هو مصدر التغيير والتبديل، ولكنه مشروط عليه ألا يتجاوز حدود الإفهام، ومن الناحية العاطفية لا يمكن لأي أحد أن يعبر عن عواطف ومشاعر الفرد الآخر، ذلك لأنه لن يكون في وصفه أمينا ولا صادقا كل الصدق."[250] ومنه فإن حظوظ الموضوعية في الكلام تبقى نسبية وقليلة جدا، نتيجة الارتباط الذاتي والنفسي البارز بين الكلام والمتكلم؛ وتداخل ما هو عاطفي وذاتي مع عملية التلفظ.

فأثناء وصف حدث معين لا يمكن لأي سارد أن يدعي كمال الصدق فيما يصف؛ نظرا لوجود فارق زمني يفصل زمن الحدث الموصوف وزمن الوصف الذي يقدمه.

وقد أخذ هذا التداخل بين الذاتية والموضوعية سرفوني إلى القول بالحضور الكلي للذاتية في اللغة، (ذاهبا على خطى كاترين كربرات أريكشيوني) واعتبر أن للموضوعية أفقا أسطوريا، فقال: "الموضوعية ليست إلا وهما، لأن الذاتية كلية الحضور في اللغة، وحتى لو صارت الفكرة مبتذلة، فيحسن التذكير بها في بداية أي دراسة تعتمد على هذين المفهومين"[251].

وهذا الوهم نفسه هو الذي خدع أولئك القراء الذي قالوا بأن روايات ألين روب، منها رواية "la jalousie"، رواية موضوعية، وأنها مدوَّنة أشياء. وسبب هذا أن المتلقي لم ينتبه إلى أن وصف هذه الأشياء تضطلع به ذات إنسانية، وتضيف ألين روب قائلة: "فبدا للقارئ أن رواياتنا تتشكل فقط من حشد من الأشياء، توصف لذاتها وباستقلال عن أي حضور إنساني، لدرجة أنه قيل عن رواياتي إنها لا إنسانية، وإنها طردت الإنسان من

---

[250]. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، مرجع سابق، ص 89- 90.

[251]. جون سرفوني، الملفوظية، مرجع سابق، ص 56.

العالم لفائدة الأشياء."[252]، وتُرجع سوء الفهم هذا من طرف قرّاء رواياتها إلى أنهم لم ينتبهوا إلى أن الأشياء المرئية والموصوفة في الرواية تم التقاطها من طرف إنسان خاص وهو السارد زوج البطلة الذي يصف العالم المحيط به كما يراه هو، وبالتالي يُشتبه في كل ما يسرده أن يكون موضوعيا ما دام يسرد لنا تحركات زوجته وكلامها بلغة زوج "تستبد به الغيرة". وبالتالي تُنفي ألين روب صفة الموضوعية عن روايتها، وتصرح بأنها لم تنو التأسيس لأدب موضوعي قط.

ومن زاوية أخرى؛ لقد عبر جيرار جنيت عن التداخل بين ما هو ذاتي بالموضوعي، من منطلق بحثه في صفاء الجنس الخطابي، حيث يُعكِّرُ هذا الصفاء ورودُ بعض ملامح الخطاب في السرد؛ مثلما ترد في الخطاب بعض من ملامح السرد، فيقول: "يجب أن نردف، فورا، بأن المعاني الجوهرية للسرد والخطاب المحددة هكذا، لا تكاد توجد أبدا بشكلها الخام في أي نص من النصوص: فهناك في كافة الأحوال تقريبا نسبة من السرد متضمنة في الخطاب، ومقدار من الخطاب في السرد، ومن هنا يأتي في الحقيقة توقف التناظر لأن كل شيء يجري كما لو أن نَمَطَي التعبير يتأثران بشكل مختلف جدا بعدوى التداخل: فاندراج عناصر سردية في صميم الخطاب لا يكفي لتحريره، والسبب هو أن هذه العناصر تظل مشدودة في الغالب إلى مرجعية المتكلم الذي يستمر حضوره ضمنيا في الخلفية، ويملك القدرة على التدخل من جديد في كل الأثناء بدون أن ينظر إلى هذه المعاودة كـ "تداخل"[253].

يطرح هذا النص غياب التقابل سرد/ خطاب، وإن ما نصادفه هو تداخل المستويين وإمساك مرجعية المتكلم بزمامهما بشكل خفي أو معلن. ورغم هذا يرى جيرار جنيت أن قيمة الصفاء في السرد أكثر تحققا منها في الخطاب، وبالتالي إمكان الحفاظ على

---

[252]- لوسيان كولدمان وأخرون، الرواية والواقع، مرجع سابق، ص 28.

[253]- رولان بارث وآخرون، طرائق تحليل السرد الأدبي، ص 80.

الموضوعية والصفاء في السرد أكثر منها في الخطاب، وهذا نص جنيت يقول فيه: "إن السرد المدمج في الخطاب يتحول إلى أحد عناصر هذا الأخير، أما الخطاب المدمج في السرد فيبقى خطابا ويشكل صنفا من الأورام، من السهل كثيرا التعرف عليها، وتعيين مكانها وبالتالي فلا صعوبة بتاتا في صيانة صفاء السرد مقارنة مع صفاء الخطاب"[254].

مفاد هذا "التناظر الهش" أن السرد المدمج في الخطاب هو أحد عناصر الخطاب، والخطاب المدمج في السرد يبقى خطابا في ذاته، ثم إن عدم كفاية الأدوات التمييزية في رسم الحدود بين هذين الجنسين التلفظيين تجعل وضعهما في صورة "تقابل" أبعد عن فهم طبيعتهما التي تتميز بالتداخل والتكامل. ولنا عودة لإشكال تداخل السرد والخطاب في المحور الخاص بالذاتية وعلاقتها بمستويات التلفظ.

4. الذات والامحاء التلفظي

يعود مفهوم الامحاء التلفظي «Effacement énonciatif» إلى الباحث راباتال، وقد أطلقه الفينومونولوجيون في الأصل على ما يسمى بـ "الذاتية غير شخصية" «Subjectivité impersonnelle» التي تُدرك العالم في تناسقه كما لو أنه يُظهر نفسه بنفسه؛ أما "الذاتية في السرديات التلفظية فهي عند الفلاسفة ذات فردية Subjectivité singulière ولا تكون إلا في نطاق ما سمي ذاتية بينية Intersubjectivité ولا وجود لذاتية للقائل أو الرائي إلا في مقابل ذاتية الآخر".[255] وهو ما أطلق عليه إميل بنفنيست بالتناظر أو التقابل بين الزوج "أنا/أنت"، ومن خلاله ميز بين الضمائر الشخصية والضمائر غير الشخصية.

[254]- رولان بارث وآخرون، طرائق تحليل السرد الأدبي، ص 81.

[255]. محمد نجيب العمامي، الذاتية في الخطاب السردي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2011، ص 8.

إن الامحاء التلفظي "خطة تسمح للمتكلم بأن يوهم بأن لا أثر له في الملفوظ وتتيح له أن يضفي مسحة من "الموضوعية" على خطابه. ولا يكون ذلك بـ "محو" أكثر علاماته جلاء (الواصلات Embrayeurs) فقط بل يكون أيضا بمحو وسم (Marquage) كل مصدر تلفّظيّ يمكن التعرّف إليه"[256]. نفهم من هذا أن الامحاء التلفظي هو صيغة تلفظية يحاول فيها المتكلم إخفاء كل البصمات ذات الإحالة إلى ذاته مثل الضمائر والإشاريات الزمانية والمكانية، ويطلق إميل بنفنيست على هذه الصيغة "التلفظ التاريخي". ويتحقق أيضا هذا الامحاء في الخطاب الروائي ـ نسبيا ـ مع أساليب أخرى مثل: "الأساليب المستخدمة لإضفاء أكبر قدر ممكن من الموضوعية على مكونات العالم الممثل كثرة المخبرات وبثُ الحياة في الموصوفات غير البشرية وذلك باستعمال التراكيب الفعلية دون الاسمية. ومنها أيضا تفويض التبئير إلى ذوات غير محددة من قبيل "الناظر" و"الرائي". ومنها أخيرا السرد بضمير الغائب أو السرد من خارج الحكاية"[257].

ومنه نجد أن الامحاء التلفظي يتم عبر ثلاث تقنيات سردية وهي:

- منح الحياة لكائنات غير بشرية؛ بمعنى آخر منحها آلة السرد لسرد الأحداث بنفسها؛ نظرا لفقدان الثقة في الذات في تحقيق الموضوعية على مستوى سرد الأحداث، لأننا عن قصد أو دونه تتدخل ذواتنا وأحاسيسنا ووجهات نظرنا وإيديولوجياتنا في السرد دون سابق إنذار.
- تفويض التبئير إلى ذوات غير محددة من قبيل الناظر والرائي.
- السرد بضمير الغائب أو السرد من خارج الحكاية.

إن المبتغى قوله، هنا، هو أن هذا الامحاء لا يتحقق إلا بصورة نسبية باعتباره ""لعبة" تؤديها الذات المتكلمة كما لو كان بمقدورها أن لا يكون لها وجهة نظر وأن تختفي

[256]. محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010، ص 37.

[257]. محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص 37.

تماما من فعل التلفظ وأن تترك الخطاب يتكلم من تلقاء نفسه."[258] فلهذا يبدو من الصعب تحقيق هذا الامحاء التلفظي، نظرا لعدم انفكاك الخطاب عن وجهة نظر قائله، الضمنية أو المعلن عنها، بالإضافة إلى التداخل الذي أشارنا إليها بين الخطاب والسرد.

5. ذاتية الخطاب عند إميل بنفنيست

1.5. التلفظية: نحو الذات المتكلمة

شهد البحث اللساني تطورات على مستويات عدة منها إعادة الاعتبار للإنسان في اللسانيات. فبعد أن جردت النظريات البنيوية اللغة من إنسانيتها وحاولت مساءلتها تركيبيا ودلاليا خارج إرادة المتكلم ووعيه، ألبست نظرية التلفظ البحث اللساني بلباس الذاتية فوجهت الاهتمام إلى ذات المتكلم في الخطاب، وهذا كله للنهوض بالإشكالات التي نواجهها بصدد تحليل الخطاب، ومن بين هذه الإشكالات صعوبة الكشف عن وجهة نظر المتكلم وذاتيته في الخطاب. وفيما يلي يقدم إميل بنفنيست الأدوات الإجرائية لهذا الكشف.

لقد أصبحت الذات المتكلمة تحتل مكانة مهمة في البحث اللساني الحديث. فـ "إذا كانت المقاربات البنيوية والتوليدية تتجاهل مسألة الذات، فإن المنظور التلفظي يجعلها في قلب اللسانيات"[259]، ويبدو ذلك في مجموعة من المساهمات من لدن رواد النظرية التلفظية حيث خصّ إميل بنفنيست " Emile Benveniste" الذاتية بمقال سماه " De la subjectivité dans le langage" في كتابه " Problèmes de linguistique générale, 1, 1966"، ومقالا أخر في الجزء الثاني من نفس الكتاب وهو مقال " Le langage et l’expérience humaine". كما أوردت كاترين كيربرات أوريشيوني

---

[258]- محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، نفسه، ص 37.38.

[259]- ماري آن بافو و جورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، مرجع سابق، ص 287.

مفهوم الذاتية في عنوان كتابها: L'énonciation de la subjectivité dans le langage, 1980".

سنبين فيما يلي أشكال تمظهر الذاتية في اللغة والمرجع وإشاريات الشخوص والزمان والمكان، والأدوات التلفظية المسؤولة عن هذا التجلي، معززين ذلك بأمثلة من العمل الروائي "الحنش" للروائي عبد الإله الحمدوشي.

2.5. تجليات الذاتية في الخطاب الروائي: نماذج تمثيلية

1.2.5. تجليات ذاتية اللغة

انطلق إميل بنفنيست في بحثه في تجليات الذاتية في الخطاب من نقطة تشبيه اللغة بالأداة، ويرى أن هذا التشبيه هو مثار شبهة لا يعكس، بدقة، كل المقومات التي تمتلكها اللغة وتتميز بها، وقال بهذا الصدد: "إن كل خصائص اللغة: طبيعتها اللامادية، اشتغالها الرمزي، انتظامها المتمفصل، كونها ذات محتوى، كل ذلك يجعل مماثلة اللغة للأداة أمر مثار للشبهة، وهي مماثلة تروم نزع خاصية اللغة عن الإنسان"[260] لأن الأداة تفيد الشيء المادي كالمعول والسهم والعجلة، وكل الأشياء التي صنعها الإنسان لخدمته، في حين أن اللغة لم يصنعها بل نمَت معه ولازمته، "ولا يوجد البتة إنسان بمعزل عن اللغة، ولا يمكن أن نشاهده يوما يخترعها [...]. إن ما نقف عليه في العالم هو إنسان متكلم يخاطب إنسانا أخر، واللغة ترشد إلى تعريف الإنسان ذاته"[261]؛ أي تكشف له عن ذاته، بعبارة أخرى تتجاوز مهمة أن نصفها بالأداة إلى كونها مكمن ذات الإنسان وفرادته. وهذا ما سيأتي إميل بنفنيست على ذكره فيما يلي.

---

[260]- صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، مرجع سابق، ص 137.

[261]- صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، نفسه، ص 136.

ومن هذا المنطلق وضع بنفنيست تصوره للذاتية في اللغة، وأقام على هذا الانتقاد فكرته القائلة "إن الإنسان ينشأ ذاتا داخل اللغة وعبرها لأن اللغة وحدها تؤسس مفهوم "أنا" «ego» في الواقع وذلك في واقع اللغة، وهو ذاته واقع الوجود (= الكون)"[262]. بمعنى أنه لم تعد اللغة أداة للتواصل فقط، بل يراها رائد لسانيات التلفظ موطن الذات المتكلمة ومؤسسة "الأنا".

ويقصد بالذاتية، في البداية، "قدرة المتكلم على فرض نفسه "ذاتا". إنها تتحدد، لا عبر الإحساس الذي ينتاب كل شخص بنفسه (هذا الإحساس ليس إلا انعكاسا، بمعنى إمكانية جعله حالة)، بل الذاتية تتحدد وحدة نفسية تتعالى عن مجموع التجارب المعيشة التي تؤلف بينها والتي تضمن محايثة الوعي"[263].

يشير بنفنيست إلى أن اللغة تعطي الإمكانية لكل متكلم بامتلاك اللسان كليا وحدد التلفظ بوصفه حدث امتلاك اللسان، وذلك بامتلاك "المتكلم للجهاز الصوري للغته ويحدد نفسه بوصفه متكلما، ويقوم في الآن نفسه بتنصيب الآخر مخاطبا له"[264]. ويقول في موضع آخر: "جدل واحد هو محور هذه الذاتية (أن) اللغة تمنح المتكلمين نفس النظام المرجعي الشخصي يمتلكه كل متكلم عبر فعل اللغة، وفي أي لحظة من استعماله، عندما يضطلع بتلفظه"[265]. ويحصل هذا التملك عند التعبير بالضمير "أنا" الذي يحدد ذاته أدق تحديد. كما نفهم من هذا أن هذا المحور الذي دار عليه الجدل كان المنطلق أيضا بالنسبة لإميل بنفنيست في تحديد مفهوم التلفظ، بقوله: "فعل توظيف اللغة عبر فعل فردي

---

[262]. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، ص 137.

[263]. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، ص 137

[264] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, p 80. 81.

[265] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, p 68.

الاستعمال"[266]، فعَبْرَ هذا الفعل يمتلك المتكلم اللغة فيصيّرها مرآة عاكسة لخصوصياته الذاتية والفردية؛ وذلك عبر فعل اللغة، أي عبر التلفظ.

2.2.5. تجليات ذاتية المرجع (أو التذويت المرجعي)

يشكل المرجع الجزء الذي لا يتجزأ من فعل التلفظ، فلا بد للمتكلم أن يحيل في الخطاب على ذاته أو على زمان أو مكان معيّنين، كما يتطلب من المخاطب المشاركة في الفعل الإحالي بموجب العقد التداولي الذي يربط كل متكلم بمتكلم مشارك Co– locuteur. لا يتم هذا الفعل الإحالي إلا انطلاقا من ذات المتكلم والمتكلم المشارك أيضا. فعلاقة الذات بالمرجع تتحدد في كون هذا الأخير هو الذي يساهم في إحداث فرادة الفعل الفردي الذي تُستعمل عبره اللغة من طرف المتكلم، إذ يتجدد الفعل الإحالي عند كل فعل فردي جديد، وهذا التجدّد يتم، طبعا، بناء على الذات المتكلمة التي تنجز فعل الإحالة والذات الأخرى المشاركة في إدراكه.

ومنه؛ فإذا علمنا أن المتلفظ – وفق تحديد أوزوالد ديكرو– هو صاحب وجهة النظر فيما يقال، فإن المرجع يصطبغ بوجهة نظره كذلك ويأخذ "صورة تنشأ وفق وجهة نظر هذا المتلفظ الذي ذكرناه إنه يريد أن يؤثر في الثاني الذي سنصطلح على نعته منجز الإحالة أو المحيل على هذا المرجع. ويترتب عن هذا أن تصبح العبارات الإحالية التي ينجز بها المتكلم إحالته من وجهة نظره، حاملة لاعتقاده. وتظهر جهة الاعتقاد المذكورة في ما يتخذه هذا المتكلم أو المدرك للأشياء المحال عليها من مواقف وأحكام أو ما يبديه من الاعتقادات تجاهها، والقصد من ذلك توجيهه أقواله وتكييفها لتناسب غاياته"[267].

---

[266]. Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, p 80.

[267]. مجموعة من الباحثين، الرواية والمرجع، مقالات محكمة، بيت الغشام للصحافة والنشر، عمان، ط1، 2017، ص 376.377.

ف "الحنش" مثلا يشكل مرجعا، استوحاه منجز الإحالة – عبد الإله الحمدوشي– من عمق الثقافة المغربية، إذ يُعْرف صنف من رجال الشرطة بهذا الاسم، ويُحتمل أن يكون تجار المخدرات والعاملين على هامش القانون هم من أطلقوا هذا "اللقب" للإحالة على وجود "حنش" يتسلل بينهم، أو كناية على قربه من محيطهم؛ باحثا عن معلومات أو أشخاص فارين من العدالة، وقد وردت في الرواية بعض الملفوظات تصف هذا المرجع نذكر منها:

"أنا قادرة على تغيير جلدي مثلك يا عميدي وأريد أن يلقبوني "بالحنشة" كما لقبوك بالحنش"[268] إذ يُعْرف "الحنش" (أو "الثعبان" بالعربية الفصحى) أنه يغيّر جلده باستمرار، لذلك ألصق هذا الاسم ببعض رجال الشرطة ونسائه، الذين يقعون في درجة "مفتش سري" لأنهم يغيّرون هيئاتهم وطريقة لباسهم ويتنكرون في أشكال مختلفة بناء على طبيعة المهمة المسلّمة لهم، وقد اتخذت المفتش فاطمة بعض هذه الوضعيات، إذ طلب منها العميد قائلا: "... أريدك بلباس فتاة لعوب مستعدة لوضع أحدهم في الشباك" [الحنش، ص 45].

وتنكرت أيضا في زي نادلة في مرقص ليلي في عين الدياب؛ ف "عندما تنكرت تبدو مختلفة وكأنها ليست هي تلك الفتاة المتزمتة والباردة جنسيا" [الحنش، ص 46] وكذلك يصير "الحنش" الطبيعي عندما يغيّر جلدته. وقد قام بهذا الدور عدد من رجال الشرطة في مهمة حماية المفتش فاطمة وفي مهمة مراقبة بيت فريد وتحركاته، (مثل الشرطي الملقب بـ "المعتوه") وفي مهمة مراقبة العصابة، لكن في نظر السارد يبقى العميد المخضرم هو "الحنش الأكبر".

[268]- عبد الإله الحمدوشي، الحنش، قصة حب بوليسية (رواية)، منشورات دار التوحيدي، الرباط، ط1، 2017، ص 32.

يصحّ القول؛ إن الحمدوشي قد استوحى هذا المرجع من صلب الواقع المغربي الذي يعد جزء منه، وهذا هو وجه ذاتية هذا المرجع، حيث اصطبغ بوجهة نظره، وعكس الصورة الذهنية التي كونها حول رجال الشرطة وخدماتهم السرية والمعلن عنها. فهذا المرجع هو مرجع ثقافي اجتماعي خاص، إذ أُخذ الدال "الحنش" في الدارجة المغربية من مدلوله في الطبيعة وأصبح يُطلق على عنصر بشري محدد، إذن يمكن أن نقسم مرجعية الحنش إلى قسمين:

- **مرجعية طبيعية:** حين تحيل الوحدة اللغوية "الحنش" على صنف من الكائنات الزاحفة.
- **مرجعية ثقافية اجتماعية:** تتمثل في إحالة هذه الوحدة على غير معناها الأصلي السابق، والدلالة على رجل أمن يشترك مع الثعبان صفات عديدة وتصرفات مختلفة نذكر منها تغيير القشرة، التسلل والمراوغة.

إن هذين المرجعين يسميان في التداوليات بالمعنى الوضعي والمعنى الاستعمالي، فالأول هو المرجعية الطبيعية للحنش، أما الثاني فيمثل المرجعية الثقافية والعُرفية للمجتمع.

ومن زاوية تلفظية؛ يحدث هذا التعالق بين وجهة نظر المتلفظ ومرجعياته بسببٍ من كون "الظروف الأولية هي التي تتحكم في كل آليات الإحالة الخاصة بعلمية التلفظ، فتخلق وضعية أكثر فرادة très singulière بدءا من الوعي بتلك الظروف[269]. ف "حضور المتكلم في تلفظه يجعل أن كل لحظة خطابية تؤسس مركزا مرجعيا/إحاليا

[269] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, p 82.

داخليا. تتجلى هذه الوضعية بواسطة لعبة أشكال خاصة وظيفتها هي وضع المتكلم في تعالق ثابت وضروري مع تلفظه"[270]، وهذا هو مربط تعلق الذاتية بالمرجع.

فالعناصر الإشارية، باعتبارها "الوحدات التي تسمح للمتكلم بالارتباط بالواقع"[271]؛ تؤسس معناها عند استعمالها، وتأخذ هذا المتكلم باعتباره ذاتا مرجعية وهي المحدِّدة لمعناها والمتحكمة فيه. والذوات المرجعية في رواية الحنش لا تحيل على ذوات واقعية بالتحديد، وإنما إلى ذوات تخييلية مستوحاة من الواقع المغربي وقريبة منه، "بناء على حتمية الانفتاح الدلالي على المرجعية الخارج نصية المؤطرة بمقولات: المرجع والذات والواقع والموقع الثقافي"[272]. وتغلب أحيانا الإحالة الواقعية على التخييلية في بعض المقاطع الروائية التي يعمد فيها الحمدوشي إلى تبئير الوضع المغربي المعيش أمنيا واجتماعيا واقتصاديا كذلك، إلى مستوى إيهام القارئ بواقعية هذه الأحداث والمتغير فيها هو أسماء الشخوص وأماكن الأحداث فقط. وهذا ما يعكس إيمان هذا الروائي بأن الخطاب الروائي هو خطاب معرفة وخطاب ممتد من الواقع إلى التخييل، موصول الوشائج بالوقائع الاجتماعية التي أنتج ويُنتج فيها.

بالتالي تتجلى وجهة نظر الروائي الحمدوشي بواسطة "الوساطة المرجعية" بين الواقعي والتخييلي، التي عمد إليها في تنظيم سروده؛ وذلك من خلال:[273]

- **الرؤية السردية** التي جعل من خلالها العالم المسرود موجها من "ذات" تبني المرجعية النصية وفق نمط معرفي ثقافي خاص؛
- **البناء النصي** الذي جعل العالم المسرود مبنيا على خلفية جمالية وفنية ترجع إلى ذاتية السارد، وتجعل منها ذاتا نصية أخرى.

---

[270] ـ Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, p 82.

[271]. مجموعة من الباحثين، الرواية والمرجع، مقالات محكمة، مرجع سابق، ص 298.

[272]. عبد الرحمن التمارة، مرجعيات بناء النص الروائي، مرجع سابق، ص 87.

[273]. ينظر: عبد الرحمن التمارة، مرجعيات بناء النص الروائي، نفسه، ص 85.

ويؤكد هذان العنصران، حتمية ما أطلق عليه عبد الرحمن التمارة "التذويت المرجعي" «La subjectivisation référentielle»، ومنه خلص إلى القول التالي:

"تتلون جميع مكونات العالم المسرود، إذا، بذاتية السارد متضمنة ذوات نصية أخرى يمكن تأويل دلالتها في ضوء علاقاتها بعلامات خارج نصية"[274]. وهذا ما حاولنا الكشف عنه، من خلال نظرنا إلى مرجعية "الحنش" في علاقاتها بالعلامات خارج نصية التي تمثلها في الوسط الاجتماعي المغربي، فقد قمنا بتأويها في ضوء من تحيل عليه في الواقع الاجتماعي.

3.2.5. تجليات ذاتية الضمائر

تعتبر الضمائر هي نقاط الارتكاز الأولى التي تمثل الذاتية في اللغة وتَتْبعُهَا أسماء الإشارة والموصولات، التي تشاطرها هذه الخاصية حيث "كل إنسان يوضع في فرديته " son individualité" بما هو "أنا" بالنسبة لـ "أنت" و "هو". هذا السلوك يبرز "بالغريزة"، يبدو لنا في الواقع أنه يعكس بنية التقابلات اللسانية الملازمة للخطاب. الذات المتكلمة تحيل دائما عبر نفس المؤشر "أنا" « je » إلى ذاتها التي تتكلم"[275].

نشير في هذا الصدد، إلى أن إميل بنفنيست قد ركز على الضمائر الشخصية فقط؛ واعتبرها هي نقطة لارتكاز الأولى للذاتية وأقصى ضمير الشخص الثالث "هو" من هذه الوظيفة، مما أثار مجموعة من ردود أفعال نقدية من لدن بعض الباحثين التداوليين، والتلفظيين، سنناقشها في حين من هذا البحث.

إن الوعي بالذات في الخطاب، ووسم هذا الخطاب بصبغة الذاتية، لا يتم إلا بواسطة نوع من التقابل بين المتخاطبين، (وهو تقابل أقرب بكثير إلى ثنائية "الأنا والأخر" أو الذات والغير في الأبحاث الفلسفية) أي بتوظيف التقابلات اللسانية المتمثلة في الزوج

---

[274]. عبد الرحمن التمارة، مرجعيات بناء النص الروائي، نفسه، ص 87.88.

[275]. Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, p 67

"أنا/أنت"، وهي تقابلات ملازمة للخطاب عند إميل بنفنيست، وخصوصا في المستوى التلفظي الذي سماه بـ "التلفظ الخطابي". فهي تقابلات لسانية ملازمة للخطاب، تبرز فيها الذات المتكلمة عبر الإفصاح عن نفسها بالضمير "أنا" وتحدد الأخر خارج الذات بالضمير "أنت".

نسجل، هنا، أن إميل بنفنيست انطلق في بحث ظاهرة الذاتية في اللغة من أبحاث الفلسفة الوجودية، حيث يمكن أن نلاحظ بعض آثارها في فكرة بنفنيست الخاصة بالتقابل بين "أنا/أنت" في الخطاب. فالذاتية التي تؤمن بها الوجودية لا تتحدد إلا بالنقيض وهو الآخر المختلف عنها، أي "ليست ذاتية فردية بالضرورة، لأن إدراك وجود الذات ينطوي في الوقت نفسه على إدراك وجود الغير، فالذي يكشف عن وجود نفسه، إنما يكشف في الوقت نفسه عن وجود غيره، بل إن وجود الغير شرط لوجوده الذاتي، وإنه ليس شيئا إلا إذا اعترف له الآخرون بأنه شيء. فالغير ضروري لوجودي، كما أنه ضروري للمعرفة التي لدي عن نفسي"[276].

وبهذا فـ "الوعي بالذات لا يكون إلا إذا تم التحقق منه بالنقيض، فأنا لا أستعمل الضمير "أنا" إلا عندما أتوجه إلى شخص ما، يكون "أنت" في خطابي"[277]؛ لأن كل "أنا" تحدد ذاتا خاصة بالمتلفظ، وليس هناك "أنا" يشمل أكثر من ذات (أو أنوات) "بالمعنى الذي نجده في مفهوم "شجرة" الذي تلتقي حوله جميع الاستعمالات الفردية لكلمة الشجرة. "أنا" لا يعني كيان معجمي."[278] أي أنه لا يحيل دائما على فرد ولا على مفهوم معين، وعند كل استعمال لا بد أن يفرض وضعا تلفظيا جديدا.

---

[276]. عبد الرحمن بدوي، دراسات في الفلسفة الوجودية، مرجع سابق، ص 264.

[277]. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية ص 138.

[278]. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، نفسه، ص 140.

في هذا السياق أورد بنفنيست مفهوم " La polarité" الذي ترجمه صابر الحباشة بـ "التقاطب"؛ أي أن الضمير "أنا" يشكل قطبا يقابله قطب آخر وهو الضمير "أنت". كما جاء في "القاموس الموسوعي للتداولية" مترجَما "بالتقابل" أي أن ضمائر الشخص تجتمع في نظام تقابلي: الضمير "أنا" يقابل الضمير "أنت"، ويسمى بتعالق الحضور، والضميران "أنا" و"أنت" يقابلان الضمير الغائب "هو" ، وهو تعالق الغيبة[279].

إن ما يؤكد عليه إميل بنفنيست، في هذا الصدد، هو تعلّق الضمائر بالوضعية التلفظية التي أنتجت فيها، ليبرهن على تداولية هذه العناصر اللغوية كالضمائر والإشاريات الزمانية والمكانية والموصولات إلخ. وليبيّن أيضا كيف تتبدى لنا ذات المتلفظ والمتلفظ المشارك أثناء تلفظهما بهذه العناصر.

غير أنه إذا عمقنا البحث أكثر، يمكننا أن نجد أن هذا التجلي الذاتي إنما هو وارد في الأصل الوضعي لهذه العناصر قبل إقحامها في الخطاب، حيث كشفت الدراسات النحوية العربية القديمة عن هذا الجانب، خصوصا الفكرة التي نحن بصدد مناقشتها وهي ارتباط كل "أنا" بذات خاصة بها، وبلحظة إنتاجها، وقد عبر الزمخشري (ت 643هـ) عن هذا، فحدد خاصية الذاتية في ضمير المتكلم التي تظهر في تميزه عن ضمير المخاطب والغائب، وأشار إلى ارتباط معناها بلحظة الخطاب وذلك بإدراكه بالحاسة، ويمكن أن نبين كلامه هذا انطلاقا من حالتين:

- **حالة التثنية:** فالضمير "أنا" لا يقبل التثنية "لأن تثنية ضمير المتكلم، وجمعه ليس على منهج تثنية الأسماء الظاهرة وجمعها [...]، لأن المتكلم لا يشاركه متكلم آخر في خطاب واحد"[280].

---

[279]. ينظر: جاك موشلار وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، مرجع سابق، ص 358.

[280]. ابن يعيش (موفق الدين أبي البقاء يعيش بن علي الموصلي)، (م643)، شرح المفصل للزمخشري، مرجع سابق، ص 295.

- **حالة الجمع:** فهي حالة متكلم يتكلم عن نفسه وعن غيره، و"لم يُرَد ضَمُّ متكلم إلى متكلم كما كان التثنيةُ ضم اسم إلى اسم. وإنما المتكلمُ يتكلم عن نفسه وغيره، ولم يكن المتكلم مما يُلبِس بغيره لإدراكه بالحاسّة، فلم يحتج إلى الفصل بين التثنية والجمع، والتأنيث والتذكير"[281].

بناء على ما سبق؛ فاللغة ليست أداة للتواصل والتبليغ فقط، وإنما تضطلع بمهام أخرى وتتميز بها، ومن بين هذه المهام أنها تعطينا إمكانية إبراز ذواتنا وشحن الخطاب بتجاربنا الشخصية وتضمينه حالتنا النفسية الخاصة. وتتحقق هذه الإمكانية بتوظيف ضمائر الأشخاص وأسماء الإشارة والموصولات في خطابنا، وهي سامات "marques" تسجل خصوصيات الذات المتكلمة استنادا إلى الوضعية التلفظية التي تمتح منها معناها ومكانتها في الملفوظ.

كما تتجلى ذاتية مالك الخطاب في خطابه، أيضا، في الوضع اللغوي الذي وضعت عليه العناصر الأكثر تمثيلا للذاتية وهي الضمائر الشخصية. سنكشف فيما يلي أوجه هذا التجلي في الخطاب الروائي، من خلال رواية الحنش لعبد الإله الحمدوشي نموذجا.

لقد وظف الحمدوشي الضمائر الشخصية في رواية "الحنش" وفق نموذجين إحاليين ذاتيين، وهما:

1. **<u>الضمائر الشخصية المستعملة من طرف شخوص خطابه الروائي</u>**، التي تجسدت في حوارات لالة خيرة وفريد، وهذا الأخير ومستعملي المدار الذي يشتغل به، والحوارات التي دارت بين المفتش فاطمة والعميد الحنش، وغير ذلك كثير، لنورد بعض النماذج للتمثيل وليس الحصر:

"قال السائق بنبرة رجاء:

---

[281]. ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، الجزء الثاني، ص 306.

- أنا في طريقي إلى حفل عرس؟
- من صاحب هذا العرش وأين سيقام؟
- العرس في درب الشرفاء والمتزوج هو ولد الحاج إدريس موظف سام في الحكومة؟
- أنا هو الحكومة،...." [الحنش، ص 21]

لقد أفصح السائق عن ذاته في هذا المقطع باستعمال الضمير الشخصي "أنا" والذي يقود مباشرة إلى اعتبار فريد هو المتلفظ. كما أفصح فريد عن ذاته كذلك بقوله "أنا هو الحكومة"، فـ "أنا" الأولى ليس هي "الأنا" الثانية؛ فالأولى تحيل على السائق في هذه الوضعية التلفظية الحوارية، أما الثانية فهي "أنا" خاصة بفريد، والتي تحيل على ذاته بصورة اعتزاز وسيطرة بائنة.

ودار بين المفتش فاطمة والعميد الحوار التالي:

- "أنا قادرة على تغيير جلدي مثلك يا عميدي وأريد أن يلقبونني "الحنشة" كما لقبوك بالحنش"...

- عودي إلى مكتبك، سأبعث بالضابط حمودة ليطلعك على التفاصيل." [الحنش، ص 31- 32]

يبدو أن فاطمة قد بصمت خطابها بذاتيتها الخاصة باستعمال الضمير "أنا" ووجهت خطابها لعميدها، الذي أعلن عن ذاته أيضا باستعمال الضمير المقدر "(أنا) سأبعث"، ومردّ ذلك إلى أن "اللغة تمنح المتكلمين نفس النظام المرجعي الشخصي يمتلكه كل متكلم عبر فعل اللغة، وفي أي لحظة من استعماله، عندما يضطلع بتلفظه"[282]. وهذا ما يبين أن الضمائر الشخصية تحيل على ذات جديدة كلما استعملت في وضعية تلفظية جديدة؛ "فـ "أنا" ليس له دلالة في ذاته ولكن ينسب إلى المتحدث، ويجسد هذا الضمير وظيفة

[282] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, p 68.

الخطاب الخاصة"[283]، فيأخذ معنى جديدا كلما تم التلفظ به مرة ثانية، وبالتالي يعكس ذاتا جديدة ويجلِّيها، مثلما تجلت الحالة النفسية والمهنية لفاطمة أمام العميد، إذ كشف أسلوب استعمالها للضمائر عن نوع من التأدب واللباقة في الحوار والتودد لنيل المطلب الذي تخوض الحوار من أجله، كما يكشف لنا هذا الأسلوب عن احترام فاطمة للمسافة الفاصلة بينها وبين العميد من حيث السلم المهني، ويفصح لنا أيضا عن الاحترام الذي يبديه لها العميد، وتبادله –بدورها– نفس الاحترام ويبدو أنها لم تسجل عليه أي شكل من أشكال التسلط أو حالة استبزاز أو تحرش.

2. <u>الضمائر الشخصية المحيلة على السارد:</u> لم يقصر استعمال الضمائر الشخصية على الكائنات الروائية؛ وإنما استُعملت، أيضا، من طرف السارد، وطرفه الآخر في العملية التواصلية هو المتلفظ له/ القارئ، إذ استعمل السارد بعضا من تلك الضمائر بصيغة خلقت نوعا من التواصل بينه وبين القارئ، نذكر منها الأمثال التالية:

1. "في الوقت القريب منا..." [الحنش، ص 34]
2. "إذ بإمكانك التجول إلى بزوغ الفجر في الشارع دون أن تتعرض للأذى؛" [الحنش، ص 34]
3. "في الأخير لابد من التوقف عند نظرته البوليسية المستفزة التي تجبرك على الارتعاش وتجعل بصرك يفر إلى أبعد مدى خوفا من التهم التي ستنزل عليك". [الحنش، ص 38].

وظف السارد في الملفوظ الأول نون الجماعة لتمثيل ذاته وذوات أخرى متلقية، ولإشراكها في وجهة نظره تلك. أما الملفوظ الثاني فقد استعمل فيه "الكاف" الدالة على المخاطب، وياء المضارعة الدالة عليه في الفعل "تتعرض"، كما اتبع نفس المستوى التلفظي السردي في المقطع الثالث.

[283]. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، مرجع سابق، ص 172.

نستنتج مما سبق أن الذاتية تظهر في هذا النموذج الروائي عبر استعمال الضمائر الشخصية المتصلة والمنفصلة، حيث تميَّزت الذاتية في هذه الملفوظات السابقة بتجليها في مستويين سرديين:

- مستوى التلفظ السردي الذي تضطلع به الكائنات النصية في حواراتها الداخلية؛
- ومستوى التلفظ السردي الذي يضطلع به السارد.

نشير إلى أن هذا التجلي الخاص بذاتية السارد يعدّ من الخصائص المميزة للخطاب الروائي المعاصر؛ الذي أصبح يسمى عند الناقد والروائي محمد برادة بعملية "تذويت الكتابة"، ويقول عنها "هناك خاصية عامة تسم النصوص الروائية "الجديدة" وهي ما نطلق عليه تذويت الكتابة، أي حرص الروائي على إضفاء سمات ذاتية على كتابته وذلك من خلال ربط النص بالحياة والتجربة الشخصيتين، وجعل صوت الذات الكاتبة حاضرا بين الأصوات الروائية لتمييز محتوى النص عن الخطابات الأخرى التي تعطي الأسبقية للقيم والأفكار الغيرية. والحرص على تذويت الكتابة يقترن بتوفير رؤية للعالم تحمل بصمات الذات الكاتبة"[284].

بناء على هذا النص؛ يمكن القول إن الروائي عبد الإله الحمدوشي تمكن من تحقيق بعض خصائص الرواية الجديدة في عمله الروائي؛ وهي خاصية تذويت الكتابة عبر فتح حوارات غير مباشرة مع القارئ وتوظيف الضمائر الشخصية للمتكلم والمخاطب، بالإضافة إلى خاصية التذويت المرجعي التي سبق تناولها.

4.2.5. الذاتية والزمن

تعطي اللغة إمكانية وسم الخطاب بذات المتكلم، بواسطة الضمائر كما سبقت الإشارة، وعبر الإشاريات الزمانية أيضا. ويرى بنفنيست أن المعطى الذاتي في الخطاب

[284]- محمد برادة، الرواية العربية الجديدة ورهان التجديد، دار الصدى، دبي، ط1، 2011، ص 67.

قد نكشف عنه من خلال زمن الخطاب، فقال: "وضمن الأشكال اللسانية الكاشفة للتجربة الذاتية ليس هناك أفضل من تلك الأشكال التي تعبر عن الزمن [....] نود أن نبين أن مصطلح (الزمن) يحتمل تمثيلات مختلفة هي بقدر طرق وضع ترابط ونودّ تبيان وبالخصوص أن اللغة كوّنت مفهوما خاصا للزمن يختلف عن المفهوم الذي قدمه الفكر"[285].

وتتحدد علاقة الزمن بالإنسان بناء على:

1. **شكل تنظيم الفرد للزمن:** وهو تنظيم ينبني على حالتنا النفسية وحسب انفعالاتنا، فيصبح (بناء على هذه العلاقة) زمنا "له فترة غير ثابتة بالتحديد يقدرها كل فرد حسب انفعالاته وحسب تواتر حياته الداخلية"[286]، حيث تأخذ علاقتنا بالزمن علاقة زمنية نفسية، فهذا ما يسمى "الزمن الفيزيائي" وملازمه النفسي. وقد ورد هذا الصنف من الزمن الذاتي في قول السارد: "قبل ثلاثة أشهر أطلق مفتش النار على الحنش في مكتبه فيما صار يعرف لاحقا برواية "الدم اليابس" من الناحية الجسدية كان الحنش قد مات وانتهى، مكث في الغيبوبة منقطعا عن الدنيا ثلاثة أيام، لم يعد يحس بالألم ولا بالمتعة ولم يكن يدري هل هو ميت أو حي." [الحنش، ص 40].

فالأزمنة الواردة في الملفوظ هي أزمنة موضوعية بالنظر إلى السارد، أما بالنسبة للعميد الحنش فهي أزمنة ذاتية نفسية؛ يبدو فيها كل يوم من الأيام الثلاثة التي قضاها في غيبوبته، أطول من ساعاته الحقيقية، وتبدو أطول من ذلك بالنسبة للذين ينتظرون قيامه من تلك الغيبوبة.

---

[285]. إميل بنفنيست، اللغة والتجربة الإنسانية، ترجمة ذهبية حمو الحاج، مرجع سابق، صص 155 – 167.

[286]. إميل بنفنيست، اللغة والتجربة الإنسانية، مرجع سابق نفسه.

2. **طريقة إدراكنا الخاصة لهذا الزمن:** حيث ندرك الزمن الكرونولوجي، الذي هو زمن الأحداث، باعتباره زمنا يشمل حياتنا بوصفها استمرارا للأحداث المسرودة، "إنه زمننا المعاش ينقضي دون نهاية ولا رجعة"[287] وتنعكس ذواتنا فيه انطلاقا من طريقة تنظيمنا له في الخطاب، حيث يمكن أن نلِمّ بالأحدث المحققة في هذا الزمن؛ وأن ننتقل بها من الماضي إلى الحاضر أو العكس، وهذا التغير الذي نُحدثه في الزمن لا بد أن ينبني على وجهة نظرنا الخاصة. لنتأمل في المثال التالي: "في ذلك الوقت القريب منا كانت كذلك مخافر البوليس (باستثناء مكاتب الرؤساء) كئيبة ومهيضة حتى بالنسبة للعاملين بها...." [الحنش، ص 34].

فالفترة التي يجسدها هذا الملفوظ تعد جزءا من حياة عاشها العميد الحنش، ذلك أنه ينتمي إلى صنف رجال الشرطة المخضرمين الذين عاشوا فترة النظام القديم ومرحلة "النظام الجديد". معنى هذا أن الحنش والسارد معا يدركان هذه الفترة من الزمن كجزء من حياتهما السابقة، ومدتها تزيد عن عشرين سنة، كما جاء في الخطاب الاسترجاعي الخاص بماضي الحنش، فـ "على مدى عشرين سنة الماضية عمل في كل الاختصاصات وانتقل إلى أكثر من مدينة وفي طنجة لما كلف بترأس الحملة على مهربي الحشيش راكم ثروته الكبرى وتحول إلى بطل" [الحنش، ص 25]. فالحنش يرى في زمن هذا الملفوظ أزهى فترات العمل التي مر بها، في حين يراها المعذبون سنوات من الجحيم. فالحالة النفسية للمتكلم المدرك للزمن هي التي تتحكم في صيغة هذا الإدراك، وفي شكل تنظيمه. أما الروائي عبد الإله الحمدوشي فهو مثل "أي شخص منا يمكنه الإلمام بالأحداث المحققة أمامه، والانتقال بها في اتجاهين من الماضي نحو الحاضر، ومن الحاضر نحو الماضي"[288]، وهذا ما فعله الحمدوشي فطبع هذا الخطب السردي بطابع ذاتي مضمر حينا وصريح أحيانا أخرى.

---

[287]. إميل بنفنيست، اللغة والتجربة الإنسانية، مرجع سابق، ص 155-167.

[288]. إميل بنفنيست، اللغة والتجربة الإنسانية، ترجمة ذهبية حمو، مرجع سابق.

أما ما يسميه بنفنيست بالزمن التاريخي بوصفه سلسلة من الأحداث فهو يسير في اتجاه واحد لا يمكننا التحكم فيه، مثله "مثل الزمن الفيزيائي يشمل وجهة نظر مزدوجة موضوعية وذاتية"[289]. فقد لاحظ بنفنيست أن التجارب الإنسانية حاولت أن تضفي على هذا الزمن صفة "الموضوعية" فابتكرت تقسيما زمنيا انطلاقا من تكرار الظواهر الطبيعية مثل تعاقب الليل والنهار، ومسار الشمس، وأشكال القمر، وتعاقب الفصول، وحالات المد والجزر...؛ أي أننا أقمنا هذا التقسيم بناء على معايير الطبيعة، وليس انطلاقا من ذواتنا أو حالاتنا النفسية.

ومن خلال ما سبق؛ يسجل إميل بنفنيست أن "الزمن اللساني ذو إحالة ذاتية. وفي كلمة أخيرة، فإن الزمنية البشرية بجهازها اللساني كاملا، تكشف الذاتية الكامنة في ممارسة اللغة"[290].

لقد استعمل عبد الإله الحمدوشي صنفي الزمن معا:

- **الزمن الموضوعي:** نورد مثلا القول التالي: "لم يكن الحنش أفضل حال عندما عرضت عليه القضية التي يشتغل عليها حاليا." [الحنش، ص 31]. ورد في هذا الملفوظ الزمن الاسترجاعي الذي يظهر في قوله "لم يكن"، وزمن السرد المتمثل في الوحدة اللغوية "حاليا" فهي لا تدل على حال السارد وإنما تعبِّر عن زمن له علاقة بالحدث المسرود.

كما عمد عبد الإله الحمدوشي إلى استعمال "الآن" حتى في السرد الموضوعي، والقصد منه أنها تتعلق بسياق الأحداث المسرودة وليس بالوضعية التلفظية للسارد، أي أنها معزولة عن الذات الساردة، ويتجلى ذلك في قوله على سبيل المثال لا الحصر: ""شعرتْ أنها **الآن** داخل عملية معقدة وتنسج بطواعية خيوط مؤامرة لا تعرف إلى أين

---

[289]. إميل بنفنيست، اللغة والتجربة الإنسانية، نفسه.

[290]. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، مرجع سابق، ص 141-142.

تقودها، لقد نجحت لحد **الآن** في جعل العصابة تعتقد أن البوليسي المزيف هو بوليسي حقيقي، وها هي العصابة تتودد إليه." [الحنش، ص 78].

ف "الآن" هي آنية الحدث وليس آنية زمن السرد، أخذت معناها من السياق النصي وهو سياق الأحداث. وقد سجلنا تردد هذه الملاحظة في مناسبات عديدة من الرواية.

- **الزمن الذاتي:** المتمثل في الإشاريات الزمانية التي يتلفظ بها شخوص الرواية، فهي إشاريات زمانية تعكس ذاتيتهم في ملفوظاتهم، مثال: "ضغط فريد على زر في هاتفه لكي يرن، تطلع إلى الشاشة وشرع في محادثة نفسه:

– احترامي السيد الكومسير، نعم، نعم برقية مفهومة، حالا سيدي سأكون هناك بعد ربع ساعة" [الحنش، ص 61].

إن زمن الحاضر في هذا المقطع هو حاضر الذات المتكلمة "فريد" وهو الزمن المرجعي للماضي والمستقبل، المتمثل في الملفوظ "سأكون هناك بعد ربع ساعة"، "فالحاضر هو تلك النقطة من الزمن التي يتمحور فيها الخطاب في شخص المتكلم، وإدراك الماضي والمستقبل يتوقف على الحاضر، إذ إن الماضي هو الزمن السابق لعملية التلفظ، والمستقبل هو الزمن البعيد لعملية تلفظ المتكلم بخطابه"[291].

وقد سجلنا حضور هذا الصنف الزمني، أيضا، على لسان السارد وذلك في بعض الحالات، مثل قوله: "... ذلك أن أساليب الإرهابيين **مؤخرا** صارت نوعية ولا تسلك الطرق الاعتيادية. لذا تجندت كل الفرق ومن كل الاختصاصات لمراقبة هذه العصابة" [الحنش، ص 47].

يكشف استعمال هذا الصنف من الوحدات الدالة على الزمن عن ارتباط هذا السرد بوجهة نظر السارد مما يرجِّح فكرة معايشته لأحداث هذه الرواية عموما، حيث تدَخَّل في

[291]- مجموعة من الباحثين، الرواية المرجع، مقالات محكمة، مرجع سابق، ص 297.

أكثر من مناسبة في تنظيم الزمن السردي بكل أنواعه، بشكل مضمر كما في الزمن الموضوعي، أو بشكل صريح كما رأينا في المقطع الأخير.

نسجل، إذن أن عملية تذويت الكتابة انعكست، أيضا، على مستوى استعمال الأزمنة في الخطاب الروائي عند عبد الإله الحمدوشي، وعلى مستوى انتظامها في الخطاب.

5.2.5. تجليات الذاتية في المكان

تتقاسم الإشاريات المكانية والشخصية نفس الدور في الكشف عن ذاتية المتكلم، حيث "إن أسماء الإشارة تنظم المكان انطلاقا من نقطة مركزية هي (الذات) (ego) وبالنظر إلى مختلف الأصناف، فإن الشيء بعيد أو قريب من أنا أو من أنت وهو بذلك موجّه (إلى الخلف أو إلى الأمام، إلى الأعلى أو الأسفل) مرئي غير مرئي معروف غير معروف... إلخ."[292]

معنى هذا أن تنظيم المكان في الخطاب يتخذ، أحيانا، الذات المتكلمة محورا لتحديد فضاء الخطاب، فتصبح هذه الذات هي معيار البعد والقرب وهي مركز تحديد "الأمام" و"الخلف" و"السفول" و"العلو"....

مثال: "انزل من الشاحنة وخذ الديك وكبله مع تلك الشجرة هناك" [الحنش، ص 22].

يعود هذا الملفوظ إلى الشرطي فريد الذي يوجد لحظة حديثه مع سائق "الهوندا" – المحمَّلة بالدجاج وديك رومي واحد– في موضعه بالمدار الطرقي. وانطلاقا من إشاريات المكان التي وظفها فريد يتبين أنه في مكان يبعد عن الشجرة، لذلك عبَّر عن ذلك بقوله "تلك الشجرة هناك"، فوضعية فريد لحظة التلفظ هي التي شكلت معنى هذه الإشاريات، فلو كان فريد قرب الشجرة لاستعمل "هنا" بدل "هناك" و"تلك"، مثلما استعمل اسم الإشارة

[292]- إميل بنفنيست، اللغة والتجربة الإنسانية، مرجع سابق نفسه.

"هذه" للإحالة على الشاحنة لما قال: "هل هذه شاحنة أو مزرعة للدجاج؟" لأنها توجد قربه. وبالتالي؛ "فوضعية المتكلم أثناء الكلام هي بمثابة النقاط التوجيهية الأربع التي تدل على البعد أو القرب أو الأمام أو الوراء أو الفوق أو التحت"[293].

فهذا الارتباط بين الذات المتكلمة ووضعية استعمال إشاريات المكان هو مكمَن التجلي الذاتي للملفوظات التي ترد فيها، إذ تنتظم هذه الإشاريات بناء على وضعية المتكلم المكانية وبالتالي يوزعها انطلاقا من وجهة نظره الخاصة وموضعه الذاتي ووضعيته الجسدية. لذلك لا ترد في السرد التاريخي الذي تُستبعد فيه ذاتية السارد أو المؤرخ.

لنتأمل مقطعا أخر، وهو حوار دار عبر مكالمة هاتفية بين فاطمة والعميد الملقب بـ"الحنش":

"إن لم تكوني هنا في مكتبي بعد نصف ساعة سأبعث من يطرق عليك الباب ويحضرك بالقوة..." [، الحنش، ص 45. ينظر كذلك: ص 59، ص 61، ص 63، ص 72].

تكشف الإشاريات المكانية في هذا المقطع عن مكان وجود العميد (وهو المكتب)، كما تبين أن المفتش فاطمة لازالت في بيتها، ولم تلتحق بعد بمقر العمل، فاستعمال "هنا" وياء المتكلم "مكتبي" تعبّر عن حضور ذاتية المتكلم (العميد) وتجسد عناصر وضعيته التلفظية في الملفوظ وهو يهاتف فاطمة.

غير بعيد عن هذا؛ لجأ عبد الإله الحمدوشي إلى استعمال الإشاريات المكانية حتى في بعض السرود التي تبدو من الوهلة الأولى أنها "موضوعية" حيث لم يسجِّل عناصر الوضعية التلفظية في ملفوظات تلك السرود كالضمائر الشخصية والمتخاطبين المباشرين

[293]. مجموعة من الباحثين، الرواية والمرجع، مقالات محكمة، مرجع سابق، ص 309.

وإشاريات الزمان والمكان الذاتية، وإنما استعمل بعض إشاريات المكان الذاتية ولكن ليس بمعناها المعتاد، وهو التعبير عن الشخص، بل بمعنى غيره؛ وبالمثال ينجلي الإشكال:

"كان أصحاب مدارس السياقة يستغلون ساحة واسعة قرب ملعب الكرة لتدريب المقبلين على امتحان رخصة السياقة، خصوصا الذين قرب موعد تقدمهم للامتحان. هنا في هذه الساحة يمكن للمتدرب أن يسوق لوحده دون أن يرافقه معلمه ويسمح له القيام بجولات طويلة مستعملا السرعة الثالثة وحتى الرابعة" [الحنش، ص 65].

فوجود إشاريات المكان القريب "هنا" تجعلنا نصنفه مباشرة ضمن التلفظ الخطابي، من منظور إميل بنفنيست، في حين أن وجودها هذا يَحمل معناه من السياق النصي وليس بالنظر إلى المتلفظ بها، إذا أخذنا هذا الأخير بالاعتبار نقول بأن السارد يوجد في تلك الساحة لحظة كتابته هذا النص، لأنه مَوْضَعَ ذاته هناك بقوله "هنا في هذه الساحة"، للدلالة على "اختراق المرجعية النصية للرواية بعلامات دالة على ذات متخيلة لها امتدادات اجتماعية ونفسية ومعرفية، كما تعبر عنه مكونات السرد التقنية والخطابية واللغوية"[294]. بمعنى أن السارد حاول أن يوهمنا بأن له مع تلك الساحة امتدادا ذاتيا ومعرفيا واجتماعيا، وقد أشار إليه باستعمال تقنية خطابية متمثلة في توظيف الوحدات المكانية الذاتية الدالة على المكان القريب مثل "هنا". أما إذا نظرنا إليها من زاوية نصية، فإن "هنا" أقرب إلى أن يكون لوجودها في هذا الملفوظ وظيفة ربْط لغوي وظفها السارد لتحقيق تماسك النص وانسجامه، أو وظيفة توكيدية للتأكيد على أن "الساحة" هو المكان المحدد بدقة لإجراء تدريبات السياقة.

ثم إذا أمعنا النظر أكثر في صيغة استعمال هذه الوحدة اللغوية في هذه الرواية، فيمكن القول إنها استُعملت بمعنى "دارج" وليس بمعناها المعيار، ففي محادثاتنا اليومية نعمد إلى توظيف "هنا" لغير معناها القريب، ونطلقها على المكان البعيد كأنه قريب منا؛

[294]. عبد الرحمن التمارة، مرجعيات بناء النص الروائي، مرجع سابق، ص 85.86.

وقد نطلقها على غير المكان كأن تدل على مكان مجرد غير واقعي أو حدث مؤثر، حال سرد قصة معينة، أو موضع سردي معين.... إن ما يعزز هذا الطرح هو قرب أحداث رواية الحمدوشي من الأحداث اليومية الواقعية. ثم، نشير إلى أننا لامسنا ما يقرب التعبير العامي في بعض الملفوظات؛ مثل:

"نزع الكاسكيت عن رأسه لتتمكن من التعرف عليه بدونها ثم أعادها إلى رأسه بطريقة مستخفة، وقال:

- وإذا أردت رؤيتك خارج أوقات العمل، أين ألقاك؟

أجابته وكأن هذا ما كانت تنتظره:

- مرحبا بك في مرقص الشرق عين الدياب، أنا أعمل هناك بعد منتصف الليل، تعال وكل شيء على حسابي" [الحنش، صص 58 – 59].

فأغلب الوحدات اللغوية في هذا المقطع توحي إلى "تفصيح" مباشر لنموذج محادثة يومية واقعية، ناهيك عن استعمال ملفوظات عامية، مثل "الكاسكيت" و"الله يخرج سربيسك على خير" [الحنش، ص 15].

وما هذا الذي كشفنا عنه إلا صنيع الرواية الحديثة التي أصبحت تدنو من اليومي وتعري حقائقه وتقدم مضامينه وتفيد القارئ ببعض من المعارف حوله، ولكن من وجهة نظر ذاتية، وإيديولوجية خاصة معلنة، قليلا ما تَخفت، فنكشف عنها بواسطة الوحدات اللغوية التي نحن بصدد تحليلها، وفق منهج مضبوط يأخذ بعين الاعتبار مستويات استعمال اللغة ومستوى الحياد فيه، وهو المنهج التلفظي الذي راكم، في فترة وجيزة، مجموعة من المكتسبات النظرية والمنهجية، أشاد بها اللسانيون ومحللو الخطاب، والسرديون وسيميائيو الهوى، وغيرهم كثير.

نخلص من خلال ما سبق، إلى أن الذات المتكلمة تشكِّل المَوْضِعَ المرجعي لمكان فعل التلفظ، وحولها تحوم كل الوحدات اللغوية الدالة على المكان، ومنها تمتح معناها المتجدّد؛ وبالتالي تنطلي بحيّلها الشخصية وبإديولوجياتها الذاتية.

نسجل أيضا أن الحمدوشي تدخّل باعتباره "ذاتا نصية" في عملية سرد الأحداث بصورة مباشرة عبر استعمال العناصر الإشارية المكانية الشخصية، وعبر توجيه الخطاب للقارئ. وكذلك بواسطة توظيف نفس الإشاريات داخل الحوارات التي أقامها بين شخوص الرواية.

انطلاقا مما سبق؛ يمكن أن نميز في أنواع الملفوظات بين ملفوظ ذاتي وملفوظ غير ذاتي أي "موضوعي". غير أن السؤال الذي يطرح نفسه، هو: ما نسبة درجة الحياد التي يمكن تحقيقها في الملفوظ الموضوعي؟. وهذا ما سنجيب عليه في ما يلي.

3.5. الملفوظ الذاتي والملفوظ غير الذاتي:

لا بد أن نشير، بداية، إلى أن ثنائية "الذاتية والموضوعية" قد استبدلت بثنائية "الداخل والخارج". فإذا ارتبطت هذه الثنائية بالفكر الماركسي، في صيغته السياسية والاقتصادية، الذي "فرض ايديولوجية جديدة على الواقع الثقافي للقرن العشرين. فإن ثنائية الموضوع والذات نشأت فلسفية واستمرت فلسفية الطابع حتى اليوم. وهذه الثنائية على وجه الخصوص تحدد ردود الفعل التي أثارتها البنيوية في الأمزجة المختلفة، بل إنها بالفعل قررت طريقة استقبالها في تلك الأمزجة الثقافية"[295]، وسنكشف فيما يلي تمظهرات هذه الثنائية في أبحاث لسانيات التلفظ "التي تُوقع الذات داخل خطابها فتدرس هذا الأخير

[295]. عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، ع 232، أبريل 1998، ص 157.

في علاقة مع منتجه (المخاطِب)، فالتلفظ معناه الحركة، ودراسة التأدية الكلامية تعني دراسة الحدث الذي تتأكد فيه ذات الفرد، وهو عكس ما كان يراه سوسور"[296].

يمكن أن نميز بين الملفوظ الذاتي والملفوظ غير الذاتي أو "الموضوعي" انطلاقا من التقابل الذي اقترحه إميل بنفنيست بين الضمائر التي يصرف معها الفعل. فضمير الغائب ـ حسب بنفنيست ـ "لا يحيل على إنسان، لأنه ضمير يحيل على شيء واقع خارج التخاطب. ولكنه ضمير لا يوجد ولا يتخصص إلا في تقابل مع ضمير المتكلم "أنا"، الذي يعينه عندما ينطبق به بوصفه «غير شخصي»"[297]، ولهذا فضمير الغائب يندرج ضمن الملفوظ الموضوعي، لأنه لا يحيل على أي ذات داخل التخاطب، وذلك عندما أستعمل الضمير الغائب وأقول "أقسم" (هو)، فهي ليست إلا وصفا من جنس يجري أو يدخن، والعكس عندما أقول "أقسم" (أنا) فهو قول ذاتي يمثل التزاما[298]، تجعله ذاتية الخطاب شرطا ممكنا. ولا يتوجب هذا الالتزام في حالة "القسم" فقط، وإنما يتحمل المتكلم مقتضيات ملفوظه الذاتي تامة.

وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم "الالتزام" هنا أقرب إلى مفهوم الالتزام الأخلاقي الذي يقدمه المفكر الذاتي، الذي يعد من أبرز المفاهيم المركزية في الفلسفة الوجودية. ويمكن القول إن "المفكر الذاتي" هو ما يمكن أن نقابله في إطار نظرية التلفظ، بـ "المتكلم الذاتي" الذي يصدر أقوالا حاملة لوجهة نظره وإيديولوجيته، ويلتزم بها، أي يتحمل مسؤولية التلفظ بها. والأمر في هذا أن هناك نقاط التقاء كثيرة بين أفكار لسانيات التلفظ والفلسفة الوجودية والتي كشفنا عنها في الفصل الخاص بأصول نظرية التلفظ.

---

[296]. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، مرجع سابق، ص 82.

[297]. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، مرجع سابق، ص 145.

[298]. ينظر: عبد الرحمن بداوي، دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للنشر، ط1، 1400هـ/1980م، ص 76 وما يليها.

وبهذا يقرن بنفنيست القول مع العمل، حينما يتحدد القول مع العمل ذاته حيث إن الوضع القولي ينجز العمل عند التلفظ بالقسم في تزامن مع تأسيس الذات في القول.

فالملفوظ الذاتي، إذن، هو الملفوظ الذي يحمل الذات المتكلمة في الضمير "أنا"، والتي تلتزم بإنجاز ما تم التلفظ به في حين أن الملفوظ الموضوعي لا يقابله الالتزام ولا تتحمل الذات المتكلمة مسؤولية الإنجاز لأن ملفوظها صادر عن ذات خارج الخطاب، يعَبَّرُ عنها بضمير الغائب.

ولا تتحدد حيادية الملفوظ في استبعاد الضمائر الشخصية فقط؛ بل تتطلب أيضا الحرص على حيادية التوزيع الزمني والمكاني في الملفوظ، وذلك باستعمال الزمن الكرونولوجي عند سرد الأحداث لإخفاء وجهة نظر المتكلم في ترتيب أحداث الملفوظ زمنيا، أما من حيث ظروف المكان فيتطلب عدم الارتهان بالذات الساردة/المتكلمة عند رصد الوحدات المكانية في الملفوظ. ورغم هذا، كما تؤكد النصوص السابقة، فإن موضوعية الملفوظ لا يمكن أن نحقق منها إلا النزر القليل، والأقرب إلى التوهم بتلك الحيادية.

قدم دومنيك مانغونو – من زاويته– تقسيما لا يختلف كثيرا عن التصنيف الذي جاء به إميل بنفنيست، حيث ميز بين نوعين من الملفوظات وهما الملفوظ الموصول l'énoncé embrayé والملفوظ غير الموصول l'énoncé non embrayé، ويعرف الصنف الأول بأنه "الملفوظ الذي نستعمل فيه الموصولات التي ترتبط بالوضعية التلفظية...، وهي ملفوظات تشكل نسبة الأغلبية ضمن الملفوظات المنتَجَة، حيث لا

يمكن أن نتصور أن هناك محادثة ليس لها ارتباط بمحيطها التلفظي أو بتفسيرات المتلفظ المشارك "D'interpellation du co-énonciateur"[299].

أما الصنف الثاني فحدده عبر مقابلته مع الأول، فقال: "في مقابل الملفوظ الموصول يمكن أن نتلفظ بملفوظ نتجنّب فيه استعمال الموصولات، كأن نعزله عن وضعيته التلفظية، ويسمى هذا الملفوظ بـ "الملفوظ غير الموصول" «énoncé non embrayé»"[300]. ويتميز هذا الأخير بعدم تفاعله مع الوضعية التلفظية؛ أي لا يتم وسمه بما قد يربطها بوضعيتها التلفظية.

ويضيف مانغونو موضحا هذا الصنف؛ فيقول: "إنها ملفوظات تهدف نحو خلق عوالم مستقلة. بطبيعة الحال، تتوفر على متلفظ ومتلفظ مشارك، كما تتوفر على منتجها في لحظة ومكان خاصين، ولكنها تُقدَّمُ في شكل ملفوظات معزولة عن وضعيتها التلفظية"[301]. وهذا لا يعني أنه لا يكمن أن يرد في هذه الملفوظات أي ذكر لـ "أنا" و"أنت" و"الآن" و"هنا"، بل قد ترد دون وظيفتها "الموصولية"، وذلك عندما تُذكر على لسان شخصية تاريخية لكنها مستقلة عن المتلفظ-السارد؛ أي أنها تحمل وجهة نظر الشخوص وليس السارد الذي ينقل الخطاب.

انطلاقا من مقترحات نظرية التلفظ المتعلقة بهذا التصنيف، يمكن تقسيم الخطاب الروائي إلى:

---

[299]. Dominique Maingueneau, (2005), Analyse les textes de communication, ARDAND COLIN, Paris, p 93-94.

[300]. Dominique Maingueneau, (2005), Analyse les textes de communication, p 94.

[301]. Dominique Maingueneau, (2005), Analyse les textes de communication, p 94.

1. خطاب الرواية التاريخية

لا يقصد بالتاريخية، بالضرورة تلك الرواية التي تؤرخ لأحداث معينة، أو تنصبُّ حول تاريخ بلد معين أو شخصيات معينة. يندرج ضمن هذا الصنف كل الروايات التي يغلب عليه السرد "المحايد" ويتحقق فيها – إلى حد ما– الامحاء التلفظي، والروايات التي يغيب فيها استعمال كل الأشكال اللغوية التي تحيل على الذات المتكلمة خصوصا الضمائر الشخصية. مثال ذلك الروايات التاريخية، والسير الغيرية، وكل الروايات التي تستبعد الإشاريات بكل أنواعها، وإن حضرت فهي لا تحيل على ذات السارد، وإنما ترتبط بسياق سرد الأحداث بمعزل عن شخص السارد وزمن تلفظه ومكانه أي وضعية تلفظه الروائي عموما. كما تختص بالبخل في تشكيل الحوارات الداخلية بين الشخوص حيث تشكل هذه الحوارات تجل من تجليات ذاتية الشخوص، وتعكس إيديولوجية الروائي الذي يتكفل بتنظيمها وتتطلي بمقاصده الخاصة، كما يغيب فيها صوت السارد أو يُضمر خلف العبارات.

2. خطاب الرواية الخطابية

يتميز هذا الصنف باستعمال الضمائر الشخصية بشكل بارز كما يحضر فيه صوت السارد وذاتيته وإيديولوجيته وتكون معلنة بوضوح في الغالب، ونعثر فيه على الضمائر الشخصية "أنا" "أنت" والإشاريات الزمانية "الآن، الأمس، اليوم.." والإشاريات المكانية "هنا، هناك، في هذا الموقع...". ونُدرج ضن هذا الصنف الروايات التي تحمل صفة السيرة الذاتية، والروايات الواقعية، والروايات الرومانسية، والروايات البوليسية.... وعكس الصنف الروائي الأول، نسجل في الرواية الخطابية غلبة حوارات شخوص الرواية كما لاحظنا في النموذج البوليسي لعبد الإله الحمدوشي، والذي يمكننا أن نصنفه ضمن الروايات ذات التلفظ الخطابي، أي الرواية الخطابية إن صح التعبير.

والسؤال الذي يطرح نفسه بصدد هذا التصنيف هو: هل يشمل هذا التقسيم كل أصناف الخطاب الروائي؟ هل يمكن أن يصمد هذا التصنيف أمام غياب مبدأ صفاء الجنس الخطابي؟ علما بأننا قد نجد بعض الخطابات الروائية تتضمن الصنفين الخطابيين معا؛ أي أنها تحمل خصائص الرواية الخطابية والتاريخية في آن.

6. خـلاصة

جملة القول من هذا؛ إن نظرية التلفظ حاولت أن تسد العوز الذي كانت تعاني منه اللسانيات البنيوية بسبب إهمالها لدراسة الكلام، نظرا لخاصياته المتمثلة في الوعي والذكاء، اللذين يبعثران "العلمية" التي كانت تصبو إلى تحقيقها في البحث اللغوي عامة. ولذلك أُعيد النظر في ثنائية الذات والموضوع في اللسانيات وفي الدراسات السردية أيضا، حيث شكلت هذه الثنائية نقطة التقاء بين اللسانيات التلفظية ونظريات السرد. فأخذت الذاتية في الخطاب "منعطفا مهمّاً في الدرس اللساني كشف للباحثين عن جانب في اللغة مغمور يتمثل في تلك الشحنة العاطفية العالقة بها، وأعاد الاعتبار إلى ركن لم ينل حظّه في اللسانيات البنيوية، نعني المتكلم الذي ما إن يستعمل اللغة حتى يترك عليها بصماته ويُشربها شيئا من ذاته."[302] بلغ هذا المنعطف بروز ما يسمى بسيكولوجيا السرد والدراسات السردية الثقافية التي أصبحت تنظر إلى أشكال تعلُّق السرد بالحياة الاجتماعية وبالتواصل الثقافي والاجتماعي بين الشعوب والأفراد، وإلى حالات ارتباط فعل السرد بالحالة النفسية للسارد أو المتكلم، الذي حاولت الدراسات الخاصة بعلم النفس الشعبي، والدراسات المسماة بـ "سيكولوجيا السرد" (التي تندرج ضمن سيكولوجيا الثقافة) الكشف عن حالات هذا الارتباط، ومن مؤيدي هذه الدراسات نذكر مايكل كول (1996) وريتشارد شويدر (1991).

[302]. حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 106.

وقد كان من خلاصات هذا الإنماء البحثي الكشف، أولا، عن "أن في العملية السردية تُشيّد أحاسيس متنوعة للهويات الشخصية والعلاقات الاجتماعية في الوقت ذاته"[303]، والتأكيد، ثانيا، على أن الممارسة السردية تنظم خبراتنا، وتعمل على تشكيل النوايا، وبناء جسور التواصل الثقافي بين الأجيال، وتنشيط الذاكرة واستخدامها، بعبارة أخرى فإن السرد يقدم "أدوات جوهرية تعطي شكلا ومعنى لخبراتنا"[304]. وبالتالي يجب الأخذ بها أثناء تحليل الخطاب الروائي ونقده.

ومن خلال معالجتنا لهذه القضايا سجلنا الدور الهام الذي تضطلع به لسانيات التلفظ في فهم خصوصيات الخطاب الروائي وتحليل مستوياته، كما سجلنا حجم الإفادة التي قدمتها هذه النظرية بصدد تحليل الخطاب الروائي، حيث أصبح جهازها المفهومي يسيطر على ساحة الدراسات السردية عامة، و"معجم السرديات" المشار إليه في مراجع هذا الفصل خير دليل على ما نقول.

وقد توصلنا أيضا إلى أن عبد الإله الحمدوشي استطاع من خلال روايته "الحنش" أن يجسد مظهرا من مظاهر الرواية الحديثة هو عملية "تذويت الكتابة"، وقد تجلت هذه العملية على مستوى استعمال الضمائر الشخصية والأزمنة الدالة على الذات المتلفظة الساردة، وعلى مستوى توظيف الإشاريات المكانية الذاتية على لسان الشخوص وعلى لسان السارد كذلك، مما جلعنا نصنف هذه الرواية ضمن خانة الروايات الخطابية التي تتميز بحمل شحنة ذاتية جليّة.

---

[303]. جينز بروكمبير، السرد والهوية، دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2015، ص 27.

[304]. نفسه، ص 22.

لفصل الخامس:

لذاتية ومستويات التلفظ السردي

تمهيد

لقد اقترح إميل بنفنيست رؤية جديدة لتحليل الخطاب، تقوم على تصنيف الملفوظات بناء على وحدات لغوية خاصة تتعلق بعملية التذويت بكل أصنافه حيث تحضر بحضور الذات في الخطاب، وتغيب حين يراد لوجهة نظر الكاتب أن تُغيَّب من تلك الملفوظات، وتوصَّل إلى وجود مستويين من التلفظات، الأول سماه بالتلفظ الخطابي، أما الثاني فأطلق عليه مفهوم التلفظ التاريخي.

إذن؛ ما المقصود بهذين المستويين؟ وما هي معايير التمييز بينهما؟ وما مدى قدرة هذه المعايير على تحقيق تصنيف مضبوط وقار للمستويات التلفظية؟.

سنحاول، في هذا الفصل، الإجابة عن الأسئلة المطروحة أعلاه، وسنقدم وجهات نظر أخرى لهذا التصنيف؛ ثم سنقوم بفتح نقاش حول التقسيم الذي قدمه إميل بنفنيست لإبراز أراء باحثين آخرين بصدده، والبدائل التي اقترحوها؛ ثم لا بد أن تتخلل هذا النقاش أمثلة من النموذج الروائي للتمثيل لهذا التصنيف، ولاختبار مدى شموليته لأصناف النصوص الواردة في رواية عبد الإله الحمدوشي "الحنش".

1. مستويات التلفظ عند إميل بنفنيست

توخى إميل بنفنيست إحداث نظرية للذات المتكلمة في اللسانيات، ولذلك بنى كل قضايا نظريته اللسانية بناء على مفهوم الذاتية وتمظهراتها في اللغة، وهذا ما سنسجله أيضا من خلال تمييزه بين مستويات التلفظ.

وسبق أن ذكرنا أن إميل بنفنيست يعرف التلفظ بأنه "فعل توظيف اللغة عبر فعل فردي الاستعمال"[305]؛ وسنراه يقسم هذا الفعل إلى مستويين بارزين، وهما: التلفظ الخطابي Enonciation de discours والتلفظ التاريخي Enonciation historique، وذلك في مقاله: "Les relations de temps dans le verbe français" "علاقات

[305] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, p 80.

الأزمنة في الفعل الفرنسي". ويقوم هذا التمييز على شكل استعمال الضمائر والأزمنة في علاقتها بالأفعال؛ إذ قال: "الأزمنة في الفعل الفرنسي لا تستعمل أجزاء من نظام موحد، إنها توزع على نظامين متميزين ومكملين. كلاهما لا يحمل أي جزء من زمن الفعل، كلاهما في استعمال منافس وثابت ومهيأ لكل متكلم. هذان النظامان يشكلان تصميمين مختلفين للتلفظ، لنُبَيِّنَهُمَا بأن أحدهما هو التاريخ والآخر هو الخطاب"[306].

1.1. مستوى التلفظ التاريخي L'énonciation historique

هو التلفظ الذي يحتفظ به عن طريق الكتابة، ويتميز بسرد الأحداث الماضية، "ويتضمن ثلاثة مفاهيم تميزه؛ وهي: "الحكاية" و"الحدث" و"الزمن الماضي". يعني أنه يشخِّص الأحداث الطارئة في لحظة من اللحظات الزمنية دون أي تدخل (أو حضور) للمتكلم في الحكاية"[307].

تتميز تاريخية التلفظ بكونها تشترط حدودا مميزة بواسطة مقولتي زمن الأفعال والأشخاص، ويُعرفها إميل بنفنيست بأنها: "الحكاية التاريخية" le récit historique التي تَستبعد كل شكل لساني "سيرذاتي" "autobiographique". فالمؤرخ لا يقول أبدا "أنا" ولا "أنت" أو "هنا" ولا "الآن"، حيث لا يستعمل أبدا وسائط الجهاز الصوري للخطاب وهي كل الأشكال اللسانية التي تحمل ذاتية المتكلم كالضمائر (باستثناء ضمير الشخص الثالث) وإشاريات الزمان والمكان. ويتردد هذا النوع من التلفظ على لسان المؤرخين ومقدمي النشرات الإخبارية غير المباشرة، وقارئي التقارير والسيناريوهات، والسرد المحايد... حيث لا تُستحضر ذاتية هؤلاء في ملفوظاتهم.

ويستعمل المتكلم في التلفظ التاريخي ثلاثة أزمنة: الماضي المبهم "l'aoriste" (=الماضي البسيط) والماضي الناقص "l'imparfait" والماضي البعيد " le plus-

[306] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, P: 238.

[307]. Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, P: 239.

que- parfait". و"الزمن الأساسي هو المبهم، هو زمن الأحداث خارج عن الشخص الحاكي"[308].

- **لنتأمل في المقطع التالي:**

"مات الأب في نومه، كان مصرا على الموت ولم يتأسف لحاله أحد لأن الموت رحمة من الله في مثل هذه الحالات. بعد ذلك لم تسر أمور للاخيرة على ما يرام، لقد اعتراها مرض الشيخوخة المبكر ووهنت وصارت تبدو أكبر من سنها بكثير وبدا أنها لم تعد تتوقع شيئا من الحياة وعجزت حتى عن بيع الخبز بعد عجنه،..." [الحنش، ص 8].

يحكي السارد في هذا المقطع حدث وفاة الأب ويصف حال وفاته في نومه، وحال زوجه لالة خيرة بعد وفاة معينها وسندها العائلي والنفسي، وقد تردّت حالتها الصحية والنفسية بعد هذا الحادث وإن كانت وفاة زوجها "وفاة رحمة" من الله عليه لإخراجه من عذاب الدنيا وآلام المرض.

فالعناصر المميزة للسرد التاريخي؛ وهي الحكاية والحدث والماضي، حاضرة بشكل بارز في هذا المقطع، إذ الحكاية هي حكاية وفاة الأب وتردي الوضع الصحي والنفسي لزوجه، أما الحدث فهو موت أب فريد، أما الماضي فقد دلت عليه عناصر الزمن التي وظفها السارد، وهي عناصر زمن الفعل الماضي، ويمكن أن نسِمَه بالماضي الناقص، نظرا لسريان مفعول موت الأب على لالة خيرة وفريد فيما بعد، حيث ستتذكره لالة خيرة بصوت من الحسرة بعد أن صار ابنهما موظفا في قطاع الأمن، ويسرد السارد أنها: "تطلعت إليه وكأنها تراه لأول مرة وألقت نظرة على صورة الأب وقالت بأسى:

"ـ آه لو بقي أبوك على قيد الحياة ورآك في رتبة عميد" [الحنش، ص 14].

[308]. Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, P: 241.

ومن أمثلة هذا الزمن قول السارد: "مات الأب"، (وبدون العودة إلى مقاطع أخرى من الرواية يمكن أن نسميه زمنا مبهما حيث لم يحدد تاريخ الوفاة بدقة)، "كان مصرا"، "لقد اعتراها"، و"صارت تبدو أكبر من سنها"....

إن ما يميز هذا النمط السردي أيضا _كما أشرنا سابقا_ هو غياب ذاتية السارد، حيث اضطلع في هذا المقطع بدور فعل السرد وتحريك الأحداث دون إسنادها إلى راوٍ معين، حيث استعان السارد بأدوات العطف كالواو، وظرف الزمن "بعد ذلك" وأدوات الترقيم كالفاصلة (،) التي تدل على الانتقال إلى الجزء الموالي من الحكاية. ورغم هذا فلا نعدم القول بأن السارد كان يعمد إلى تعميق عملية الوصف إلى درجة يكاد يُبدي تعاطفه مع العائلة وإبلاغ القارئ بشفقته لحالها.

أما من حيث استعمال الضمائر فقد انضبط السارد إلى استعمال الضمير المقدَّر الغائب (هو/هي) فقط، مثال: "كان مصرا"، "لم تسر"... وهو ضمير غير شخصي، بتعبير إميل بنفنيست، والذي يقابله الزوج "أنا/أنت" الذي يمثل الضمائر الشخصية.

كما حقق هذا المقطع ما يسمى في السرديات التلفظية بـ "الامحاء التلفظي" حيث استخدم السارد أسلوب السرد من خارج الحكاية والسرد بضمير الغائب. يمكن القول إن السارد التزم الوفاء لمستوى التلفظ التاريخي فأَبْعَدَ كل ما يتعلق بوجهة نظره؛ أي العناصر الذاتية (كإشاريات التلفظ الخطابي)، والخطاب وردود الأفعال والتقييمات والمقارنات وغير ذلك.

وقد يبلغ هذا الالتزام بضوابط الكتابة التاريخية إلى حد – بتعبير إميل بنفنيست– "يصح القول، إنه ليس هناك أي سارد. فتُطرح الأحداث كأنها أُنتجت في خط مستوٍ مع الحكاية. مثلما أنه لا شخص يتكلم هنا، وكأن الأحداث تسرد نفسها بنفسها"[309]. ويسمى

[309] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, P 241.

السارد في هذا المستوى المحايد بـ "السارد المتواري" "Narrateur effacé"، وهو افتراض وجود سارد يتوارى خلف المحكي ولا ينجلي فيه وهو افتراض يعود إلى تودوروف عندما ميّز بين القصة والخطاب؛ أي بين مضمون الحكي والأسلوب الذي يُقدم به هذا المضمون.

ونُذكِّر أن هذا الامحاء التلفظي أو هذا التواري أو التخفي، يبقى نسبيا لا يمكن أن يمحو كل آثار وجهة نظر الذات المتلفظة من عملية السرد، وما إن لم نسلِّم بهذا فإننا سنقع في وهم الموضوعية، الذي سقط فيه قراء رواية "la jalousie"، بسبب عدم الوعي بأن "ما هو مرئي لا يلتقطه كائن نكرة، ومجهول محايد، بل إنسان خاص، يحتل في الرواية موقعا دقيقا ومضبوطا، سواء في الزمان أو في المكان: إنه السارد..."[310]، ناهيك عن إغفال أن "الأصل في الكلام أن يحوي بصمات تحيل إلى المتكلم"[311]. وقد سجلنا في المقطع السابق، [الحنش، ص 8]، كيف أحالت لنا الوحدات اللغوية على وجهة نظر السارد وإن حاول إخفاءها، وهي إظهار تعاطفه وشفقته تجاه عائلة "الخبازية لالة خيرة". وما أكد لنا ذلك هو حالة الوصف التي عمد إليها السارد حال حديثه عن وضع لالة خيرة بعد موت زوجها، حيث أينما ورد الوصف السردي إلا وفاحت منه رائحة الذات الساردة وإن أجهدت نفسها في التستر.

2.1. مستوى التلفظ الخطابي: L'énonciation de discours

اقترح إميل بنفنيست بصدد التلفظ الخطابي أن نفهم الخطاب في صورته الشمولية، وهو كلُّ تلفظ يفرض متكلما ومستمعا، عند الأول نية التأثير في الآخر بأي أسلوب كان.

يَمْثُل التلفظ الخطابي في الخطابات الشفوية المتنوعة والعادية، وفي الكتابات التي تعيد إنتاج الخطابات الشفوية أو التي تتقمص دور شخصية ما، وذلك في الرسائل

[310]. مجموعة من الباحثين، الرواية الواقع، مقالات محكمة، مرجع سابق، ص 29.

[311]. محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص 37.

المتبادلة والمذكرات والمسرح والكتب التعليمية؛ أي "في جميع الأجناس التي ترسل خطابها إلى الآخر، ويتَلَفّظُ بها شخصٌ بصفته متكلما وينظِّم ما يقول في مقولة الشخص"[312]. مثلما يحضر هذا المستوى في الخطاب الروائي على مستويين:

أ. مستوى خطابات الشخوص

وهو الخطاب الذي يدور بين الشخوص حول أحداث الرواية، إنه خطاب تخرج منه ذات الكاتب الواقعية، بنسبة ما، لتسلِّمه لذوات ساردة داخلية تدير حواراتها بنفسها، وينحصر دور السارد/الروائي في تحريك الخطاب وتوزيع الأدوار بين عوامل هذه الخطابات.

يحضر هذا المستوى في الخطاب الروائي الذي نحن بصدد دراسته، بشكل ملموس، حيث دارت بين شخوص رواية "الحنش" عدة حوارات أخذت مساحة مهمة من حجم خطابها عامة. مثال ذلك حوار الصباح بين لالة خيرة وفريد ثم حوار فريد مع جارته، ثم حوار فريد مع الفنانة التي أوقفها في المدار الطرقي، فقالت له:

"متى كان البوليس يوقف الفنانات؟

أجابها فريد بأدب واحترام:

لم أوقفك بسبب المخالفة، بل لأقول لك أنت جميلة و'تبارك الله عليك'" [ص 20].

والحوار الموالي بينه وبين السائق حامل الدجاج:

"– هل هذه شاحنة أو مزرعة لتربية الدجاج؟

قال السائق بنبرة رجاء:

---

[312] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, p 242

– أنا في طريقي إلى حفل عرس؟

– من صاحب هذا العرس وأين سيقام؟

– العرس في درب الشرفاء والمتزوج هو ولد الحاج إدريس موظف سام في الحكومة؟

– أنا هو الحكومة، قال فريد بصوت غاضب، كم من دجاجة معك؟

– مائة وخمسون دجاجة وديك هندي واحد..." [الحنش، ص 21].

ثم الحوار الذي دار أيضا بين المفتش فاطمة والحنش [ص 31]، [ص 55] ثم بين البوليسي فريد وفاطمة بصفتها نادلة في ملهى ليلي، إلخ.

إن ما تختص به هذه الخطابات هو حضور العناصر الإشارية الدالة على الشخوص، مثال (أنت جميلة، لم أوقفك، أنا في طريقي، أنا هو الحكومة...) وعلى الزمان (كالحاضر "أنا في طريقي"، والمستقبل المتمثل في "لِأقول لك" و"أين سيقام"...)، وعلى المكان "الطريق إلى حفل عرس"... وهي عناصر الجهاز الصوري للخطاب الذي يبرز ذاتية هذه الشخوص وردود أفعالهم وانطباعاتهم النفسية.

ب. مستوى خطاب السارد مع القارئ

تميز فعل السرد لدى عبد الإله الحمدوشي باللجوء أحيانا إلى فتح حوار بينه وبين القارئ، – شبيه بخطاب السيرة الذاتية– حيث يستعمل فيه أداوت لغوية دالة على أنه يوجه خطابه للقارئ، كما في الأمثلة التالية:

1. "بالمقابل إذ ثمة من يمتدح هذا الوضع ويعتبره إنجازا عظيما يقدم خدمة للمجتمع ويخلص البلاد من المجرمين، **إذ بإمكانك** التجول إلى بزوغ الفجر في الشوارع دون أن **تتعرض** للأذى، القمع مقابل الأمن، **هذا هو النظام الأمثل لتخفيض نسبة الإجرام**" [الحنش، ص 34].

2. "ثم لا يجب **أن ننسى** ملكة الحدس لديه والتي تعتبر كحاسة سادسة، فهو بمجرد أن يقابل شخصا ما يكوّن عنه انطباعا عاما وعلى ضوئه يجري المقابلات والاستجوابات

ومن خلال نبرة الصوت وايقاع التنفس يستنبط الحقائق ويغربل الكلام. في الأخير لابد من التوقف عند نظرته البوليسية المستفزة **التي تجبرك** على الارتعاش **وتجعل بصرك يفر** إلى أبعد مدى خوفا من التهم التي **ستنزل عليك**" [الحنش، ص 38].

3. "دائما له خطته التي لا يجب أن يفسدها له أحد بأسئلة سخيفة. **عليك أن تقبل** بالمهمة و**تواصل عملك وتفهم** بالتلميح أكثر من التصريح **وتتمم** ما تبقى من **عندك**" [الحنش، ص 51].

4. "**وأخشى ما تخشاه هو أن تكون بدورها مراقبة من طرف خصومها وأن تتعرض لاعتداء غادر ومفاجئ**"[الحنش، ص 55].

استعمل الحمدوشي الكاف الدال على المخاطب في قوله "بإمكانك" كشكل من أشكال فتح وضعية تواصلية غير مباشرة بينه وبين القارئ، كما وظف في المقطع الموالي نون الجماعة "ننسى" للدلالة على إشراك القارئ في هذا الحوار، وقوله أيضا "تُجبرك" و"تجعل بصرك يفر" و"ستنزل عليك" "عليك أن تقبل بالمهمة".... إذ وظف، هنا كذلك، الجهاز الصوري للتلفظ عبر استعمال ضمير الشخص الأول "أخشى" وضمير المخاطب، وزمن الحاضر والمستقبل.

وذلك لأن هذا المستوى التلفظي يتيح للمتلفظ أن يستعمل "بحرية جميع الأشكال اللسانية للفعل، بالخصوص "أنا / أنت" "je/ tu"، سواء استعملها ضمنيا أو بشكل صريح، فالعلاقة بالشخص حاضرة دائما"[313]، بصورة أقرب بكثير من "خطاب الفردية عن الأنا، أو الخطاب الديكارتي عن الذات"[314].

---

[313] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, p 242

[314]. نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، مرجع سابق، ص 236.

أما من حيث الزمن، ففي التلفظ الخطابي، كما رأينا في الأمثلة السابقة، استعمل الحمدوشي الوحدات اللغوية الدال على زمن الحاضر، مثال "يمتدح، أخشى، تجعل بصرك"، والمستقبل، كقوله "ستنزل عليك"، والماضي الذي يكون مشتركا بين التلفظ التاريخي والتلفظ الخطابي، وهو الزمن الذي يحضر في أي سرد كيفما كان نوعه.

ويمكن إجمال الاختلافات بين المستويين على شكل تقابلي فيما يلي:

التلفظ التاريخي: وهو الحكي الذي تُسرد فيه الأحداث باستعمال ضمير الشخص الثالث: المبهم، وتغييب ضمائر الشخص الأول والثاني، أما من حيث الزمن "فيتمحور حول الماضي البسيط (Passé simple). ويتضمن الحكي الماضي البعيد المكتمل، والماضي المستمر (Imparfait)، والشرطي، والماضي السابق، والماضي البسيط"[315]. ويرفض الحاضر[316] والمستقبل (البسيط أو المركب).

التلفظ الخطابى: يرد فيه ضمير الشخص الأول والثاني (أنا/أنت) وما يمثلهما، ويقبل جميع الأزمنة في كل أشكالها، الماضي المركب (passé composé)، والمستقبل البسيط (futur simple) والمستقبل السابق (futur antérieur) والشرطي (conditionnel)، والماضي السابق (passé antérieur)، والماضي البعيد المكتمل (plus que parfait)، ويستبعد المبهم (البسيط أو المركب)[317].

ويمكننا أن نبيّن خصائص المستويين انطلاقا من التعريف والضمائر الواردة والزمن الموظف ومجالات ترددهما، عبر الجدول التالي:

---

[315]- ألفا أوصمان باري، تحليل الخطاب، أسسه النظرية، ترجمة لحسن بوتكلاي، مرجع سابق، ص 38.

[316]- لأن أبعاد الحاضر تخالف القصد التاريخي، ويكون بالضرورة هو حاضر المؤرخ، ولكن التأريخ يستلزم نكران قصد المؤرخ وذاته كذلك.

[317]- ينظر: ألفا أوصمان باري، تحليل الخطاب، أسسه النظرية، مرجع سابق، ص38.

المستوى	مفهومه	الضمير	الزمن	أشكاله
التلفظ التاريخي	يحتفظ به كِتابةً، يحكي أحداث ماضية، يتضمن ثلاثة مفاهيم تميّزه: "الحكاية"، "الحدث"، "الماضي".	●ضمير الشخص الثالث (هو) ●غياب الذاتية	▪ الماضي المبهم ▪ الماضي البعيد ▪ الماضي الناقص	يرد في خطاب: ▪ المؤرخين ▪ مقدمي النشرات الإخبارية غير المباشرة، ▪ قارئي التقارير والسيناريوهات...
التلفظ الخطابي	يتحقق في الكتابات التي تعيد إنتاج الخطابات الشفوية.	●أنا / أنت ●حضور الذاتية	▪الحاضر Présent ▪المستقبل Futur ▪الماضي	الرسائل المتبادلة، المذكرات، المسرح، الكتب التعليمية؛ أي جميع الأجناس الخطابية المُرسَلة إلى الآخر.

أما من حيث أسلوب توزيع هذين المستويين في نموذجنا الروائي، فقد ورد المستوى الأول في مواضع متفرقة من الرواية، وسجلنا أن السارد انضبط إلى خصائص هذا المستوى، وأبعد كل العناصر التي تشوش على تاريخية الأحداث المسرودة، كالإشاريات الشخصية والزمانية والمكانية وردود الأفعال والإيديولوجيا الخاصة بالذات.

مثلما ورد المستوى الثاني، وهو التلفظ الخطابي، الذي احتل مساحة كبيرة من الرواية، حيث تخللتها مجموعة من الحوارات بين جميع الشخوص، وتوزعت بين حوارات فردية مع الذات وثنائية بين شخصين وأحيانا بين عدد من الشخوص (أفراد العصابة وفريد وفاطمة مثلا)، ومن الطبيعي أن يطغى هذا المستوى التلفظي على هذا الفعل

السردي لأنه، كما جنَّسه الكاتب عبد الإله الحمدوشي، يتمحور حول "قصة حب بوليسية"، إذن فهذه الرواية تندرج ضمن صنف الرواية الخطابية التي تطغى عليه الأحداث الرومانسية كما يغلب فيها خطاب الشخوص على خطاب السرد المحايد/ التاريخي، أي سيطرة الملفوظات الذاتية على الملفوظات "الموضوعية" التي تحضر في خطاب الرواية التاريخية أو السيرة الغيرية.

بالتالي، يمكن القول إن هذا التمييز الذي أقامه بنفنيست بين التلفظ التاريخي والتلفظ الخطابي له ارتباط وثيق بنظرية التلفظ باعتبارها "نظرية للذات المتكلمة"، ولذلك صُمّم هذا التمييز بناء على حضور الذاتية أو غيابها وعلى حضور عناصر الجهاز الصوري للتلفظ. فإذا حضرت هذه العناصر، فنحن أمام تلفظ خطابي وإن استُبعدت فذاك تلفظ تاريخي يطمح لتحقيق نزر قليل من الموضوعية.

2. في تداخل التلفظ التاريخي والتلفظ الخطابي

ليس كل ما حضرت فيه العناصر الإشارية يعد تلفظا خطابيا، وإنما قد تحضر أحيانا في مستوى الحكاية التاريخية، ولكنها لا تحيل على حاضر فعل السرد أو مكان تواجد السارد، وقد سجلنا هذا الحضور في مواقع متعددة من سرود عبد الإله الحمدوشي، من بينها القول التالي:

"شعرتْ أنها **الآن** داخل عملية معقدة وتنسج بطواعية خيوط مؤامرة لا تعرف إلى أين تقودها، لقد نجحت لحد **الآن** في جعل العصابة تعتقد أن البوليسي المزيف هو بوليسي حقيقي، **وها هي** العصابة تتودد إليه." [الحنش، ص الحنش، ص 78. ينظر أيضا ص 37، ص 55، ص 80].

أشرنا إلى أن السارد عندما يكون بصدد سرد حدث خارج الذات السارد، فهو لا يستعمل (أنا، الآن، هنا)، إلا أنها وردت في هذا المقطع الذي يُظهر أن الحمدوشي يسرد

عبره حالة المفتش فاطمة بعد توليها مراقبة العصابة داخل حانة ليلية، حيث تكررت في المقطع "الآن" مرتين، واستعمل اسم الإشارة القريب "ها هي".

ويكمن أن نستفيد من هذا التداخل بين المستويين معنى قرب السارد من الأحداث ومن شخوصها؛ لإيهام القارئ بواقعيتها ولرفع نسبة مصداقيتها إلى حد ما. ويظهر أيضا أن السارد حشر نفسه ضمنها وكأنه يعيشها لحظة سردها.

مردُّ هذا؛ إلى أن هذه العناصر لا تحيل إلى سياق فعل السرد أو لحظته أو مكانه، وإنما تحيل على سياق الحدث السردي معزولا عن الذات الساردة؛ أي تحيل إلى مرجع الحكاية. أو بعبارة أخرى، "لا تحيل إلى مقام التلفظ، وإنما تحيل دوما إلى "مشهد التلفظ" الذي يبنيه النص"[318]. فالمشهد التلفظي Scène d'énonciation، مفهوم اقترحه مانغونو، يعبِّر عن الطريقة التي يبني بها الخطاب تصوره لمقام تلفظه الشخصي، أو هو المشهد المؤَسَّس من لدن الخطاب[319].

إن "**الآن**" الواردة في المقطع لا تحمل معنى حاضر فعل التلفظ السردي أو الحاضر المتعلق بالذات الساردة، وإنما هو "**الآن**" التاريخية المتعلقة بلحظة الحدث، وتتدرج ضمن ما يسمى "بالحاضر التاريخي"، إذ نعلم أن الماضي والحاضر والمستقبل هي أزمنة خاصة بالخطاب، فإذا "التقيناها في نص تاريخي، فإن هذا يكون من خلال قيمة مختلفة: الحاضر إما أن يكون كلي الزمن، وإما أن يكون حينئذ "الحاضر التاريخي""[320]. فالمقصود بالحاضر كلي الزمن هو الزمن القاعدي أي المرجعي بالنسبة لذات المتكلم، أو هو حاضر لحظة التكلم، أو حاضر الخطاب، ويقابله الحاضر التاريخي وهو حاضر

---

[318]– محمود طلحة، تداولية الخطاب السردي، مرجع سابق، ص 87.

[319]– ينظر: دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 113.

[320]– أوزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، مرجع سابق، ص 609.

تاريخ الأحداث، الذي يسبق لحظة التكلم؛ أي حاضر فعل التلفظ بالمقطع السردي السابق.

لكن؛ إذا نظرنا إلى هذا الخلط بين المستويين في هذا النموذج الروائي من منظور انسجام الخطاب، فإن هذه المقاطع المشار إليها تمثل "خطابا غير محكم الصياغة، وبالتالي يمكن اعتباره غير منسجم"[321] زمنيا؛ أو هي خطابات هجينة من حيث التوزيع الزمني، ويسميها جاك موشلر وآن ريبول بـ "النماذج المضادة". وضمن هذا أشار الباحثان، أيضا، إلى فكرة مفادها أنه توجد خطابات ذات صياغة واضحة وفي انسجام تام؛ رغم أنها لا تحترم هذا التقسيم البنفنيستي القائم على الزمن والضمير، تلميحا منهما إلى أن هذا التقسيم ليس هو المعيار الخالص للحكم على انسجام الخطاب.

أما من منظور الدراسات السردية الحديثة، فإن تداخل مستويي التلفظ يمكن الحكم عليه بنوع من التداخل وغياب التناظر التام الذي أشرنا إليه في الفصل الخاص بـ "الذاتية في الخطاب". وهو ما يسميه جيرار جنيت بتداخل السرد والخطاب، ويؤكد غياب سرد وخطاب خالصين من التداخل بينهما، إذ قال: "... فهناك في كافة الأحوال تقريبا نسبة من السرد متضمنة في الخطاب، ومقدار من الخطاب في السرد، ومن هنا يأتي في الحقيقة توقف التناظر لأن كل شيء يجري كما لو أن نمطي التعبير يتأثران بشكل مختلف جدا بعدوى التداخل: فاندراج عناصر سردية في صميم الخطاب لا يكفي لتحريره، والسبب هو أن هذه العناصر تظل مشدودة في الغالب إلى مرجعية المتكلم الذي يستمر حضوره ضمنيا في الخلفية، ويملك القدرة على التدخل من جديد في كل الأثناء بدون أن ينظر إلى هذه المعاودة كـ "تداخل"."[322]

---

[321]– جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، مرجع سابق، ج2، ص 483.

[322]. رولان بارث وآخرون، طرائق تحليل السرد الأدبي، ص 80.

نستخلص من هذا النص إلى أن مرجعية الذات المتكلمة تبقى حاضرة دائما بسبب تداخل السرد بالخطاب، وتَوَقُّفِ التناظر بينهما، مما يسمح بالحديث عن مستوى ثالث من مستويات التلفظ وهو هذا المستوى الهجين أو غير المنسجم. إن هذه الفكرة تضرب، بحق، في تصور إميل بنفنيست قيام ذات المتكلم ومرجعيّاته الزمانية والمكانية والسياقية في مستوى الخطاب فقط، والأصح أنها تبقى في الخلفية، كما عبر عنها جيرار جنيت، تتوارى حينا وتظهر أحيانا أخرى، وسنناقش، في حينه، فكرة تجلي الذاتية عبر الضمائر الشخصية فقط، وسنشير إلى ردود أفعال بعض الباحثين إزاء هذه الفكرة.

3. تصنيف آخر

لم يكن إميل بنفنيست هو الوحيد الذي أدلى بدلوه في هذا التصميم الخاص بعملية التلفظ، وإنما قدم باحثون أخرون مقترحات أخرى قريبة من نموذجه، وأبرزهم الباحث دومينيك مانغونو. ولم يسْلم أيضا بنفنيست من الوقوع في الخطأ إزاء تقسيم التلفظ إلى "تاريخي وخطابي" بناء على معيار حضور/غياب الذاتية، مما جعله عرضة لعدد من الانتقادات. هذا ما سنناقشه في هذا الجزء من هذا الفصل، بعد أن نعرض مستويات التلفظ عند مانغونو.

1.3. مستويات التلفظ عند دومنيك مانغونو

ميز مانغونو، كما أشرنا سابقا، بين الملفوظ الذاتي والملفوظ الموضوعي، وهو تقسيم بناه على نفس معايير التمييز بين مستويات التلفظ، لذلك سنشير باختصار إلى هذا التصنيف من زاوية تحديد مستويات التلفظ عنده، حتى لا نقع في التكرار.

قال مانغونو "يمكن أن نقدم تمييزا أساسيا بين صنفين من الملفوظ، صنفين من التلفظ، الموصول embrayé وغير الموصول non embrayé، انطلاقا من العلاقة

القائمة بين الملفوظ والوضعية التلفظية"[323]. معنى هذا أن مستويات التلفظ عند مانغونو تنقسم إلى قسمين بارزين، وهما التلفظ الذي يتضمن ملفوظات موصولة بالوضعية التلفظية، والتلفظ الذي يحتوي على ملفوظات مستقلة عن هذه الوضعية، سنبينها فيما يلي.

1.1.3. الملفوظ الموصول: énoncé embrayé

هو الملفوظ الذي يتضمن الموصولات، والذي يجب أن تكون له علاقة بالوضعية التلفظية، "وما يميزه أيضا، أنه يحمل آثارا تخص شكل تقديم المتلفظ l'énonciateur، مثل التعجب، النداء، الأمر..."[324]؛ أي تصطبغ بذاتية عنصري التلفظ.

2.1.3. الملفوظ غير الموصول: énoncé non embrayé

يشمل هذا النوع الملفوظات التي تستبعد الموصولات وتُطرح معزولة عن وضعيتها التلفظية، فتتشكل من عالم مستقل عنها. ناهيك عن أنها تحضر فيه العناصر التالية: المتلفظ والمتلفظ مشارك ومنتوجهما في لحظة ومكان محددين، لكنها تُقدم كأنها معزولة عن وضعيتها التلفظية ولا نشعر بتعالُقِها بتلك العناصر. عكس الملفوظ الموصول بذات المتلفظيْن.

وتتميز هذه الملفوظات، أيضا، بكونها:[325]

- تستبعد الضمائر الشخصية: أنا/أنت، والإشاريات الزمكانية الذاتية؛
- تُصاغ وفق الزمن الماضي المبهم والماضي البسيط، باعتبارهما زمنين معزولين عن لحظة التلفظ؛

---

[323] . Dominique MAINGUENEAU, Analyser les textes de communication, Ibid, p 93.

[324] . Dominique MAINGUENEAU, Analyser les textes de communication, p 93.

[325] . Dominique MAINGUENEAU, Analyser les textes de communication, p 94. 95.

- تتردد في النصوص الأدبية المسرودة بالماضي البسيط، وفي النصوص العلمية ومقالات المعاجم، إلخ.

مرورا إلى التأمل في هذا التقسيم؛ نجده لا يختلف في شيء عن التقسيم الذي قدمه إميل بنفنيست، إلا في التسمية، فمانغونو، كما رأينا، قسمها إلى ملفوظات موصولة وأخرى غير موصولة، في حين قسم إميل بنفنيست التلفظ إلى مستوى تاريخي ومستوى تلفظ خطابي. أما معايير التصنيف فهي نفسها، إذ الأول اعتمد على الوضعية التلفظية، أما الثاني فقد اعتمد على معيار حضور/غياب الذاتية، والأمر أن حضور محدِّدات الوضعية التلفظية في الملفوظ يعني مباشرة حضور الذاتية والعكس بالعكس. وما الأمر بغريب ونحن نعلم أن مانغونو يدين إلى إميل بنفنيست بالكثير من حيث الطرح النظري، وبسطه الأرضية الخصبة للبحث في لسانيات التلفظ وتحليل الخطاب. وإن كان قد طعن في بعض مقترحاته النظرية والتي سنشير إليها عند كشفنا عن الانتقادات التي وُجهت للتصنيف الذي قدمه إميل بنفنيست.

2.3. نقد التقسيم البنفنيستي

لقد وجه بعض الباحثين عددا من الانتقادات إلى إميل بنفنيست؛ تخص بعض الجوانب من التقسيم الذي اقترحه، نذكر منها:

أ. عدم الإشارة إلى تداخل مستويات التلفظ

يكشف هذا التداخل عن هشاشة التقسيم الذي قدمه بنفنيست، إذ كشف بعض النقاد عن أوجه هذا التداخل وقد أشرنا إليها من منظور الدراسات السردية لدى جيرار جنيت الذي أكد على استحالة الحصول على جنس خطابي خالٍ من عناصر السرد أو عناصر الخطاب، بل نعثر فقط على خليط من المستويين معا، تكون لأحدهما الغلبة على الآخر.

يرى مانغونو، من جهته، أن قصر الخطاب على الملفوظات التي تتضمن الإشاريات يقصي الملفوظات التي ترد في الخطاب ولا تتضمن تلك الإشاريات؛ إذ قال: "إننا هاهنا إزاء مصدر سوء تفاهم وذلك أننا، على نحو عفوي، نؤول السرد كـ (حكي) narration، كما أن قصر الخطاب على الملفوظات ذات المبهمات ليس بلائق، بما أنه يقصي من حقل الخطاب الملفوظات التي تعدم المبهمات"[326]، ومنه اقترح التمييز المشار إليه أعلاه. فما كان يعد خطابا من منظور بنفنيست، أصبح ملفوظا موصولا عند مانغونو، أما التلفظ التاريخي فيسمى عنده بالملفوظ غير موصول.

ب. حصر تجليات الذاتية في الضمائر الشخصية فقط

لقد انتقد جاك موشلر وآن ريبول اختزال إميل بنفنيست التعبير عن الذاتية في استعمال ضمير الشخص الأول "أنا" فقط، إذا قالا: "وفي الحق، فقد رأينا أن بنفنيست يخطئ إذ يظن أن الشخص الأول وحده يمكن أن يمثل الذاتية"[327].

إذ بيَّنا، بعدد من الأمثلة، إمكانية التعبير عن الذاتية بضمير الشخص الثالث "هو" وما يدور في فلكه، وذلك بواسطة ظاهرة الأسلوب غير المباشر الحر، التي تَبين أنها ظاهرة "تنقض نظرية بنفنيست عن نظام الضمائر ولا سيما إلحاحه عن الشخص الأول معبِّرا وحيدا ممكنا عن الذاتية"[328].

لنتأمل في بعض الأمثلة من النماذج السردية للروائي عبد الإله الحمدوشي:

"عموما العصابة في مأزق وتنتظر مخرجا لها، هذا ما استنتجته من تجسسها، **ماذا لو نسقت بين هذا البوليسي المزيف من جهة وأوهمت العصابة من جهة أنه من رجال**

---

[326]. دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 48.

[327]. جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، مرجع سابق، ج1، 365.

[328]. نفسه، 362.

الشرطة المكلفين بالعمل في الحاجز الأمني ثم ترى ما سيحدث لاحقا. طبعا لا يمكن أن تورط نفسها في مثل هذا الأمر دون مراجعة العميد...." [الحنش، ص 74].

"وبرغم أنها قضت ليلة كاملة من النوم العميق فقد بدا الإعياء على **وجهها الجميل**". [الحنش، ص 105].

فرغم إيراد السرد بصيغة ضمير الغائب؛ إلا أن هذه الوحدات اللغوية التي أبرزناها بخط غليظ تكشف ذاتية السارد، وهي عبارة عن ردود أفعال خاصة به، وأحكام قيمية ذاتية، واستفهامات وافتراضات مضمرة. وبهذا توصل جاك موشلر وآن ريبول إلى أنه يمكن التعبير عن الذاتية بضمير الشخص الثالث أيضا وليس فقط بضمير الشخص الأول. وبالتالي فـ "إن هذه المقدرة التي لأسلوب غير المباشر الحر في الإفصاح عن الذاتية والتعبير عنها بلفظ الشخص الثالث لتنقض بوضوح التحليل الذي اقترحه بنفنيست لنظام الضمائر الشخصية"[329].

إن كان هذا الذي كشفنا عنه، (تداخل السرد والخطاب، التعبير عن الذات بضمير الغائب) يعد قصورا في التحليل، فمردُّه إلى أن إميل بنفنيست، في رأينا، يقصد أن ضمير الشخص الأول هو الشكل الوحيد للتعبير عن الذاتية؛ وذلك في صورة التعبير المباشر باستعمال "أنا"، وباستعمال المحددات الزمانية والمكانية الذاتية التي تحيل على الوضعية التلفظية للمتكلم. في حين أن التعبير الضمني والمضمر عن الذاتية يمكن أن نقول أنه يحضر حيثما استعملنا اللغة، سواء حضورا مباشرا – كما يحدث مع الضمائر الشخصية – أو غير مباشر عبر إضفاء بعض ردود الأفعال أو الأحكام القيمية الضمنية في الملفوظات المسرودة بضمير الغائب، أو "الملفوظات غير الموصولة بالوضعية التلفظية" بعبارة مانغونو. وهذا ما لم يسعف رائد التلفظية في النجاح في إخراج قاعدة شاملة لمستويات استعمال اللغة بناء على ثنائية حضور الذاتية وغيابها.

[329]. جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ج1، 362.

ينبغي أن نشير أيضا، إلى أن مستوى التلفظ الذي يستقل فيه فعل التلفظ عن الذات؛ يتحقق في أمثلة محدودة جدا؛ مثل النشرات الإخبارية غير المباشرة، وأثناء قراءة السيناريوهات أو التقارير، وفي لغة العلوم الحقة، ولغة التاريخ الدقيقة، في حين أن الخطاب الأدبي، وخصوصا الخطاب الذي يغلب عليه الوصف لا يمكن أن ينضبط لهذا التقسيم: تاريخ/خطاب، نظرا للعوامل التالية:

- غياب صفاء الجنس الخطابي، حيث لا يمكن أن نجد سردا محايدا خاليا من الخطاب، كما لا يخلو أي خطاب من ملامح السرد المحايد؛
- الانطلاق من الذات المتلفظة الواصفة في عملية الوصف، فالأشياء الموصوفة لابد أن يعْلق بها شيء من تلك الذات، ولو لم يشأ الواصف ذلك؛
- خصوصيات الخطاب الأدبي، الروائي بالخصوص، الذي يقوم على الوصف، يصاحب فيه، دوما، الوصفُ السردَ.

نستنتج من هذا، جوابا عن سؤال إشكالي سبق طرحه، هل استطاعت نظرية التلفظ أن تقدم قاعدة شاملة لتصنيف الخطاب الروائي؟. إن لسان حال هذه القاعدة التي قدمها إميل بنفنيست تقول إنه توجد حالات شاذة يصعب أن نضبطها بهذه القاعدة، بسبب هيمنة الذات الكاتبة في الخطاب الروائي والأدبي عامة.

ورغم وجود هذه الجوانب النظرية التي أعيد فيها النظر، إننا لا ننكر أن إميل بنفنيست استطاع أن يُسيِّج أشكال تمظهرات الذات في صورتها المباشرة وقدم الأدوات اللغوية التي تسمح بذلك وحدد الضمائر والأزمنة الذاتية وغير الذاتية... إنه بالفعل "كان له الفضل في إعطاء دفعة جديدة للأبحاث، بترك حقل الجملة للولوج إلى حقل الخطاب"[330].

[330]. ألفا أوصمان باري، تحليل الخطاب، أسسه النظرية، مرجع سابق، ص 139.

خلاصة

خلاصة القول مما سبق؛ إن إميل بنفنيست قدم تصنيفا جديدا للخطاب من زاوية الذاتية في اللغة، فصنف فعل التلفظ إلى تلفظ تاريخي يقدم مضمونا معزولا عن الذات المتلفظة عبر استبعاد الأدوات الإشارية الذاتية، وتلفظ خطابي يكتسي صبغة ذاتية المتلفظ حين يعمد إلى توظيف الإشاريات الذاتية واستحضار عناصر الوضعية التلفظية في الخطاب.

غير أن هذا التصنيف أثار نقاشا كبيرا بين الباحثين اللسانيين نذكر منهم دومنيك مانغونو وآن ريبول وجاك موشلار، إذ كشف هؤلاء عن أوجه قصور هذا التصنيف نتيجة العوامل التالية:

1. عدم كفاية الأدوات التصنيفية أي الضمائر والإشاريات في تقديم معايير ثابتة لهذا التصنيف؛
2. عدم انفكاك اللغة عن الذات المتلفظة حتى في الحالات التي تتطلب ذلك، مثل حالة الخطاب التاريخي وخطاب العلوم الدقيقة؛
3. ارتباط الخطاب الروائي بالوصف وارتباط هذا الأخير بالذات الواصفة، إذ توصلنا إلى أن أوجه ضعف هذا التصنيف تتجلى أكثر في الخطاب الروائي.

وتوصلنا، أيضا، إلى أن هذا العوز الذي يعتري هذا التصنيف البنفنيستي لم يمنع الباحثين من الإقرار لإميل بنفنيست بمجهوداته وبجدة رؤيته التحليلية التي اقترحها، كما أنه لم يمنعنا من أن نقر له بمجهوداته بصدد إعادة الاعتبار للذات المتكلمة ولفعل التلفظ في اللسانيات.

الفصل السادس:

تواصلية الخطاب الروائي:

في ضوء نموذج أوركيوني

تمهيد:

إن تقديم نظرية شاملة للخطاب، بكل جوانبه، يتطلب الإحاطة بكل قضاياه التي تمس نوع الزاوية التي نعتمدها في تحليلنا للخطاب، ومن هذا المنطلق سعى رواد لسانيات التلفظ إلى إعطاء تصور لساني شامل حول مفهوم الخطاب والقضايا التي تشاكله أثناء التلفظ به. وقد أسهمت أوركيوني من جهتها، في تقديم وجهة نظرها بصدد تلفظية الخطاب، وأشكال التأثير التي يُحدثها فعل التلفظ في العملية التواصلية، كما كشفت عن أهم متطلبات هذه العملية من كفايات لسانية وغير لسانية، إضافة إلى أنها أماطت الغطاء عن أوجه النقص التي اعترت المقاربة التواصلية "المثالية" التي اقترحها رومان جاكبسون، والتي تعكس وجهة نظر البنيويين للغة، والخطاب أيضا.

ومنه سنحاول في هذا الفصل الكشف عن القضايا السابق ذكرها، عبر الإجابة عن الإشكالات التالية:

1. ما هي خصائص المقاربة التلفظية لعملية التواصل؟؛ وما الذي يميّزها عن المقاربات السابقة (مقاربة جاكبسون نموذجا)؟؛
2. وإلى أي حد استطاعت لسانيات التلفظ احتواء عملية التلفظ وجوانبها الخارج لسانية؟؛
3. وإلى أي حد يستجيب النموذج الأوركيوني لخصوصيات الخطاب الروائي؟.

1. تحليل الخطاب الروائي: من النص إلى الخطاب

لم يكن الخطاب الروائي بمنآى عن تلك التحولات التي عرفتها الدراسات الإنسانية والاجتماعية، بما فيها الدراسات اللسانية، بعد أن "انتُقِدت بحدة في معظم التخصصات الفلسفة الوضعية التي أدت إلى سوء فهم خطير للعلم، مما فتح آفاقا جديدة للأبحاث التفسيرية التي تركز على الأشكال الاجتماعية والاستطرادية والثقافية للحياة، مقابل أبحاث بلا جدوى عن القوانين العامة لسلوك الإنسان. في أعقاب هذه التغيرات جذبت أشكال السرد وأجناسه الانتباه بشكل خاص"[331].

لقد تغيرت نظرة الباحثين في تحليل الخطاب الروائي، مع تطور المقاربات الخاصة بهذا الخطاب، إذ كان البنيويون ينظرون إليه على أنه مجموعة من الجمل المنزوعة من سياق استعمالها، قادرة على تكوين دلالتها بمعزل عن العوامل خارج ـ لغوية، وبالتالي إقصاء كل الأدوار التي يؤديها الروائي في بناء الحوار الثقافي والاجتماعي والأدبي عبر عمله الروائي، أو عبر حوار الشخوص المدرجة فيه، وهو حوار يمكن عدّه نموذجا مصغرا من النماذج الحوارية التي نشهدها في حياتنا اليومية، أو شكلا من أشكال التواصل المؤسساتي بين الأفراد والجماعات والمؤسسات.

غير أن هذه المقاربة البنيوية، لخصوصياتها المنهجية الصارمة، لم تأخذ بعين الاعتبار هذا التمثيل التواصلي الذي يقدمه الخطاب الروائي للمتلقي. مما جعل هذه النظرة البنيوية لم تصمد كثيرا أمام الرغبات المُلِحّة في فتح الدراسات الأدبية عامة والروائية خاصة على حياة الناس والمجتمعات. ولأجل ذلك اتجه الباحثون نحو البحث في قضايا التواصل التي ينسجها الأدب مع القارئ ومع المجتمع، والبحث في أشكاله وإشكالاته. وتكمن أشكال هذا التحول، أو هذا التغيّر، الذي شهده تحليل الخطاب الروائي في انتقال

[331]. جينز بروكمبير ودونال كربو، السرد والهوية، دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2015، ص 70.69.

الباحثين من النظر إلى الإنتاج الروائي باعتباره نصا إلى اعتباره نموذجا من نماذج الخطاب الفردي والجماعي، يُعتبَر فيها الروائي "منتجا للمعرفة محاورا لثقافته ولمجتمعه. ومن تم، فإن إنتاجه لا يمكن أن يكون مادة "محايدة" تتلقفها الأسلوبية التقليدية لتصفها وصفا لسانيا أو تبرز مدى تفرُّدها التعبيري والمعجمي"[332].

بعبارة أخرى؛ أصبح "من أوائل الأمور المستلزمة في إعمال الفرضية الفلسفية لخطاب الحداثة أن نفترض كون السرد سيرورة تواصلية ناتجة عن تفاعل بين موقعين تركيبين ووظيفيين: السارد والمتلقي (المسرود له أو القارئ). ويلزم عن هذه الافتراض، الانتقال الإجرائي من اعتبار الإنتاج الروائي نصا Text إلى اعتباره خطابا Discourse، وبالتالي التحول المنهجي من الرؤية الدلالية الرمزية إلى الرؤية التداولية المعرفية. والأعمق من ذلك، أن نرتضي استراتيجية توسيعية تقر بأن السرد إفراز لتفاعل النصي والثقافي والاجتماعي"[333].

هذا؛ ويشير أحمد العاقد إلى أنه كلما أخذنا بعين الاعتبار تفاعل ما هو لساني بما هو ثقافي وتعالق الذات بمعرفة العالم "قلنا إن الكتابة الروائية فعل تواصلي بامتياز. لما لا؟ ونسق الكتابة في الرواية المعاصرة يتأسس على التجريب السردي في تحقيق تواصل إبداعي يضمن إنجازات تخييلية متميزة. ومن تمة، نذهب إلى أن التحديث في البنية السردية والتجريب في الكتابة الروائية تفعيل سيميائي في اللغة والعالم. ولما تلازم التحديث والتجريب في تشكيل نسق الكتابة من منظور حداثي وجب علينا وسم النسق السردي وسما تواصليا حيث ترجيح الموجه تداوليا على المؤسس قضويا. وترجيح الإنجازي على النحوي"[334]؛ أي ترجيح التحليل التلفظي/ السياقي/ التفاعلي على التحليل النسقي المغلق. ونرى في هذا أن الباحث العاقد أخذ بافتراض السرد "سيرورة تواصلية" قائمة على التفاعل

---

[332]. ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 22

[333]. أحمد العاقد، آليات التواصل، دراسات في تنوع أشكال الخطاب، مرجع سابق، ص 89.

[334]. أحمد العاقد، نفسه، ص 89.

بين السارد والمتلقى، وبالتالي الانتقال الإجرائي من اعتبار الإنتاج الروائي نصا إلى اعتباره خطابا؛ يتفاعل فيه ما هو لغوي بما هو اجتماعي وثقافي. ويأخذ هذا التفاعل الشكلين التاليين:

- **تفاعل داخلي:** يشمل البنيات الحوارية بين السارد والمسرود له والتي تتأسس على ثنائية: الأنا/الأنت، وازدواج التخاطب...؛
- **تفاعل خارجي:** يتضمن البنيات التخاطبية بين السارد والقارئ اعتمادا على مؤشرات اللغة المحلية local language[335].

جملة القول مما سبق؛ إن الخطاب الروائي ليس مجموعة من الجمل التي تشكل نصوصا مستقلة بذاتها، لها عالمها الخاص و"الافتراضي" كما يحبُّ البنيويون أن يسموه كذلك؛ وإنما هو خطاب أو نسيج من الخطابات، التي لا انفكاك لها عن ذاتية السارد والمؤلف، وعن محيطهما الاجتماعي الذي أنتجت فيه. وبالتالي فأي نظرة إلى هذا الخطاب غير آبهة بهذه الخصوصيات وهذه التفاعلية، تبقى نظرة تجريدية اختزالية، ناقصة، كحال نظرة البنيويين والشكلانيين.

إذ يؤكد الباحثون المهتمون بالدراسات ما بعد الحداثة، أو ما يسمى أيضا بالدراسات ما بعد البنيوية على أن الوضعية السردية ليست "سوى نسيجٍ من العلاقات يتطلب ضبطها وتحليلها وصف العلاقات الوثيقة بين الفعل السردي ومنتجه وناقله، ومحدداته الزمنية والفضائية، وترابطاته مع باقي الأوضاع السردية المشاركة في المحكي"[336]. وبهذا فهُم يُجمعون على ضرورة إعادة ربط الصلة بين الآداب والمجتمع والذات المنتجة والمتلقية لخطاب هذا المحكي. وهذا ما "يتطلب إذن مقاربة نقدية ثقافية حوارية تبحث في علاقتها كنص بالكاتب والقارئ والبنيات الخارجية والسياقات الثقافية المؤثرة في الإنسان

---

[335]– أحمد العاقد، آليات التواصل، دراسات في تنوع أشكال الخطاب، نفسه، ص 92.

[336]– إبراهيم عمري، خطاب الرواية المغاربية، منشورات شعبة الآداب والتواصل، مطبعة أنفو برانت، فاس، ط1، 2014، ص 43.

وتطلعاته وبحثه اللاهث عن الحقيقة"[337]؛ بمعنى مقاربة تداولية استعمالية تُشرك الفاعل الأدبي في الفاعلية الاجتماعية، وهي المقاربة التي تضع الباحثين أمام تحدٍّ، لخَّصه إدريس الخضراوي في تحدي الانتقال من توصيف النصوص باعتبارها تحققات جمالية؛ إلى العمل عليها "بوصفها أعمالا متجذرة في السياقات الثقافية والاجتماعية والسياسية. أي أنها أجزاء من الأحداث الاجتماعية، لأن التكلم والكتابة هما إحدى طرق الفعل والتفاعل بين الناس"[338]. وفيما يلي سنخوض في وجه من أوجه هذا التحدي، وهو مساءلة التفاعل التواصلي بين مكونات الخطاب الروائي فيما بينها، والنظر إلى أشكال الحوار والتواصل التي ينسجها هذا الخطاب مع السياق الاجتماعي الذي انبثق منه، وولد فيه. وسنلتمس في هذه المساءلة إجراءات النموذج التواصلي/التلفظي الذي اقترحته كاترين كربرات أوكشيوني.

ومنه سنحاول في هذا الفصل الكشف عن أوجه تواصلية الخطاب الروائي في ضوء النموذج التواصلي الذي اقترحته كاترين كيربرات أوركيوني، والتي تعد من أبرز المساهمين الفاعلين في لسانيات التلفظ.

2. كاترين كيربرات أوركيوني: من التواصل إلى التلفظ

ساهمت أوركيوني باقتراحات منهجية ونظرية في تطوير النظرية التلفظية، في كتابها «l'énonciation de la subjectivité dans le langage» عالجت فيه، أولا، الإشكالات التي تواجه البحث التلفظي، (والتي أشرنا إليها سابقا)، ثم إن ما يميز مجهودات هذه الباحثة، هو أنها انطلقت من المقاربة الجاكبسونية في التواصل ووقفت عند خصائصها البنيوية التي لا تنسجم مع الرؤية التلفظية لعملية التواصل، ومن ثم قامت بتعديل النموذج الذي قدمه جاكبسون، وأدخلت عليه القضايا التي تتدخل في عملية

[337]. إدريس الخضراوي، سرديات الأمة، تخييل التاريخ وثقافة الذاكرة في الرواية المغربية المعاصرة، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2017، ص 22.

[338]. إدريس الخضراوي، سرديات الأمة، مرجع سابق، ص 25.

التلفظ، والشروط المطلوب توفرها في عناصر التلفظ. وهذا ما يدل على انسجام وتكامل الجهود التي جاء بها رواد لسانيات التلفظ. فإذا كان إميل بنفنيست قد أعاد النظر في بعض المسلمات السوسيرية والبنيوية عامة، فإن أوركيوني، من جهتها، قد أعادت النظر في المقاربات التواصلية التي لا تأخذ بعين الاعتبار خصائص عملية التلفظ وشروطها الضرورية.

وفيما يلي سنكشف عن النموذج الذي قدمته أوركيوني، وعناصره، مع إسقاطها على نموذجنا الروائي.

كما أشرنا، فقد انطلقت أوركيوني من الخطاطة التواصلية لرومان جاكبسون R. Jakobson، التالية[339]:

السياق

المرسل ——— **الرسالة** ——— **المرسل إليه**

القناة

السنن

ورُصدت لهذا النموذج مجموعة من الانتقادات، نذكر منها:

1. **تغييب الظروف الخارجية:** والتي يمكن أن تسهم في نسج عملية التواصل بشكل واضح دون وقوع أي اختلاف بين المتخاطبين فيما يتعلق بالثقافة والطابع الاجتماعي. وهو تغييب يبيِّن غياب الوعي بعدم انفكاك مضمون الرسالة عن الأشكال والعادات والظروف الملموسة المحيطة بعملية الإرسال، حيث إن "الشكلانين [ومن بينهم

[339] . Dubois Jean et autres, Dictionnaire de linguistique, librairie Larousse 1973, P 99.

جاكبسون] يفترضون، في تأويلهم اتصالا محددا سلفا، وإرسالا ثابتا بصورة مساوية..."[340].

2. **عدم مراعاة تعالق البعد النفسي لعنصري التواصل بالبعد الاجتماعي**، وهو بعد يؤثر في المتخاطبيْن وفي موضوع التواصل، ويُعْذَر جاكبسون على هذا الإغفال، نظرا للرؤية التي اعتمدها في الخطاطة، وهي رؤية تقصر غايات التواصل على نقل المعلومات والأخبار فقط. في حين أن التواصل يكون بيذواتيا Intersubjective "وهو السيرورة التي تكون فيها الدلالة التي يربطها المتكلم بالأصوات هي نفسها التي يربطها المستمع بنفس تلك الأصوات"[341]. بمعنى أنه يكون هناك اتفاق مبدئي على مستوى عقد السنن " Encodage" وحله " décodage"، مما يستدعي الجمع بين عناصر العملية التواصلية وأبعادها النفسية والاجتماعية. ومرد هذا الإبعاد للجوانب الخارجة عن البنية التواصلية، هو المصدر التي انبزغت منه هذه الخطاطة؛ وهو المقاربة البنيوية الشكلية لعملية التواصل بكل أنواعها.

3. **تختزل الخطاطة عملية التواصل** في "عملية بسيطة تشبه في بنيتها العامة نظام نظرية التواصل théorie de communication التي وضعها شانون وويفر"[342].

4. **تمثل هذه الخطاطة تواصلا متجانسا وخطيا**، في حين أن التفاهم بين المتلفظ والمتلفظ له لا يمكن أن يكون إلا تفاهما جزئيا، حتى وإن التزم المتلفظان بنفس المعنى اللغوي، لأنه ليس من الضروري أن يكون لهما نفس التصور (أو الإدراك)

---

[340]- تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين: مبدأ الحوارية، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1992، ص 113.

[341] - Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, P 96.

[342]- غلفان مصطفى، في اللسانيات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2010، ص 84.

Conception[343]، وقد تتسع الهوة بين تصوريهما إذا غاب ما يسمى بـ "مبدأ التعاون" الذي جاء به بول غرايس، وذلك بسبب:

- تفاوت مستوى الفهم والإدراك بين المرسل والمرسل إليه؛
- تباين كفاياتهم الإيديولوجية والثقافية والتأويلية؛
- المسافة الفاصلة بين فعل الإنتاج (التلفظ) وفعل التأويل (التلقي)، فعند تباين المسافة بين الفعلين يُلاحظ، بوضوح، الدور الذي يلعبه سياق التلفظ وسياق التلقي في تغيُّر معنى الملفوظات المُنتجة وتجدّده.

5. "لا تقول الخطاطة شيئا عن الكفايات الخارج لسانية (موسوعية، أو نفسية أو ثقافية).

6. لا تتضمن هذه الخطاطة أي نموذج للإنتاج (إشفار) وللتأويل (فك الإشفار)."[344]

7. يمكن أن نذكر أيضا أن هذا النموذج لا يعبّر عن السلوكات غير اللغوية المرفقة بعملية التلفظ، وهي سلوكات تؤثر في عملية الإنتاج وتتحكم في عملية التأويل كذلك، التي نلمسها في الخطاب الروائي من خلال بعض الملفوظات التي يستعين بها السارد لإبراز وضعية المتلفظ أو المتلفظ المشارك النفسية أو الجسدية حال إنتاجهما للملفوظات، وغالبا ما يضع هذه الملفوظات الواصفة بين قوسين للدلالة على تدخله في وصف الظروف المحيطة بإنتاج الملفوظ. أما أوركيوني فقد عبرت عن هذا بإدراج الكفايات خارج لسانية وقيود عالم الخطاب في نموذجها التواصلي.

وترى ك. ك. أوركيوني، أيضا، أن النموذج الذي قدمه جاكبسون في التواصل اللساني أقصى الجوانب المحيطة بالعملية التواصلية والقدرات اللغوية والثقافية والإيديولوجية للمخاطبين، والتي تساهم أحيانا في إنجاح هذه العملية، أو إخفاقها أحيانا أخرى.

---

[343] . Orecchioni, C.K. L'énonciation de la subjectivité dans le langage, p 15.

[344]. ماري آن بافو و جورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص 285-286.

وانطلاقا مما سبق؛ قامت "أوريكيشوني" بإعادة النظر في النموذج الجاكبسوني واقترحت الازدواجية السننية بدل الأطروحة الأحادية للسنن لدى جاكبسون، وتقول في خطاطة هذا الأخير إننا "نجد السَّنن مُصوَّغاً ومفردا ومعلقا في الهواء بين المرسل والمستقبل"[345].

وقدمت نموذجا تواصليا ملائما لمتطلبات نظرية التلفظ في خطاطة على الشكل التالي:[346]

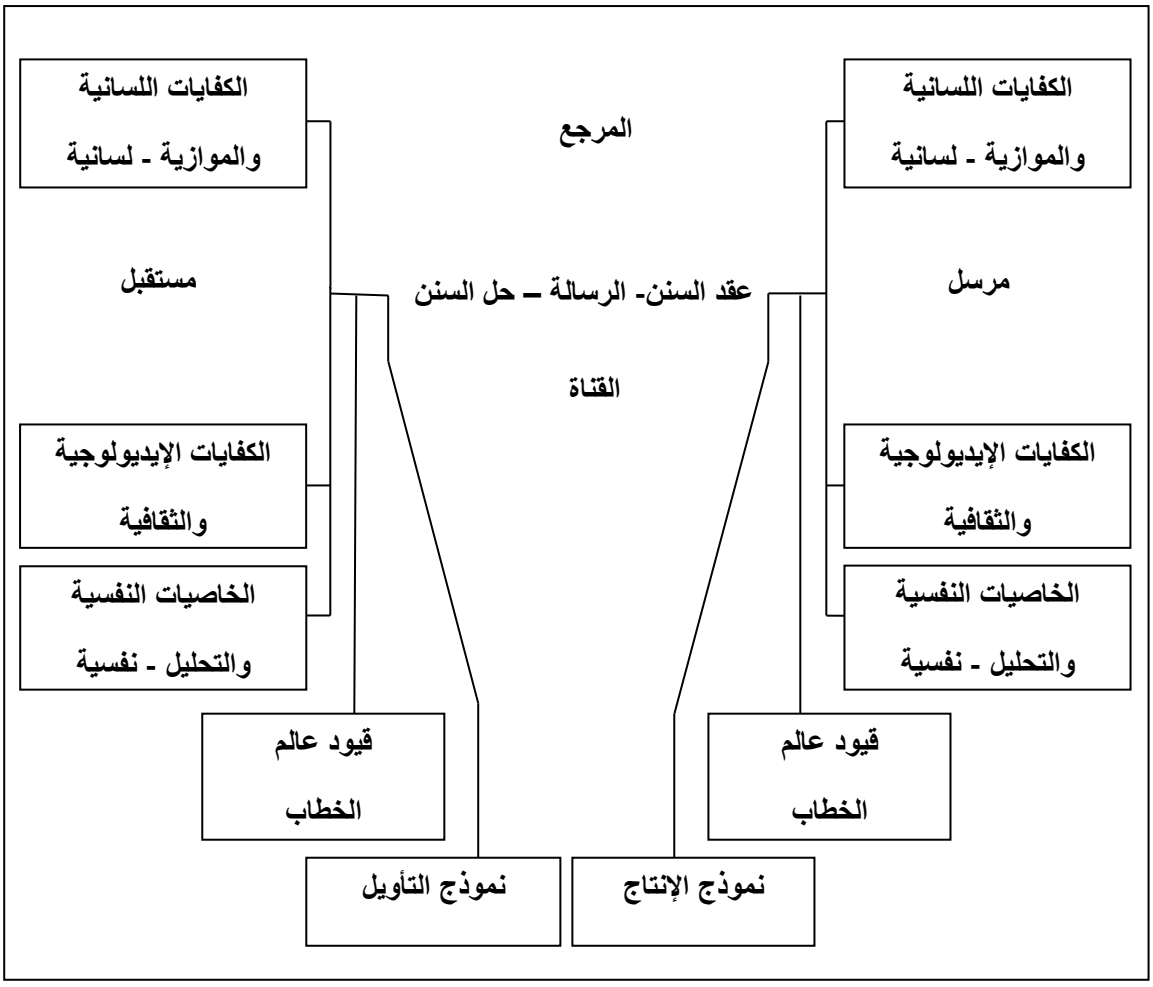

[345] . Orecchioni, C.K. L'énonciation de la subjectivité dans le langage, PP 13-14.

[346] . Orecchioni, C.K. L'énonciation de la subjectivité dans le langage, p 19.

نسجل هنا، أن هذا النموذج احتفظ بنفس عناصر النموذج السابق، والجديد الذي طرحه هو الشروط الواجب توفرها في عنصري التواصل وهما المرسل والمرسل إليه، ومن بينها أن يتوفرا على كفاية لسانية وكفاية موازية لسانية. ونسجل كذلك أن أوركيوني أخذت بعين الاعتبار تفاعل اللغة مع قيود عالم الخطاب.

تشتغل العملية التواصلية، بناء على هذا النموذج، انطلاقا من تشغيل المتكلم كفايته اللسانية والإيديولوجية والثقافية في إنتاج الرسالة (كالرواية مثلا) باعتبارها عملية تتدخل فيه العناصر التالية:

1. **الظروف السياقية والمرجعية التي تحيط بالملفوظات المنتجة**؛ وهي ظروف قد تكون مدرجة داخل ملفوظات الرسالة مثل حال تكرار الوصف في العمل الروائي، أو قد تظهر في تحكمها في الاختيارات اللغوية للروائي، وهي اختيارات يراعي فيها حال المتلقي والسياق الزمني والمكاني الذي ينتج فيه رسالته.

2. **قيود عالم الخطاب Contraintes de l'univers de discours**، التي تقوم بتوجيه نشاط عقد السنن، وتتشكل هذه القيود من عاملين وهما:[347]

- ✓ الظروف الملابسة للتواصل؛
- ✓ الخصائص الموضوعية والبلاغية للخطاب، وبالإجمال، قيود "الشكل".

وقد مثّلت أوركيوني لكيفية تدخّل العنصرين السابقين بنموذج "خطاب الأستاذ" على سبيل المثال وأكدت على أن تحليله يستدعي ضرورة مراعاة ما يلي:

أ. طبيعة خصائص المتكلم؛ وطبيعة المستمعين (عددهم، وعمرهم، مستواهم، وسلوكهم)؛ وشكل التنظيم الأداتي، السياسي، الاجتماعي للفضاء المرتبط بالعلاقة الديداكتيكية، إلخ؛

[347]. Orecchioni, (C.K). L'énonciation de la subjectivité dans le langage, P 17.

ب. مراعاة أن كل خطاب يتأثر بالقيود التالية: خطاب ديداكتيكي (عامل الجنس الخطابي) الذي يعالج اللغة (العامل الموضوعي). أي أن خطاب الأستاذ يندرج ضمن الخطاب الديداكيتي التعليمي، كما أنه خطاب موضوعه هو "اللغة".

هذا فيما يتعلق بنموذج الإنتاج أو عملية عقد السنن الذي يقدمه المرسل؛ ويقابله نموذج التأويل والذي يضطلع به المرسل إليه/ المتلفظ المشارك، ويتم هذا التأويل عبر تفعيل الكفاية اللسانية والموازية اللسانية؛ أي العوامل المرافقة للملفوظ والتي تسهم في عملية فك السنن لدى المستقبل، ثم التحديدات النفسية والتحليل النفسي، مع مراعاة قيود عالم الخطاب التي تُلزم المرسل/المستقبل بربط الملفوظات بإطار السياقات التلفظية التي أُنتجت فيها. وتحدد أوركيوني قيود عالم الخطاب المتحكمة في عملية حل السنن في المعطيات التالية:[348]

- المعطيات السياقية Les données situationnelles؛
- القيود الموضوعية البلاغية Les contraintes thématico-rhétoriques.

إن البنية الهندسية لهذه الخطاطة تُبين أن المرسل يفعِّل، أولا، كفاياته اللسانية والموازية لسانية، وهي تلك الحركات والملامح والإيماءات المرفقة بفعل التلفظ. ثم يتبعها بتفعيل الكفاية الإيديولوجية والثقافية للتمكن من تحقيق عملية التواصل، ثم إن إيراد السهم الرابط بين الكفايات وعملية الإنتاج باعوجاجه بسبب خانة قيود عالم الخطاب، يكشف بالملموس أثر تلك القيود في عملية إنتاج الخطاب التي تصاحب العملية التواصلية برمتها، وتتوزع إلى "ما هو لساني مرتبط بشكل الخطاب أي التزام خاصيات موضوعية وبلاغية تجعل التبادل ممكنا أثناء العملية الحوارية، ومنها ما هو خارج – لساني مرتبط

[348] . Orecchioni, (C.K). L'énonciation de la subjectivité dans le langage, p 20.

بالسياق العام للحوار، حيث يمكن الامتثال لشروط السياق ضامنا لتبادل ناجح بين أطراف الحوار"[349].

ونفس الأمر ينعكس لدى المستقبل في مرحلة التأويل، وتستمر العملية في دائرة حوارية، عبَّرت عنها أوركيوني بقولها: "في خطاطتنا نفترض عندما يتكلم أحد فإن الآخر يستمع في صمت، والعكس بالعكس، يعني أن المتلفظين يلعبان تبادل الأدوار بين مرسل ومستقبل"[350]. وهذا هو وجه الوعي بتواصلية الخطاب في نظرية التلفظ.

كما يتجلى – في الخطاطة – تأثير عالم الخطاب في التبادل التواصلي، في إمالة السهم المتجه نحو عمليتي الإنتاج والتأويل، والسبب في ذلك هو القيود المحيطة بالخطاب، مما يبين أن هذا النموذج ينطوي على الكثير من نوايا التلفظيين في الكشف عن فاعلية الخطاب والتلفظ، وحجم الأثر الذي تلحقه بهما قيود عالم الخطاب.

3. كفايات النموذج التواصلي التلفظي

1.3. الكفايات اللسانية

هي الكفاية التي تُعنى "بالعناصر الدالة النصية والسياقية الحالية النصية، فضلا عن الهامشية النصية (أو على الأقل النطقية، وتنسب إليها، بمقتضى قواعد اللغة التكوينية، وبعض المدلولات)."[351] فدور هذه الكفاية هو الكشف عن المحتويات المضمرة في الخطاب، ولكن بضرورة الاستعانة بالمحتويات الظاهرة؛ أي تشغيل هذه الكفاية لتحليل المعنى المباشر للعناصر النصية والسياقية والإجهاز عليه لبلوغ المعنى المضمر.

---

[349]. محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2010، ص 28.

[350] . Orecchioni, (C.K). L'énonciation de la subjectivité dans le langage, p 21.

[351]. كاترين كيربرات أوريكيوني، المضمر، ترجمة ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008، ص 284.

إذا كانت الكفاية اللسانية عند تشومسكي "هي المعرفة اللسانية الضمنية للأفراد المؤهلين لاستعمال لسان معين"[352]؛ تتجلى في استبطان نظام القواعد التي تحدد الشكل الفونيتيقي للجملة ومضمونها الدلالي للغة المعتمدة في التواصل. وترتبط، أيضا، بمفهوم الإبداعية في اللغة. فإن المقاربة التلفظية، في هذا الجانب، لا تفصل بين الكفاية اللسانية والكفاية التداولية وباقي الكفايات الإيديولوجية والثقافية التي تسهم إسهاما فعالا في إنجاح العملية التواصلية، والكشف عن معنى المعنى في الخطاب.

وما دام أن المقاربة الجاكبسونية تقوم على المحايثة، فكان لزاما من رائدها غض البصر عن أثر الجانب التلفظي والسياقات التلفظية في عملية الإبداع، وفي السيرورة التواصلية عامة. غير أنه في مجال تحليل الخطاب لا ينبغي الوقوف عند هذه الكفاية اللسانية فقط؛ وإنما تُضاف إليها الكفايات غير اللسانية، ومنها الكفاية التداولية "التي تنطوي على قواعد تسمح للمتكلم بتأويل ملفوظ بالنسبة إلى سياق بعينه، ومن بين هذه القواعد (قواعد الخطاب) Les lois du discours"[353].

2.3. الكفايات غير اللسانية

وهي التي تشمل الكفايات الموسوعية والثقافية والإيديولوجية. وتقصد أوركيوني بالكفاية الموسوعية (أو الثقافية) مجموع المعارف الضمنية التي يمتلكها الفرد حول العالم، أما الكفاية الإيديولوجية فتُحددها في مجموع الأنظمة التأويلية والتقيمية للعالم المرجعي، ومن خواصها الكشف عن الاختلافات الإيديولوجية les divergences idiolectales، وهي كفايات تربطها علاقة تقاطع وتناغم بالكفايات اللسانية[354].

---

[352]. حسن بدوح، المحاورة، مقاربة تداولية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012، ص 121.

[353]. دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 23.

[354] . Orecchioni, (C.K). L'énonciation de la subjectivité dans le langage, p 18.

تُسْتَغَلُّ الكفاية الموسوعية باعتبارها "خزانا رحبا يضم معلومات خارجيةً تعبيريةً تتناول السياق، أو باعتبارها مجموعة معارف ومعتقدات، ونظام من تمثيلات العالم المرجعي وتأويلاته وتقويماته"[355]، يسخّر المرسل/المستقبل جزءا بسيطا منها في عمليتي الإنتاج والتأويل.

وتختلف معطيات الكفاية الموسوعية بناء على طبيعة الوضعية الحوارية، وتتخذ هذه المعطيات شكل:[356]

- معطيات عامة أو خاصة؛
- معلومات متعلقة بالعالم الخارجي، أو بفاعلي التلفظ؛
- معطيات حيادية أو تقويمية؛
- معطيات خارج لغوية تُسعف في تحديد معنى السلوكات اللغوية وغير اللغوية؛
- معطيات قد يُجمع عليها الفاعلون الحواريون الذين تتقاطع كفاياتهم الموسوعية بدرجة متفاوتة من حيث قوَّتها، وقد يختلفون بشأنها تبعا لمستوى الخطاب ونوعه.

كما تضطلع الكفاية الموسوعية بأدوار جلية في عملية فك سنن الرسالة الخطابية، إذ تساهم "أصلا في عملية فك ترميز المحتويات البيِّنة (على غرار رفع المجانسة والتعددية الدلالية وإنشاء علاقات مرجعية رديفة)؛ ولكنها تتدخّل على نحو جليٍّ ومكثف أكثر بكثير في عملية فك ترميز المحتويات المضمرة"[357]؛ التي تتطلب، بالضرورة، توظيف معارف خارج لغوية للكشف عن "المسلمات الصامتة" (أو المسكوت عنها) المخزنة في الكفاية الموسوعية، والتي تؤازر الكفاية اللغوية أيضا في كشف مضمرات الخطاب.

ثم إن ما يميز الكفاية الموسوعية أنها عبارة عن خزان ينمو ويتطور باستمرار عبر الممارسة اللغوية وتفاعل الفرد مع الأحداث الاجتماعية المحيطة به، "فهي رصيد يفتأ

---

[355]. كاترين كيربرات أوريكيوني، المضمر، مرجع سابق، ص 285.

[356]. كاترين كيربرات أوريكيوني، المضمر، ص 285-287.

[357]. كاترين كيربرات أوريكيوني، المضمر، نفسه، ص 287.

يكبر، ولا ينفك المتكلم يضيف إليه مستفيدا في ذلك من الأحاديث التي يشارك فيها والخطابات التي يسمعها أو يقرؤها".[358]

- **لنتأمل في المقطع التالي:**

"قبل أن يترك المنزل قبَّل رأس أمه من جديد وقال بامتنان:

- دعواتك لي يا أمي

قالت وعيناها تلمع بدموع الرضا والفرح:

- الله يخرج 'سربيسك' على خير

تبعته إلى باب المنزل وهي تدعو له ولم تتوقف إلا بعد أن ترك الزقاق" [الحنش، ص 15].

فالملفوظ: "الله يخرج 'سربيسك' على خير" يكشف لنا عن معطيات خارج لغوية والتي تحكمت في اختيار "الأم" كلمات خاصة في دعائها لابنها فريد، فكلمة "سربيس" أصلها كلمة فرنسية تم تعريبها وهي "le service"، يعود سبب اختيارها إلى رغبة الأم في توجيه الدعاء للتيسير في أمور العمل، حيث فهمت أن ابنها فريد يطلب دعاء يخص العمل، انطلاقا من سياق تلفظه بطلب الدعاء، لما قال: "دعواتك لي يا أمي"، وهو سياق استيقاظه من النوم والاستعداد لمغادرة المنزل صوب مقر العمل الذي يدعي أنه يزاوله باعتباره شرطي المرور. ولو طلب منها الدعاء له في سياق آخر غير هذا لاستعملت ملفوظا آخر غير "الله يخرج سربيسك على خير"، وهو نفس الملفوظ الذي استعملته "لالة مينة"، قائلة له: "الله يعينك يا ولدي ويخرج سربيسك بألف خير" [الحنش، ص 17]. مادام أن سياق الملفوظين معا لم يشهد أي تغيُّر ملحوظ، مما يؤكد "بأن الخطاب يعيش على حدود سياقه وعلى حدود سياق الآخرين"[359].

---

[358]. حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 44.45.

[359]. ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 57.

ومنه فإن المتلفظ "الأم" قد استعان بمعطيات خارج لغوية في إنتاج ملفوظ "الدعاء"، معطيات تصب في الكفاية غير لسانية، وهي الكفاية الموسوعية التي تضم "عددا هائلا من المعلومات المتواجدة خارج الملفوظ، إنها مستقاة بالأساس من المقام والتجارب السابقة ولذلك تعد معلومات خارج تلفظية (Les informations Extra-énonciatives)"[360].

وتظهر هذه الكفاية في معرفة الأم بظروف العمل في مجال الأمن، التي تفرض ومواجهة فئات مختلفة من المواطنين طيلة فترة العمل، إذ ساعدت هذه الكفاية "الأم لالة خيرة" في فك الرموز المضمرة في رسالة فريد وهي أنه لم يصرح أنه يريد الدعاء من أجل العمل، ولكن "لالة خيرة" استعانت بكفايتها الموسوعية للكشف عن الدعاء المطلوب بالتحديد.

- **لنتأمل أيضا القول التالي:**

"كان هو الوحيد الذي قيد بقيد منفرد وترك واقفا لأن الحنش اعتقد في البداية أنه ربما يكون دبلوماسيا متورطا، وهذا يتطلب في جميع الأحوال تعاملا خاصا حتى لا تثار مشاكل سياسية مع اسبانيا التي تتهم دائما المغرب بعدم احترام حقوق الإنسان" [الحنش، ص 136].

وردت في هذا النص مجموعة من الملفوظات التي تكشف عن الكفاية الموسوعية للسارد؛ من قبيل الكشف عن سبب تكبيل الرجل بقيد واحد فقط، وهو احتمال الحنش كون المتهم دبلوماسيا متورطا مع تلك العصابة، مما فرض عليه التعامل معه بشكل خاص، وبأسلوب أخذ فيه بعين الاعتبار هذا الاحتمال. ومنه؛ فهذه المعطيات تكشف لنا عن مستوى الكفاية الموسوعية للسارد، والتي استعان بها في كشف طبيعة الأحداث وطبيعة القرارات التي اتخذها "الحنش" بصددها. وهذه المعلومات الخاصة بالكفاية الموسوعية هي

[360]. حسن بدوح، المحاورة، مقاربة تداولية، مرجع سابق، ص 126.

معطيات خاصة تهم ميدان الأمن، ومجال العلاقات الخارجية بين الدول، كما أنها معطيات حيادية تقييمية تتجلى في الحكم على الصورة التي ترسمها السلطات الإسبانية لحقوق الإنسان في المغرب.

إن الكفايات الموسوعية والثقافية لا يجب أن تتوفر في شخوص الرواية أو السارد فقط، وإنما يجب على القارئ، أيضا، أن يتسلح بها لفهم الخطاب الروائي المقروء، إذ تساعده على تأويله انطلاقا من توسيع مداركه وربط ذلك الخطاب بالسياق السوسيوثقافي والسياسي الذي أنتج فيه. فرواية الحنش، على سبيل المثال، تسرد لنا مرحلتين من مراحل التطور الذي شهده المغرب، في علاقته بجهاز أمن الدولة، وسماهما الحمدوشي مرحلة "العهد القديم" ومرحلة "العهد الجديد"، مما يفرض على القارئ أن يكون على دراية بمجريات الأحداث السياسية والاجتماعية التي بصمت مرحلة "العهد القديم" وعلى إثرها تم إبرام عقد صلح مع كل من عاش ويلاته، والمضي إلى "العهد الجديد" وهو عهد الإنصاف والمصالحة والأمن "في خدمة المواطن"، إلخ. وقد أخذ الحمدوشي شخصية "العميد الحنش" مطية للحديث عن هاتين المرحلتين وتقديمهما للقارئ الذي لم يعش مرحلة "العهد القديم" أو "سنوات الرصاص"، أما من عاشها فليس في حاجة لذلك، ومن بين ما سرده في هذا الصدد نذكر قوله: "إنها مرحلة الانتكاسة الحقيقية لحقوق الإنسان حيث كان يعتبر الداخل إلى مخفر البوليس مفقودا والخارج منه مولودا وكان عدد القتلى بفعل التعذيب والشطط في استعمال السلطة يخلف أمواتا عدة كل سنة ودائما يبرر قتلهم بأنه انتحار أو من فعل الطبيعة، لا بحث ولا متابعة وأهل الضحايا يتسلمون جثث أهلهم ويدفنونهم في صمت من دون أن يكون ثمة لا شكوى ولا مسارا قانونيا يمكن اتباعه. في حالة الشكوى ستأخذ الأمور منحى سيئا تماما مثلما حدث للضحية الأولى [....] كان الفرق شاسعا بين حقيقة المحاضر التي كان يجبر المتهمون الأميون على وضع بصمتهم عليها وبين المخالفات أو الجرائم التي ارتكبوها، أما المتعلمون فكانوا يجبرون على التوقيع

تحت الإكراه البدني والنفسي على محاضر ملفقة. لذا، فالأمر الذي ليس ببعيد عن الحقيقة هو أن السجون كانت في جزء منها مملوءة بالأبرياء، والقضاء كان يسير بجهاز التحكم عن بعد" [الحنش، ص 33 – 34، وما يليهما].

فكل المعطيات الواردة في هذا المقطع تفرض على القارئ العودة إلى التاريخ السياسي للمغرب لإكمال الصورة التي وضعها الحمدوشي هنا عن طبيعة السلطات الأمنية في العهد القديم، حيث لم يشر إلى وضع المثقف أمام هذا الشطط في السلطة وردود أفعاله تجاهها كما ترك للقارئ سؤالا بارزا هو حجم الضرر الذي لحق بالمواطنين في تلك الفترة، وهو ضرر نفسي وجسدي، والضرر النفسي أشد وأبقى من الآخر، ولم يسْلم منه حتى رجال الأمن جراء تأنيب الضمير بعد ذلك، بسبب الخيبات والمآسي التي ألحقوها بكل من وقع في قبضتهم. ثم يليه السؤال: هل تم "جبر الضرر" لكل المتضررين جراء أحداث تلك المرحلة، للانتقال إلى مرحلة "العهد الجديد". ثم هل كان هذا الجبر، أو هذا الصلح، كافيا لطي صفحات ذلك العهد القديم؟.

وإذا عدنا إلى التاريخ السياسي للمغرب، حاملين هذا الوصف الذي قدمه عبد الإله الحمدوشي عن مخافر الشرطة، يمكننا القول إنها تصف –بأسلوب لغوي لطيف جدا– أحداث 20 يونيو 1981، حيث شهدت العاصمة الاقتصادية إضرابا عاما شلّ الحركة في كل القطاعات الحيوية، وكان سببه هو الزيادة في أسعار المواد الغذائية التي فاقت نسبة (50%) في بعض المواد؛ مما فجر غضبا عارما في أحياء الدار البيضاء آنذاك، فكان رد الدولة قويا وعنيفا تجلى في إطلاق الرصاص على المتظاهرين في الشوارع واعتقال مجموعة من الأبرياء كما يصف المقطع الروائي. أما عبارة "الداخل مفقود والخارج مولود" فهي عبارة كانت مكتوبة في سجن يسمى "غبَيْلَة". ويحكي المتضررون أن محرّري المحاضر كانوا يسألون المتهمين عن الاسم الكامل واسم الأبوين ثم يأمرونهم بالتوقيع على المحضر دون قراءته، فوُزعت عليهم أحكام تتراوح بين سنة وعشر سنوات،

ثم النفي خارج الدار البيضاء بعد قضاء العقوبة السجنية وأداء الغرامة. ولكن عبد الإله الحمدوشي لم يدقق في هاته التفاصيل الدامية، لعدم رغبته في الكشف على أنه يقصد وصف أحداث إضراب يونيو 1981. ولكنه نجح بحق، في ترك فضول القارئ مفتوحا لتحصيل المزيد من المعلومات حول أحداث هذه الرواية المباشرة منها وغير المباشرة.

وتتجلى ضرورة تسلح القارئ، ومحلل الخطاب الروائي أيضا، بالكفاية الموسوعية والثقافية، أيضا، في أن الحمدوشي قفز على مجموعة من التفاصيل الخاصة بالمرحلة القديمة تاركا الفرصة للمتلقي للعودة إلى النصوص التاريخية والسياسية، أو لنصوص روائية أخرى سبق لها أن تطرقت لذلك، من أمثلة ذلك أنه أشار إلى نص سابق وهو روايته التي عنونها بـ "الدم اليابس"، إذا قال:

"قبل ثلاثة أشهر أطلق مفتش النار على الحنش في مكتبه فيما صار يعرف لاحقا برواية "الدم اليابس" من الناحية الجسدية كان الحنش قد مات وانتهى...." [الحنش، ص 40].

فوجود عنوان رواية "الدم اليابس" في هذا المقطع يخلق لدى القارئ فضولا معرفيا يتطلب إشباعه عبر تشغيل كفايته الموسوعية والثقافية، والبحث عن هذه الرواية والنظر في علاقتها بحدث إطلاق النار على العميد الحنش، وما أثر هذا الحادث على مجريات أحداث رواية "الحنش".

توصلنا من خلال ما سبق إلى إن رواية "الحنش" حفزت السارد والشخوص أيضا، ولا زالت تحفز القراء على توظيف كفاياتهم اللسانية والإيديولوجية والموسوعية والثقافية، إذ تشكلت الرواية من نصوص اضطر معها السارد أولا؛ إلى التسلح بالكفاية اللغوية ليتمكن من كتابتها وتمثيل حوارات شخوصها، ثُم، ثانيا، إلى التسلح بالكفاية الموسوعية والثقافية؛ بالرجوع إلى المصادر التاريخية المضمنة لأحداث مغرب "عقود ما بعد الاستقلال" وعقد الثمانينيات خصوصا، وما يليه إلى حدود الفترة المسماة بـ "الربيع العربي (2011)"، كما

استعان بما عاشه هو، أيضا، لأنه عاش العهدين معا. ولازالت هذه النصوص كلما اطلع عليها القارئ تحفزه على تشغيل كفايته الموسوعية لكشف بعض ما غلق منها، حيث تحيل على مجموعة من العناصر الخارجية والأحداث الواقعية؛ تفرض عليه قراءتها قراءة موسوعية يسهر عبرها أحداث هذه الرواية في السياق السوسيو– ثقافي والسياسي الذي مر به المغرب، وجهاز الأمن على الخصوص. ولهذا رأينا أن أوركيوني تلح على الأخذ بعين الاعتبار أثر هذه الكفايات في عمليتي الإنتاج والتأويل، فخصصت لها حيزا بارزا في نموذجها التواصلي/التلفظي.

نخلص إلى أن الروائي الموسوعي أوفر حظا من غيره لتفجير كفايات القارئ ودفعه للبحث والاطلاع، وبالتالي الامساك به حتى إنهاء قراءة عمله دون ملل أو نفور منه بسبب محدودية مضامين العمل الروائي؛ أو افتقاره لمقومات الوصف والسرد الجيد. إن الروائي الموسوعي هو الروائي القادر على تفجير طاقات القراء على المطالعة والتوسع وحشد هممهم للتحصيل والبحث. إن الروائي الناجح هو الروائي الملهم، هو الذي يبعث الحياة في نصوصه عند كل قراءة من جديد، هو الذي يبعث شغف المطالعة لدى قرائه الذين يجب أن يكونوا موسوعيين كذلك، وأن ينظروا إلى الأعمال الروائية نظرة شمولية، لا تسلخها عن سياقها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعاطفي.

وبهذا يمكننا القول إن عبد الإله الحمدوشي قد حقق نسبة مهمة من صفات الروائي الموسوعي وهذا ما خلصنا إليه من خلالنا دراستنا لروايته "الحنش" واطلاعنا على رواية "شمس العشي، عائدة"[361] والاطلاع أيضا على سيرته لكونه روائيا وكاتب سيناريو أيضا. ومن مظاهر ما حققه من موسوعية أنه فرض علينا أن نعود لأعماله الأخرى وإن كنا بصدد تحليل رواية "الحنش" فقط.

[361]- عبد الإله الحمدوشي، شمس العشي، العائدة، رواية، منشورات دار التوحيدي، الرباط، ط1، 2015.

4. عنصرا العملية التلفظية

تختص زاوية نظر لسانيات التلفظ بالدقة في تحديد المفاهيم التي توظفها في تحليلها للخطاب، ومن بين هذه المفاهيم نجد أنها تفْصل بشكل بيِّن بين عنصري العملية التواصلية إذ تميز بين مفهوم المتكلم والذات المتكلمة والمتلفظ والمتلفظ المشارك والسارد.

وقد وضعت على رأس قائمة اهتماماتها "وصف العلاقات التي تُنسج بين الملفوظ والعناصر التي تشكل الإطار التلفظي، وهي:

- بطلا الخطاب (البات والمتلقي (ون))؛
- الوضعية التواصلية؛
- الظروف الزمكانية Spatio-temporelle؛
- الظروف العامة لإنتاج وتلقي الرسالة: طبيعة القناة، السياق الاجتماعي والتاريخي، قيود عالم الخطاب، إلخ "[362].

مما يبين أن الخطوة الأولى في وصف هذه العلاقات هي البحث في عنصري التلفظ (وهما المتلفظ والمتلفظ المشارك) إيمانا من رواد لسانيات التلفظ بدور هذه الخطوة التي تسهم في معرفة طبيعة هذين العنصرين وكيفية استعمالهما للغة وبدورها في تعرية المعاني المترتبة عن ملفوظاتهم. وفي هذا الصدد؛ يذهب إميل بنفنيست إلى أن "علاقة المتكلم باللغة هي التي تحدد الخصائص اللسانية للتلفظ. لذا يجب النظر إليه (أي التلفظ) باعتباره الفعل الذي يقوم به المتكلم، حين يأخذ اللغة بوصفها أداة instrument والنظر إلى الخصائص (أو الوحدات) اللسانية التي تُسجل هذه العلاقة"[363]. ولهذا تحاول نظريته الإجابة – أولا- عن عدة أسئلة أبرزها: من يتكلم؟؛ ومن يخاطِب؟؛ وكيف يستخدم اللغة؟؛ ومن يتحمل مسؤولية مضمون الملفوظ؟.

---

[362] .Orecchioni (C.K), L'énonciation de la subjectivité dans le langage, pp 30- 31.

[363]- Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, p 80.

ثم إن ما يميز نظرة لسانيات التلفظ للخطاب هو النظر إلى هذه العناصر ـ وإن كانت تؤدي نفس الوظيفة في مقاربات أخرى لتحليل الخطاب ـ من حيث الوظيفة التي تؤديها في الخطاب والتواصل؛ ثم الأخذ بعين الاعتبار السياق الذي تؤدي عبره وظيفتها التواصلية. من هذا المنطلق يتوجب علينا أن نميز في هذا الصدد بين العناصر التالية:

1.4. الذات المتكلمة والمتكلم/المتلفظ والمتلفظ المشارك

لقد احتفت لسانيات الاستعمال أو لسانيات ما بعد البنيوية بالإنسان في علاقته باللغة وبحثت في ألوان تفعيله للغة وتفاعله معها، وفي علاقتها بذاتيته ووجهة نظره التي يكشف عنها عند التلفظ. وتعد التداولية ولسانيات التلفظ والنظرية الحجاجية من بين أهم تلك الفروع اللسانية التي رحَّبت بالذات الإنسانية وبمستعمل اللغة واحتفت بهما في أبحاثها حتى ازداد الوعي بدورهما في اللغة، فأصبح هَمُّ التمييز بين المتكلم والسارد والمؤلف يشكل نقطة التقاء بين فروع أخرى كالتلفظية والسرديات وتحليل الخطاب؛ من أجل "تجاوز هذا الخلط ووضع حدود فاصلة بين كل محفل على حدة"[364].

إذ نجد مانغونو، على سبيل المثال، قد ميز بين الذات المتكلمة والمتكلم: "فإذا كان الأول يلعب دور منتج الملفوظ فإن الثاني يمثل الشخص الذي يتحمل مسؤولية العقد اللساني. فبلزاك وهيجو، مثلا، يمثلان الذات المتكلمة في مؤلفاتهما (أي الأفراد الماديين الذين أنتجوا تلك الأعمال) ولكن هذه النصوص لا تمنحهم مسؤولية ملفوظاتهم لأن ذلك يعود إلى دور المتكلم. ويمكن مطابقة الذات المتكلمة بالكاتب أو المؤلف في حين يمكن مطابقة المتكلم بالسارد...."[365].

معنى هذا؛ أننا لا يجب أن ننظر إلى هذين العنصرين كذوات فقط لإرسال الرسالة أو تلقيها، وإنما يجب أن نعرفها، أيضا، من خلال علاقتها بالملفوظ الذي تنتجه وعلاقة هذا الملفوظ بالذات المنتجة؛ أي ماذا يمثل هذا الملفوظ للذات المتكلمة وللمتكلم؟. بمعنى

---

[364]. عبد المجيد الحسيب، الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2014، ص 78.

[365]. عبد المجيد الحسيب، الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، نفسه، ص 75.

آخر فالذات المتكلمة هي التي تنتج الملفوظ، أي الذات التي تضطلع بفعل التلفظ بغض النظر عن علاقتها بمضمون الملفوظ، أكان مضمونا ذاتيا أو موضوعيا. في حين يتحمل المتكلم مسؤولية الملفوظات الصادرة عنه، عندما يستعمل اللغة لحسابه عبر ما يطلق عليه إميل بنفنيست الفعل الفردي L'acte individuel؛ بعبارة أخرى فهو يتحمل مسؤولية "الفعل المتضمن في القول" والآثار الناجمة عنه. مثلما يتحملها حين يستعمل العناصر الإشارية التي تحيل على ذاتيته؛ ويسمى هذا المتكلم في النظرية التلفظية بـ "المتلفظ"، وهو "الذات التي تأخذ الكلمة، أو الذات التي تستعين بصيغ لغوية خاصة للتحكم في المقام التلفظي وهو ما يدعوه بنفنيست بـ "الجهاز الصوري للتلفظ" المكون من الضمائر، والأزمنة الفعلية، والمبهمات، والأشكال جملية، والأنماط..."[366] إذ يعد هذا المتلفظ المرجع الوحيد لضمير المتكلم وأشكاله الذاتية، وأسلوبه التناظري في استعمال اللغة، و"هو المسؤول عن الملفوظ، ويثبت وجوده، إلى درجة القول بوجود متلفظين يعكسون وجهة نظرهم ومواقفهم"[367].

أما المخاطب فهو "المتلفظ المشارك" Co-énonciateur الذي يشارك في تشكيل الإطار التلفظي، كما يشارك في ذاتية الخطاب، وهي ذاتية بينية يتقاسمها مع المتلفظ، وجاء في معجم السرديات: "إن الذاتية المتشكلة في أي قول إنما هي ذاتية بينية (Intersubjectivité) طرفاها القائل والمقول له. ولهذا سمي المقول له أحيانا متلفظا مشاركا (Co-énonciateur) في الخطاب"[368].

يتحول هذا المشارك إلى متلفظ عندما يأخذ الكلمة، ويصير متلفظا مشاركا عندما يُوضعُ مَوْضِعَ "الأنت" في العملية التواصلية. ويمكن نبين التموضع المتبادل بين المتلفظ والمتلفظ المشارك في نموذج حاولنا تمثيله على الشكل التالي:

---

[366]- فرانسين مازيير، تحليل الخطاب، ترجمة ذهبية حمو الحاج، مجلة الخطاب، منشورات دار الأمل، ع 3، ماي 2008، ص 386.

[367]- Oswald Ducrot, Le dire et le dit, Ibid, p 205

[368]- محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص 415.

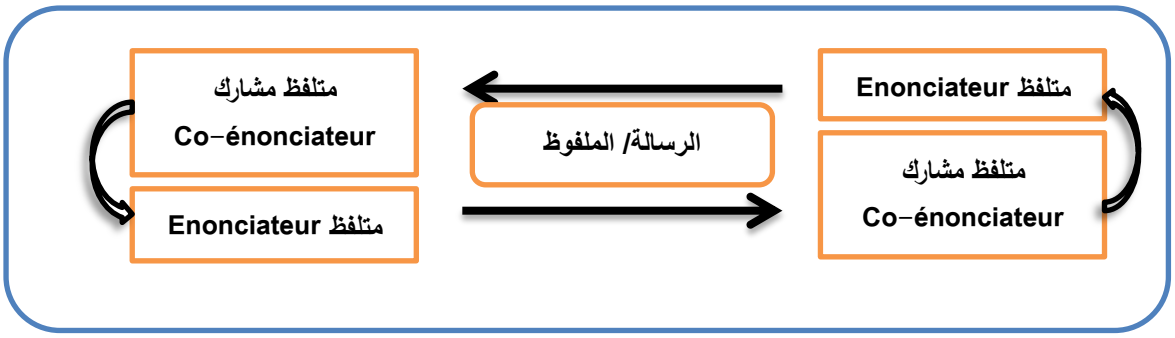

إن المتلفظ هو كل متكلم يوظف الصيغ الذاتية للغة في ملفوظاته وهو الذي يتكلّم على ذمة "الأنا" أو الذات المتكلمة، مما يعكس وجهة نظر الملفوظ، ويكشف عن جزء كبيرة من معانيه.

ويقابل مفهوم المتكلم، في الدراسات السردية، مفهوم السارد، ولم يختلف السردانيون عن التلفظيين إلى درجة ما يلفت النظر في التمييز بين المفهومين. يقول رولان بارث وزملاؤه في طرائقهم لتحليل السرد الأدبي: "إن مفهومي المتكلم والسارد مفهومان يتميزان بسياقيهما. فالمتكلم هو المرجع الوحيد لضمير المتكلم "أنا" داخل تعبير (تـ)، ومتى كان تام الحضور، فإن وجهة نظره لوحدها هي التي يمكن أن يتم التعبير عنها داخل كل تعبير (تـ) وإن كانت وجهات نظر أخرى قابلة لأن يؤتى بها أو أن يتم وصفها"[369]؛ أي أن المتكلم هو الذي يعكس وجهة نظره في عملية السرد ويستعمل الأدوات الإشارية الدالة على ذلك كالضمائر الشخصية والإشاريات الزمكانية، وهذا ما أصبح يسمى في الدراسات السردية الحديثة بعملية "تذويت الكتابة"، وهي "حرص الروائي على إضفاء سمات ذاتية على كتابته وذلك من خلال ربط النص بالحياة والتجربة الشخصيتين، وجعل صوت الذات الكاتبة حاضرا بين الأصوات الروائية لتمييز محتوى النص عن الخطابات الأخرى التي تُعطي الأسبقية للقيم والأفكار الغيرية"[370]، أو هي الحرص على توفير رؤية للعالم تحمل

[369]. رولان بارث وآخرون، طرائق تحليل السرد الأدبي، مرجع سابق، ص 147.

[370]. محمد برادة، الرواية العربية ورهان التجديد، مرجع سابق، ص 67.

بصمات الذات الكاتبة، لإضفاء نوع من الواقعية على الأحدث والشخوص الواردة في سرديات الكاتب.

وقد تسعى الذات الكاتبة إلى تحقيق "الموضوعية المزعومة" –بتعبير محمد برادة– إذا غيّبت الأدوات الإشارية الذاتية وتوارت وجهة نظر السارد عن القراء، فإنه يمكن الحديث هنا عن نص لا يمتلك ساردا، كما ادعت ذلك النظريات التقليدية في تحليل النصوص السردية. إلا أن الدراسات اللسانية والسردية الحديثة كشفت عن لا جدوى من هذا الطرح، فبرهنت على استحالة الحديث عن نص بدون سارد، وعن الوهم الموضوعي الذي كان يُصرح به في الدراسات الخاصة بالخطاب الروائي، أي بوجود سرد موضوعي خال من ذات السارد. وقد كشفنا عن هذا عند حديثنا عن الذاتية في الخطاب الروائي.

ولهذا؛ فقد أصرّ التلفظيون على أهمية معرفة المتلفظ والمتلفظ المشارك، وضرورة الكشف عن وضعهم ومستواهم الاجتماعي والمعرفي، وهي الضرورة الملحة التي تسعف بشكل كبير في إنجاح العملية التواصلية، أولا، وفي تأويل ملفوظاتهما ثانيا، بل إن تحديدهم يساهم بشكل فعال في فهم الخطاب.

2.4. المتلفظ والمتلفظ المشارك في رواية الحنش

سنجيب بخصوص هذا العنوان عن السؤالين التاليين:

- من يتكلم في الرواية؟
- ومن يتحمل مسؤولية التلفظ؟

أشرنا سابقا إلى أن الذات المتكلمة هي الذات المنتجة للخطاب والتي تلتزم نوعا من الحياد في سرد الأحداث ولا تتحمل مسؤولية الملفوظات المنتَجة، ويحضر هذا على مستوى الرواية في عدة مواقع خطابية، منها على سبيل المثال المقطعين التاليين:

أ. "قدم له الشيخ تحية رسمية وهو يلهج بالدعوات. استأنف سيره وربت على رؤوس بعض التلاميذ المتوجهين إلى مدارسهم وحثهم على الاجتهاد وإلا سيتعرضون للاعتقال، وتطلعوا إليه بنظرة شبه خائفة قبل أن يفروا هاربين." [الحنش، ص 16]

ب. "كان هو الوحيد الذي قيد بقيد منفرد وترك واقفا لأن الحنش اعتقد في البداية أنه ربما يكون دبلوماسيا متورطا، وهذا يتطلب في جميع الأحوال تعاملا خاصا حتى لا تثار مشاكل سياسية مع اسبانيا التي تتهم دائما المغرب بعدم احترام حقوق الإنسان" [الحنش، ص 136].

عمد السارد في المقطع (أ) إلى وصف بعض السلوكات المتعلقة بالشرطي فريد، وإبراز مكانته في الحي الذي يقطن فيه ويمر عبر أزقته كل صباح قصد العمل، وقد قدم السارد الأوصاف الواردة في هذا المقطع دون أن يحشر رأيه فيها، وبهذا فهو يجسد ذاتا متكلمة لا تتحمل مسؤولية العقد اللساني بتعبير مانغونو.

أما في المقطع (ب)؛ فقد عمد السارد إلى تغيب وجهة نظره تجاه هذا الموقف، وتجاه التصرُّف الذي قام به "الحنش"؛ ثم أنه لم يعقب أيضا عن المشاكل السياسية بين المغرب واسبانيا، كما عمد إلى استعمال "المغرب" عوض "بلادنا" أو "المملكة" أو ما شابه ذلك من الوحدات التي تكشف عن الانتماء العاطفي أو الذاتي بين السارد ووحدات هذا الملفوظ.

هذا فيما يتعلق بالذات المتكلمة/المتلفظ؛ أما المتكلم فيتجلى في كل العناصر التي تستعمل اللغة لحسابها وتتحمل مسؤولية القول، بما في ذلك السارد الذي يتدخل أحيانا في شكل حوارات يفتحها مع القارئ الضمني، كقوله:

"ثم لا يجب أن ننسى ملكة الحدس لديه والتي تعتبر كحاسة سادسة، فهو بمجرد أن يقابل شخصا ما يكون عنه انطباعا عاما وعلى ضوئه يجري المقابلات والاستجوابات ومن خلال نبرة الصوت وايقاع التنفس يستنبط الحقائق ويغربل الكلام. في الأخير لابد

من التوقف عند نظرته البوليسية المستفزة التي تجبرك على الارتعاش وتجعل بصرك يفر إلى أبعد مدى خوفا من التهم التي ستنزل عليك" [الحنش، ص 38].

لقد استعمل السارد في هذا المقطع نون الجماعة في قوله "**لا يجب أن ننسى**" ثم كاف المخاطب "**تجعل بصرك يفر**"، "**عليك**". وبهذا يعلن عن عقد وضعية تلفظية بينه وبين القارئ الضمني، كما يعلن عن تحمل مسؤولية التلفظ لورود مؤشرات ذاتيته في هذه الوضعية، كما أنه لم يعد ساردا وإنما صار متكلما له وجهة نظر خاصة يحمل تبعاتها.

ويعكس هذا الملفوظ الوضع الاجتماعي للروائي أيضا، باعتباره فردا اجتماعيا ماديا يتفاعل مع الواقع المعيش ويُنتج خطابا يعكس مستوى الأمن والتعليم الذي يعيش فيه، ويقدم هذا الفرد تلك المعرفة بالانطلاق من سياقه الاجتماعي والاقتصادي الذي أَنْتَجَ فيه خطابه هذا، وهو خطاب يولد في سياق إنتاجه ويتشكل من خلال سياق خطابات أخرى ويمثل "لغة اجتماعية" بعبارة ميخائيل باختين، إذ قال: "المتكلم في الرواية،[...] هو فرد اجتماعي، ملموس ومحدَّد تاريخيا، وخطابه لغة اجتماعية (لو أنها ما تزال جنينية) وليس "لهجة فردية"[371]. فهو خطاب لغة اجتماعية لأنه يندرج ضمن "النمط السردي الخارجي" حيث بُني على بنيات تخاطبية بين السارد والقاري اعتمادا على مؤشرات اللغة المحلية Local language. عكس نمط سردي داخلي "يشمل البنيات الحوارية بين السارد والمسرود له والتي تتأسس على ثنائية: الأنا/الأنت، وازدواج التخاطب..."[372]. ومثال ذلك نذكر الحوارات التي دارت بين لالة خيرة وابنها الشرطي المزيف وباقي الشخوص في مناسبات متعددة من الرواية، ندرج منها الحوار التالي الذي دار بين المفتش فاطمة وأم فريد "لالة خيرة":

- "أجبي على كلامي بصراحة، هل كنت على علم بأن ابنك ينتحل مهنة البوليس؟

[371]. ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، نفسه، ص 102.

[372]. أحمد العاقد، آليات التواصل، دراسات في تنوع أشكال الخطاب، ص 92.

تميل برأسها وتفكر طويلا وكأن هناك سوء تفاهم قبل أن تجيب:

- إنه بوليسي يا بنتي، وإلا كيف يمكنه أن يلعب مع "المخزن" إنه يعرف أن المخزن كالنار لا يمكن أبدا اللعب معه." [ص 154].

يعد هذا الحوار نموذجا من نمط سردي داخلي تشكّل من المتحاورين فاطمة ولالة خيرة. وبالرغم من أنه نمط داخلي فقد انبثق من صلب الوضع الاجتماعي للشخوص ومن طبيعة وظائفهم الاجتماعية ومستواهم التعليمي. فأم فريد لم تكن على علم بأن ابنها لم يحصل على الشهادة التي تؤهله للترشح لمباراة الأمن، وإنما تعرف فقط أن ليس من السهل أن تعبث مع "المخزن" مما جعلها تصدق فعلا أن ابنها شرطي حقيقي.

5. خلاصة

يُشيد المهتمون بتحليل الخطاب الروائي، في العقود الأخيرة، بالمنجز التلفظي والأدوار التي أسهم بها لفك عدد من معاقل هذا الخطاب، ويهيبون للتلفظيين بخصوصية الرؤية التي يقدمونها لتحليله، وبدقتها وبمستوى وعيهم بطبيعة التفاعل بينه وباقي مستويات الاندماج الحاصل بين اللغة والفرد والواقع الاجتماعي الذي ينتمي إليه ذلك الخطاب (أو تلك الرواية).

إن التلفظيّين مثلهم كمثل المحللين السوسيولوجيين للأدب، وإن اختلف الجمعان من حيث المنطلقات النظرية والمنهجية، يقرون بأن الرواية "من الصعوبة بمكان تصور أنها ولدت ذات يوم نتيجة اختراع فردي وبغير أساس في الحياة الاجتماعية للجماعة"[373]. بمعنى آخر؛ من الصعوبة تصور وجود هذا الجنس الأدبي دون أن يكون له دوره في الحياة الاجتماعية. ويؤكدون على وجود "تشابه دقيق بين الشكل الروائي وبين العلاقة

[373]- السيد ياسين، التحليل الاجتماعي للأدب، مكتبة مدبولي، القاهرة، طبعة 1992، ص 44.

اليومية للناس مع الأموال بوجه عام، وأيضا علاقة الناس مع الناس الآخرين في مجتمع ينتج للتوزيع في السوق"[374].

لهذا فالرواية تجسد، بقصد أو عن غيره، أشكال التفاعل والتواصل الحاصلين بين الفرد وذاته، وبين الفرد ومجتمعه، وهو ما يسمى بـ "التفاعل الخارجي" بعبارة أحمد العاقد المشار إليه، الذي يقابله "التفاعل الداخلي" بين السارد والمسرود له داخل المتن الروائي. وإذا تأملنا في سيرورة الإنتاج الروائي وتحولاته نجده لا يعدو أن يكون انعكاسا للتحولات التي تعرفها المجتمعات، وللتغيرات التي تطرأ على الذات الفردية كذلك. مما يعني أنه لابد أن ينعكس ذلك على صورة البناء الخطابي للرواية، لذلك حاولنا أن نصب القالب الذي قدمته أوركيوني للتواصل "متعدد السنن"، على نصوص رواية "الحنش"، فتوصلنا إلى انسجام بعض المفاهيم، وحضورها في الرواية المدروسة مثل حضور أثر قيود عالم الخطاب في عملتي الإنتاج والتأويل التي يقوم بها السارد، وتقوم بها الشخوص أيضا في حواراتها. وقد تلمسنا، كذلك، أثر الكفايات الأيديولوجية والثقافية على المستوى اللغوي للسارد والشخوص أيضا، حيث لعبت هذه الكفايات دورا هاما في التحكم في عملية إنتاج الخطاب وفي تأويله التأويل المناسب كما رأينا في الحوار الذي دار بين فريد وأمه، والدعاء الذي وجهت له، فهو دعاء من اختيارها ولكن من إملاءات قيود عالم الخطاب؛ والمتمثلة في طبيعة الفترة التي طلب منها فريد دعواتها، ومن فرض كفايتها الموسوعية؛ أي معرفتها بطبيعة العمل في ميدان الأمن الوطني.

يمكننا القول إن النموذج التواصلي الذي قدمته أوركيوني قد تمثَّل ذاتية المتلفظ والمتلفظ المشارك في صورتها الايديولوجية فقط؛ عبر الكفايات الأيديولوجية والثقافية التي يوظفانهما في إنتاج الملفوظات وتأويلها. ولكنها لم تضمِّن نموذجها عنصر الذاتية مثلما فعلت مع قيود عالم الخطاب وآليتي الإنتاج والتأويل لدى كل من المرسل والمرسل إليه،

[374]- السيد ياسين، التحليل الاجتماعي للأدب، نفسه، ص 44.

نظرا لتأثيره في معاني الإنتاج والتأويل. ونقصد بهذا أننا لا ينبغي أن ننكر دور ذاتية السارد في عملية الإنتاج الروائي، ودورها كذلك في التأويلات التي يقدمها القراء، وهي تأويلات تنبع من طبيعة تكوينهم الذاتي، ومن طبيعة وضعهم الاجتماعي المنعكس على شخصيتهم الخاصة وعلى تكوينهم العملي. ووفق ذلك، فعبد الإله الحمدوشي قدم لنا صورة عن موظفي الأمن الوطني وطبيعة عملهم السري والمعلن عنه، وعن كواليس المهنة أيضا، ومَنْ منا لم يكن يتمنى في طفولته أن يصبح شرطيا في خدمة وطنه، ساهرا على أمنه وسلامته، كما كان يتمنى "فريد"، ولمّا لم يتحقق له ذلك الطموح، حققه لنفسه ولكن في مظهر مزيَّف. إن فريد مواطن مغربي (مواطن ورقي في الرواية إن صح التعبير) يعلم نسبة الاحترام والتقدير التي تحظى بها هذه المهنة في المجتمع المغربي، والحظوة التي ينالها مُمْتَهِنُوهَا؛ وطمعا فيها تقمص دور الشرطي ونال ما ينالونه منها من وضع اعتباري... ولو إلى أجل محدود، قبل أن تكشفه كاميرات المراقبة وينكشف سره. ورغم ذلك لم يستسلم فبعد أن قضى ما فُرض عليه من عقوبات أصبح شرطيا حقيقيا فأسس مؤسسة للأمن الخاص، بمساعدة المفتش فاطمة مكافأة له على إسهامه في إسقاط أفراد العصابة في قبضة العدالة، فصار حقيقة يُكنى بـ "فريد ولد للاخيرة، بوليسي سري (حنش) Détective privé". [الحنش، ص 205].

الفصل السابع:

إشاريات الخطاب الروائي

تمهيد:

تعد الإشاريات Les Déictiques من بين العناصر الأساس في تأسس بنية الخطاب، شفهيا كان أو مكتوبا، إذ لا يمكن أن يستقيم من حيت الانسجام والمعنى بدونها. ولذلك تحتل مكانة مهمة في اللغة لورودها الضروري في كل خطاب، فهي عناصر تضطلع فيه بدور تعيين الأشخاص والأزمنة والأمكنة، إلا أن هذا التعيين يحتاج إلى تدقيق وتحديد لفك إبهام هذا الصنف من الوحدات اللغوية، فيتم ذلك عبر حرص المتخاطبِين على تحديد زمن ومكان التلفظ بها والأشخاص المعنيين، كالمتلفظ والمتلفظ إليه، وكل ما يتعلق بذلك، وبدقة مرصودة، لهذا فقد حظيت باهتمام واسع في ساحة الدرس النحوي والبلاغي واللساني والتداولي.

تداوليا؛ تشكل الإشاريات الدرجة الأولى من درجات التحليل التداولي على الخصوص، وهي الدرجة التي تعد من المهام الأولى للسانيات التلفظ، إذ تهتم هذه الأخيرة بالعناصر الإشارية بسبب حساسيتها بكل ما يحيط بفعل التلفظ وحيثياته السياقية. نحاول في هذا الفصل إبراز خصائص العناصر الإشارية في الخطاب والخطاب الروائي على وجه التحديد. سننطلق من تعريفها وتحديد خصائصها ووظائفها في الخطاب، ثم سنركز على أشكال تعلُّقها بالوضعية التلفظية، من خلال نماذج تطبيقية من النصوص الروائية الواردة في رواية الحنش للروائي المغربي عبد الإله الحمدوشي.

1. مفهوم الإشاريات

يعود أصل لفظ "الإشاريات" إلى الاسم الإغريقي الذي يعني "إبراز الأصبع" أو "الإشارة بالأصبع" «montrer du doigt»[375]، ومن ذلك أن مفهوم الإشارة في اللغة يفيد ما يلي:

- **الإبراز والإظهار:** جاء في مقاييس اللغة: "يقال أشررت الشيءَ إذا أبرزته وأظهرته. قال: وحتَّى أُشِرَّتْ بالأكفِّ المصاحفُ. وقال:

إذ قِيلَ أيُّ الناسِ شرُّ قبيلةً أشَرَّت كليبا بالأكفِّ الأصابعُ"[376]

- **التحديد والتعيين:** وهي" الإيماء إلى حاضر بجارحة أو ما يقوم مقام الجارحة فيُتعرفُ بذلك، فتعريف الإشارة أن تخصِّص للمخاطب شخصا يعرفه بحاسة البصر، وسائر المعارف هو أن تخصّص شخصا يعرفه المخاطب بقلبه"[377].

تحمل الإشاريات «Déictique» عدة اصطلاحات حيث أطلق عليها "محمد محمد يونس علي" مصطلح "المعينات" في كتابه "المعنى وضلال المعنى" ويسميها النحويون بالمبهمات كسيبويه والمبرد، كما استعمل "عبد الهادي بن ظافر الشهري" مصطلح الإشاريات في كتابه "استراتيجيات الخطاب".

وتدل الإشاريات في الاصطلاح على عناصر لغوية لا تُفهم إلا من خلال سياق تلفظها لتحديد الشخص أو الشيء الذي وضعت لأجل تعويضه؛ لأنها تفتقر في الدلالة على معناها إلى غيرها. وتلعب دورا هاما في تشكيل بنية الخطاب والإحالة إلى المعلومات الواردة فيه، فهي "تلك الأشكال الإحالية التي ترتبط بسياق المتكلم مع التفريق

---

375. Jessica Da Silva Anunciacao, Le discours de la persuasion : une étude pragmatique et cognitive, thèse doctorat, sous la direction de Patrice Brasseur, Université d'Avignon, 2013, p 100.

376. ابن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1411هـ/ 1991م، ج 3، مادة [شر].

377. ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، دار الكتب العلمية، ط1، 1422/2001م، ج2، ص 352.

الأساس بين التعبيرات الإشارية القريبة من المتكلم مقابل التعبيرات الإشارية البعيدة عنه"[378].

إنها حسب جون دوبوا؛ "هي كل عنصر لغوي يحيل ضمن ملفوظ ما إلى (1) المقام الذي أُنتج فيه هذا الملفوظ، وإلى (2) وقته (زمن، وجهة الفعل) وإلى (3) الفرد المتكلم (التوجيهات) Modalisation. وفضلا عما أشير إليه، هناك أسماء الإشارة، وظروف المكان والزمان، والضمائر الشخصية، والأدوات les articles (...) فجميعها عناصر إشارية تشكل مظاهر إشارية للغة"[379].

بعبارة أخرى؛ هي مجموعة من الوحدات اللغوية التي تفرض وظيفتها اللغوية أو المرجعية الأخذ بعين الاعتبار بعض العناصر المكونة لوضعية التواصل، نذكر منها:

- ✓ "الدور الذي يلعبه المتدخلون في الخطاب.
- ✓ الوضعية الزمكانية spatio.temporelle للمتكلم وبعض حالات المخاطب"[380].

وتتجلى مكانة هذه العناصر الإشارية في استعمالها المحوري والدائم في الخطاب إذ نجد على الأقل ثلاث وحدات إشارية في الخطاب الواحد (الأنا، الهنا، الآن)، بالإضافة إلى كونها تلعب دورا فعالا في توجيه المعنى وتحديده تبعا للسياق العام الذي تندرج فيه. وتتميز بخاصيتين هما:

- إنها تحمل دلالة عامة وحيدة وثابتة تكمن في أنها تحدد المرسل والمرسل إليه ومكان بث الرسالة وزمانه.
- إنها لا تستقبل معنى محددا إلا إذا كانت على علاقة وجودية مع الموضوع، وتنشأ هذه العلاقة بين الموضوع والعناصر الإشارية أثناء استعمال اللغة في وضعية تلفظية معينة.

---

[378]. الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط 1،2004، ص 81.

[379]– J. dubois et autres, 1973, dictionnaire de linguistique, p 137.

[380]. Orecchioni. (C.K), 1980, l'enonciation de la subjectivité dans le langage, p 36.

بمعنى آخر؛ إنها لا تحيل على مدلول قار كباقي الوحدات اللغوية، كالأسماء مثلا، بل إن معناها لا يتحدد إلا من خلال التلفظ بالخطاب في سياق معين. وقد وضح إميل بنفنيست هذه الخاصية الأخيرة بقوله: "خارج الخطاب الفعلي، الضمير ليس إلا شكلا فارغا إن لم يُربط بموضوع أو بمفهوم معين ليُوصَل بحقيقته ومضمونه داخل الخطاب فقط. وليس ضمير الشخص هو الشكل الوحيد الذي يحمل هذه الصيغة فقط، بل هناك مؤشرات أخرى تشترك في نفس الوضعية، بما في ذلك سلسلة الإشاريات"[381].

أما في النص المكتوب، فإذا لم تحضر عناصر الإطار التلفظي فيه، فإنه لا يسعفنا أن نؤول المقصود بهذا النص، وهذا ما يبين انتماء هذه العناصر الإشارية إلى مجال التداولية ولسانيات التلفظ بالتحديد، حيث إن هذه الأخيرة تهتم بالعناصر اللغوية التي لا يستقل معناها عن السياق التلفظي، ومن بينها الإشاريات.

صفوة القول مما سبق؛ إن الوحدات الإشارية عبارة عن ألفاظ مبهمة لا يتحدد معناها إلا باستعمالها في وضعية تلفظية معينة مثل الضمائر المتصلة المنفصلة (أنا، أنت، هو...) وأدوات التملك (كتابي، كتابك، كتابنا، كتابكن...) وتسمى بالإشاريات الشخصية، وظروف الزمان (الآن، اليوم، أمس، البارحة، هذا الصباح...) ويصطلح عليها إشاريات الزمان، وظروف المكان (هنا، هناك...) وهي الإشاريات المكانية والإشاريات الاجتماعية وإشاريات الخطاب، وبهذا تنقسم إلى خمسة أنواع سنفصل القول فيها بعد الحديث عن وظائفها.

2 ـ وظائف الإشاريات

تؤدي العناصر الإشارية وظائف متعددة؛ تنقسم إلى وظائف تؤديها داخل بنية الخطاب، نذكر منها تحقيق انسجام الخطاب واتساقه، إذ هي "الروابط الداخلية التي تربط بين وحدات النص وتحقق تماسكه وانسجامه، والروابط التي تربطه بعالمه الخارجي، وهي

[381]– Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, p 68. 69.

الإحالة التي تتحدد من خلال العنصر اللغوي والسياق الوجودي أو الخارجي"[382]. بالإضافة إلى ذلك؛ تضطلع بوظائف لها علاقة بما يخرج عن الخطاب تتمثل في تحديد الأدوات المرجعية للذات المتكلمة والمخاطبة ولزمان حدوث عملية التلفظ ومكانها. ومن هذه الوظائف نذكر ما يلي:

أ- الإيجاز والاحتراز من الالتباس

قال ابن يعيش: "فأما الإيجاز فظاهر، لأنك تستغني بالحرف الواحد عن الاسم بكامله، فيكون ذلك الحرف كجزء من الاسم، وأما الإلباس فلأن الأسماء الظاهرة كثيرة الاشتراك، فإذا قلت: "زيد فعل زيد" جاز أن يتوهم في " زيد" الثاني أنه غير الأول. وليس للأسماء الظاهرة أحوال تفترق بها إذا التبست. وإنما يزيل الالتباس منها في كثير أحولها الصفات، كقولك "مررت بزيد الطويل، والرجل البزاز". والمضمرات لا لبس فيها، فاستغنت عن الصفات لأن الأحوال المقترنة بها قد تغني عن الصفات، والأحوال المقترنة بها حضور المتكلم والمخاطب، والمشاهدة لهما، وتقدم ذكر الغائب الذي يصير به بمنزلة الحاضر المشاهد في الحكم"[383].

بناء على هذا النص؛ تتجلى وظيفة الإيجاز في الاكتفاء بذكر الضمير والاستغناء عن الاسم، عند مخاطبة الشخص بـ "أنت" مثلا، فلا نضيف الاسم للضمير، (كأن نقول "أنت فلان") لحضور الشخص في الوضعية التلفظية. وذكر الضمير وحضور المخاطب يغنينا عن وصفه وتقديمه للسامع، عكس ما يحدث ـ على سبيل المثال ـ في الخطاب المكتوب، مثل الخطاب الروائي الذي يحضر فيه الوصف بشكل بارز، فإذا استعمل السارد الإشاريات، الضمائر على الخصوص، فإنه يجب أن يرفقها بتعريف ما تحيل عليه وصفا؛ أي أن يُحضر هذا المحال عليه في السياق النصي للرواية. أما الوظيفة الأخرى

---

[382]- محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2013، ص 84.

[383]- ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، مرجع سابق، ج 2، ص 292.

فهي رفع اللبس عن الخطاب لأنها تحيل على عناصر واردة في الإطار التلفظي كالمخاطب والمخاطب.

وتتجلى وظيفة الإيجاز، بشكل جلي، عند استعمال ضمير الغائب، حيث يسمح لنا بتعويض كلمة أو اسم أو ملفوظ بأكمله، فيلبي حاجة المتكلم نحو النزوح إلى الاقتصاد اللغوي والهروب من التكرار، وقد عبر إميل بنفنيست عن هذا، بصورة غير مباشرة، حال حديثه عن الضمير "هو"، فأكد أنه يؤدي وظائف تتعدى الوظائف التي تؤديها الضمائر الأخرى في الخطاب، فقال: "إنه يعوض أو يرتبط بواحدة أو بعدد من عناصر أدوات الملفوظ. لكن هذه الوظيفة لا ترتبط فقط بالضمائر، يمكن أن تؤديها أقسام أخرى [...] إنها وظيفة التمثيل التركيبي «représentation syntaxique» الذي يقدم مفاهيم دقيقة لمختلف أجزاء الخطاب «parties du discours» والتي تجيب عن حاجة للاقتصاد، حين تعوض قطعة ملفوظ، وقد تعوض ملفوظا كاملا بواسطة بديل أكثر بساطة «un substitut plus maniable»"[384].

إن وظيفة الإيجاز ورفع اللبس لا تتعلق فقط بالمضمرات كما جاء في نص ابن يعيش ـ في شرحه لمفصل الزمخشري، وإنما يمكن أن نجدها في باقي الإشاريات، مثلا في الإشاريات المكانية يغنينا حضور المتكلم والمخاطب عن ذكر كل تفاصيل المكان فنكتفي بقول: "هناك" أو "هنا" لعلمنا بمعرفة المخاطب بما هو مقصود.

ب ـ الوظيفة المرجعية

تتجلى هذه الوظيفة في "التعيين والتأشير، والتركيز على الإحالة المقامية وتحديد الوضعية المكانية والزمانية، وتبيان المشار إليه قربا أو بعدا، والتأكيد على وظيفة الحضور والغياب،... تحديد الوظائف الدلالية والمرجعية والتداولية واللسانية"[385] فهذه الوظائف المذكورة أغلبها وظائف داخلية، تساهم في تشكيل بنية الخطاب وتوضيح

[384] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, P 256.

[385]. جميل حمداوي، المقاربة التداولية في الأدب والنقد، مجلة العربية والترجمة، السنة الرابعة، العدد 9، ربيع 2012.

دلالات عناصره، وتحقق تماسكه وانسجامه، على الرغم من أن مرجعها لا يتحدد إلا في سياق الخطاب[386]. وتتضح وظيفة المرجعية في الإحالة على عناصر خارج لغوية، كالمتكلم والمستمع والعناصر الغائبة عن الإطار التلفظي والمشار إليها بضمير الغائب مثلا.

ج ـ الوظيفة النفسية

إذ تساهم الإشاريات في توليد الإحساس لدى المتكلم بالقرابة النفسية بينه وبين مضمون الخطاب، فحين يستعمل الإشاريات الشخصية يمتلك الجهاز الصوري للتلفظ ويجعله في خدمته ولصالح ذاته؛ ثم يستعمل اللغة بصفته مالكا لمضامين الخطاب مادام أنه يشحنها بمضامينه الذاتية ووجهات نظره.

فبواسطة الإشاريات تبرُز الذات المتكلمة وتحدِّد موقعها في الزمان والمكان، وتتجلي هذه الوظيفة النفسية، كذلك، في حضورها في الخطابات الموجهة للأطفال، لارتباطها باستعمال أنوي ذاتي. وتُؤَدَّى بشكل بارز عند استعمال الضمائر باعتبارها نقاط الارتكاز الأولى لوضع الذاتية في اللغة من منظور لسانيات التلفظ.

د ـ الوظيفة الأنتروبولوجية

تتجلى في مساهمة الإشاريات، الضمائر على وجه الخصوص، في ربط علاقات قرابة بين العناصر المشاركة في الخطاب، وتدرك هذه العلاقة عن طريق ارتباط الإشاريات بالشخص أي بالبعد الذاتي. وكذلك في ربط صلة القرابة بين المتكلم وذاته، وبين المتكلم ومضامين الخطاب مثلما يحدث مع توظيفها النفسي.

---

[386]ـ أتريكي محمد، القراءة التفاعلية للنص الأدبي، قراءة من منظور سيميوطيقا التلفظ، مجلة اللسانيات وتحليل الخطاب، بني ملال، ع3، 2017، ص 17.

هـ ـ الوظيفة البلاغية:

تتجلى هذه الوظيفة في "الإيحاء والتضمين، وذلك عبر عملية الإنزياح والخرق، وانتهاك المعيار التقعيدي من خلال تصادم الوحدات اللغوية وتوترها"[387]. ويظهر هذا الانزياح خاصة على مستوى استعمال الضمائر، حيث لا تُستعمل في معناها الوضعي وهو مخاطبة الشخص المفرد بضمير المفرد والجماعة بضمير الجمع؛ وإنما تستعمل بمعناها البلاغي لإظهار نوع من الاحترام وترك المسافة الفارقة بين المخاطبين، "حيث تفرض آداب الاحترام استعمال تعابير كنائية أو أشكالا خاصة بين بعض المجموعات البشرية لتعويض الإحالات الشخصية المباشرة"[388]. ويرد هذا التعويض لاستعمال الضمائر في معناها الوضعي بمعناها البلاغي في أغلب المجتمعات العربية. ويسمي "بيتر ترادجل" هذه الضمائر بـ "ضمائر الكيسة"[389]، حيث نُظهر من خلالها نوعا من الكياسة والتأدب عندما نخاطب من هم أعلى درجة منا علْمًا وعمُرًا وتَدَيُّنًا. كما تُرفع هذه الكلفة عند تساوي المتخاطبين في الدرجة العلمية أو الاجتماعية، أو عند تجاوز "بروتوكول" التواصل، مثلما نحادث الأصدقاء أو أفراد العائلة، فنستعمل ما يطلق عليه ترادجل "ضمائر رفع الكلفة" التي تمثل الاستعمال الوضعي المباشر (المعنى المباشر) للضمائر في اللغة، مقابل ضمائر الكيسة التي تُوظَف بمعناها البلاغي والسياقي الاجتماعي، مما يبين أن الضمائر تخضع للسياقات الاجتماعية التي تستعمل فيها، وتتأثر بها كما رأينا في حالة تغيير معنى الضمائر من الوضع (أي من المعنى الحرفي) إلى الاستعمال، وهذا عندما تستعمل لوظيفة بلاغية كإبداء الاحترام أو الرغبة في حفظ المسافة الاجتماعية أو تفخيم الذات أو الآخر.

---

[387]ـ جميل حمداوي، المقاربة التداولية في اللغة والأدب، مرجع سابق نفسه.

[388]ـ صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، مرجع ستبق، ص 139ـ 140.

[389]ـ بيتر ترادجل، السوسيولسانيات، مدخل إلى دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع، ترجمة محمد كرم الدكالي، إفريقيا الشرق، 2017، ص 96.

و ـ التمييز بين الأساليب والخطابات والأجناس الأدبية

لقد شكلت العناصر الإشارية المعيار الأساس في التمييز بين مستويي التلفظ عند إميل بنفنيست: التلفظ الخطابي Enonciation de discours والتلفظ التاريخي Enonciation historique، حيث إن الإشاريات تحضر بقوة في التلفظ الخطابي، وتُستبعد من التلفظ التاريخي الذي يعتمد على السرد المحايد للأحداث دون إدخال ذاتية السارد في الحكاية أو القصة. وبهذا فقد اعتمد إميل بنفنيست هذه العناصر الإشارية معيارا للتمييز بين مستويات التلفظ.

3 ـ الإشاريات: أنواعها وتمظهراتها في راوية "الحنش"

تشمل الإشاريات الإشارةَ إلى شخص أو زمان أو مكان أو موضع من خطاب أو تسجل طبيعة العلاقة بين المتخاطبين، وتنقسم إلى الإشاريات الشخصية، (المتمثلة في الضمائر المتصلة والمنفصلة وأدوات التملك)، والزمانية (الآن، أمس، ...) والمكانية (هنا، هناك، بجانبي، في هذا البيت...) والخطابية (مهما يكن، بل، لكن، وإن كان...) والاجتماعية (مثل الاستعمالي البلاغي للضمائر، وألقاب الاحترام والتبجيل...). تلك خمسة، وإن تعددت وحداتها، يجمعها قاسم مشترك هو تعلُّقها المباشر بالوضعية التلفظية، فهي عناصر لغوية وُضعت تلفظيةً في أصلها، أي أنها لا تحمل معنى يخصها ويميزها انطلاقا من الوضع، وإنما عبر الاستعمال والتلفظ بها. ويتطلب تأويلها، في غالب الأحيان، الاستعانة بعناصر الإطار التلفظي، وبالسياق الخطابي وبالوضعية التلفظية بالأساس. وسنفصل الحديث في أنواعها وخصائصها، معززين ذلك بأمثلة من الخطاب الروائي، رواية الحنش نموذجا، لنكشف عن أوجه تلفظية العناصر الإشارية في الخطاب الروائي.

1.3. الإشاريات الشخصية

يلجأ المتكلم إلى تسجيل ذاته في ملفوظاته عبر لعبة الضمائر الشخصية التي تشمل صنف "الفردية اللسانية" "individus linguistique"، و"تؤدي وظيفة وضع المتكلم في علاقة ثابتة وضرورية مع تلفظه"[390]. وتشترك في هذه الوظيفة كل من الإشاريات الشخصية والزمانية والمكانية، فهي أشكال لغوية "تعبر دائما وفقط عن الذاتية، وتعين الأشخاص، واللحظات، والأمكنة، مقارنة مع المفاهيم الاسمية التي تعين دائما وفقط التصورات."[391]

ومن بين ما تشترك فيه الإشاريات كذلك، وفق تحديد أوزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر، كونها "وصلات كلامية تقيم علاقة بين مضمون العبارة والواقع. وتوجد من بينها تعبيرات شخصية،... فهي تشير إلى بعض الكائنات ناسبة إليها دور المتكلم، أي دور المتحدث أو المخاطب، في حدث التلفظ حيث تظهر العبارة"[392]. والمقصود بهذه التعبيرات الشخصية هي الوحدات اللغوية التي تعيِّن عنصري الإطار التلفظي: المتلفظ والمتلفظ المشارك، وتشير أيضا إلى عناصر خارج هذا الإطار (الغائب)، وتسمى بـ "الإشاريات الشخصية" déictiques personnelles وهي ضمائر المتكلم، والمخاطب، والغائب، إنها عناصر إشارية تشكل استثناء فريدا يتجلى في تجسيد بنية الخطاب.

فكل الكلمات أو الوحدات اللغوية لها مدلول تحيل عليه وتحمل معنى في المعجم، في حين أن الضمائر لا تحمل معنى في ذاتها ولا ترتبط بمدلول ثابت، من غير أنها تعني شخصا ما يتكلم، فـ "أنا" مثلا لا تعين أي كيان معجمي ـ حسب بنفنيست ـ بل يرتبط معناها بالوضعية التلفظية التي أنتجت فيها، فـ "كل مقام لاستعمال اسم يحيل على

---

[390] ـ Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, P 82.

[391] ـ Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, P 83.

[392] ـ أزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، مرجع سابق، ص 647.

مفهوم ثابت وموضوعي «objectif» قابل لأن يبقى افتراضيا أو أن يخصص لموضوع محدد...، أما مقامات استعمال "أنا" فلا تمثل نوعا من الإحالة، لأنه لا وجود لموضوع يعرف بـ "أنا" قد تحيل عليه تلك المقامات تحديدا"[393]. والإشكال الذي يطرحه إميل بنفنيست في هذا الصدد هو: كيف يتشكل المعنى في هذه الوحدات اللغوية التي لا تحمل معنى وضعيا كباقي الوحدات اللغوية مثل الأسماء؟.

وقد أرّق هذا الإشكال البنيويين وتنصلوا من البحث في المعنى نظرا لزئبقيته وعصيانه عن كل ضبط منهجي صارم، "وإلى عهد قريب كانت مدرسة اللساني الأمريكي بلومفيد، التي كانت تمثل صورة نموذجية للسانيات الأمريكية والتي امتد تأثيرها خارج الحدود، تدخل دراسة المعنى «meaning» في دائرة الأشباح الذهنية «mentafisme»، بصرف النظر عن كيفية ترجمة هذا المصطلح. ولقد كانت هذه الصفة mentafisme مبررا كافيا لاستبعاد المعنى لارتباطه بالذاتية الخارجة عن قدرة اللساني"[394]. ويتعمق هذا الارتباط أكثر عند استعمال الضمائر الشخصية. ومهما يكن، فقد برهن بنفنيست، وغيره من اللسانيين المحدثين، على أن دراسة هذه الوحدات الإشارية، على سبيل المثال، في معزل عن سياق إنتاجها واعتبارها بنيات مغلقة عن أي مثير خارجي تبقى دراسة غير تامة التحليل.

يمكن القول، بصدد الإجابة عن السؤال الذي طرحناه على لسان إميل بنفنيست؛ إن الإشاريات الشخصية تعيِّن ذاتا جديدة عند كل استعمال، فلا يمكن إعادة إنتاج الذات نفسها، وبالمعنى نفسه، وحتى مفهوم الهوية لا يكون إلا نسخة تقريبية من التجربة السابقة وإن حاكت نفس تفاصيلها، وتأتي هذه الاختلافات من تنوع الوضعيات التي يُنتَج فيها

---

[393] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, P 252.

[394]. إميل بنفنيست، الشكل والمعنى في اللغة، ترجمة: الحسن الهلالي، مجلة نوافذ، ع 30، شوال 1425، ديسمبر 2004، ص 28.29.

التلفظ[395]. مفاد هذا أن الفعل الفردي وتغيرات شروط الوضعية التلفظية يؤثران في معنى هذه الإشاريات، ويجددان معناها عند كل فعل تلفظي فردي جديد، لهذا يجب العناية بشروط هذا الفعل لتأويل الملفوظ وكشف معناه.

ففي كل مرة أتلفظ بالضمير "أنا" لا يمكنني إلا أن أشير إلى نفسي بقول أنا، والضمير "أنت" كذلك، "لا يمكنه الإشارة إلا إلى الفرد الذي خاطبه المتحدث بهدف الحديث عنه باعتباره مخاطبا"[396] وتبقى هذه الدلالة أو الإشارة متغيرة باستمرار في كل مرة تم فيها التلفظ بالضميرين "أنا/أنت".

لنتأمل في الأنوات التالية التي قمنا بتصنيفها بذكر قائليها، في الرسم التالي:

[395] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, P 81.

[396] . جون سرفوني، الملفوظية، مرجع سابق، ص26.

فلكل "أنا" من الأنوات أعلاه تشخص ذاتا جديدة وليس نفس الذات التي تلفظت بها في السابق، ولا يمكنها أن تحيل على ذات محددة في كل سياقات استعمالها. فمعنى "الأنا" التي يتلفظ بها فريد في حديثه مع أمه ليست هي "الأنا" التي يخاطب بها مستعملي المدار الطرقي الذي يشتغل فيه، خصوصا في قوله لأحدهم، مثلا: "أنا هو الحكومة"، وفي قوله أيضا: "أنا مسؤول عن أمن البلاد والعباد"، إلخ. فالوضعيات التلفظية التي يشارك فيها فريد تُظهر معنى "الأنا" في تلفظاته في صفات وهويات مختلفة أبرزها الصفات التالية:

- ☑ **صفة الإبن:** فيستعمل "أنا" بصيغة معيل الأسرة، و"رجل الدار"، وابن لالة خيرة...؛
- ☑ **صفة فريد:** يوظف ذاته بصفته مواطنا كباقي أفراد الحي الذي يسكن فيه؛
- ☑ **صفة الشرطي المزيف:** حين يقول "الأنا" تشخِّص ذات موظفٍ حكومي، رجل مسؤول، له الهبة والسلطة والسيطرة والتسلط أحيانا.
- ☑ **صفة صديق فاطمة:** حينما يتلفظ بـ "أنا" في هذه الصفة يُعطيها معنى القوة، والوفاء والرضى عن الذات إلخ.

نرى من خلال ما سبق أن ضمير "الأنا" الذي يستعمله فريد لا يمثل نفس الهوية الفردية كلما تلفظ به، وإنما تتغير هويته من استعمال لآخر، والعلة في ذلك هو تغيرات الوضعية التلفظية، كما أشرنا، وتغير الإطار التلفظي الذي يشارك فيه فريد. وكذلك الأمر بالنسبة لـ "أنا" الخاصة بباقي الشخوص. وهذا ما يؤكد قول إميل بنفنيست بأن "كل (أنا) له إحالة خاصة ويوافق في كل مرة كائنا وحيدا..."[397]. إنه لا يحيل إلا على واقع الخطاب «réalité de discours»، وهو واقع خاص جدا ولا يتكرر.

ونسجل أن هذه الإشاريات الشخصية وردت بكثرة على لسان الشخوص خصوصا الضميرين أنا/أنت، التي تجسد شكل تقابل تخاطبي بين شخصين أو أكثر، وفي كل وضعية تلفظية تُشحن بمعنى جديد وبذات جديدة، وهذا هو وجه الإبهام والتأشير في هذه

[397] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, P 252.

العلامات اللغوية التي لا تعيِّن مضمونا خاصا بها كباقي الوحدات اللغوية، ولكن تتلوّن بتغيُّر وضعية استعمالها.

هذا؛ وقد استعمل الروائي عبد الإله الحمدوشي، بتردد أقل، الضمير "نحن" كما في حديث العصابة: "نحن نراقبك ونعرف ما تفعلينه هنا، لا شيء يفوت عيوننا المترصدة لكل شيء " [ص 78]. لقد استعمل المتلفظ، وهو أحد أفراد العصابة، الضمير "نحن" في معناه المباشر، حيث تكلم باسم أفراد العصابة، وليس بمعنى "نحن" البلاغية التي تفيد تفخيم الذات، أو "نحن" السياسية التي تفيد النيابة عن أعضاء حزب كامل.

"معلوماتنا حاليا عن العصابة أكثر من معرفتنا بالهدف المزيف..."[ص 106]. فـ "نون" الجماعة في هذا الملفوظ تشمل فريق العمل في هذه القضية ولا تمثل شخصا مفردا.

لم تختلف استعمالات ضمير الجمع "نحن" عن نظيرتها الخاصة بضمير الجمع "أنتم" وما يشاكله. فقد ورد في الرواية على لسان أم فريد: "أنتم يا فاقدي الذاكرة"، وفي قول فاطمة "طلب مني أن أبلغكم تحيته وسلامه" [ص 77]، بصيغة لم تخرج عن المعنى الذي يفيد الجمع كأن تخاطب به المفرد لتبجيله....

أما بالنسبة لضمير الشخص الثالث "هو"، وهو الشخص المتحدث عنه، فيعتبر خارج الوضعية التلفظية، لذلك أدرجه إميل بنفنيست ضمن لائحة الضمائر غير الشخصية نظرا لدوره السلبي في العملية التلفظية، ويقرّ بأنه يختلف كثيرا عن الضميرين "أنا/انت"، فقال: "في التقسيم النحوي للضمائر، نقول "الشخص الثالث" troisième» «personne ولكنه يختلف تماما عن الزوج "أنا" و"أنت"، من جهة وظيفته ومن جهة طبيعته [...] إذ لا يصلح لتقديم البدائل المختصرة بكفاية (بيير هو مريض، إنه محموم)؛ إنه يعوض أو يرتبط بواحدة أو بعدد من عناصر أدوات الملفوظ. لكن هذه الوظيفة لا ترتبط فقط بالضمائر، يمكن أن تؤديها أقسام أخرى [...] إنها وظيفة التمثيل التركيبي «représentation syntaxique» الذي يقدم مفاهيم دقيقة لمختلف أجزاء الخطاب

«parties du discours» والتي تجيب عن حاجة للاقتصاد، حين تعوض قطعة ملفوظ، وقد تعوض ملفوظا كاملا بواسطة بديل أكثر بساطة «un substitut plus maniable»، ولا يوجد، إذا، أي مشترك بين وظيفة هذه البدائل والمشيرات إلى الشخص"[398].

يقصد صاحب كتاب "قضايا في اللسانيات العامة" بهذا القول؛ إن ضمير الشخص الثالث يقدم وظائف أخرى تتعدى كونه ضميرا شخصيا، ومن بين تلك الوظائف أنه قد ينوب عن كلمة أو اسم أو عن ملفوظ كامل، ويُوظَّف لتحقيق الاقتصاد اللغوي من حيث كمية الألفاظ، ويُبعِد التكرار عن الخطاب، ناهيك عن أنه لا يحيل على الأشخاص الغائبين عن الوضعية التواصلية فقط؛ وإنما يحيل أيضا على الجمادات والكائنات غير البشرية؛ ولا يستجيب، من منظور بنفنيست، لشروط الضمائر الشخصية التي تختص بتشخيص الذوات المتكلمة في الخطاب.

بعبارة أخرى؛ إن الضمير الثالث "هو" لا يختص بتشخيص ذوات إنسانية فقط حيث، كما ذكرنا، قد يحيل على ذوات غير إنسانية، وهذا ما يعود به إلى ذيل الترتيب ضمن لائحة الضمائر الشخصية التي تعكس ذات المتكلم ووجهة نظره وايديولوجيته الخاصة، في حين أن الـ "هو" لا يتمتع بهذه الوظيفة الأخيرة، لسببين بارزين؛ أولا لا يمتلك الحديث، وثانيا؛ يقع خارج الوضعية التلفظية شكلا ومضمونا. فالتصنيف الذي اقترحه إميل بنفنيست يعتمد على درجة تمثيلية الضمائر للذاتية في الخطاب، والـ "هو" أضعف الضمائر كناية على الشخص وأضعفها ذاتية كذلك.

وبهذا؛ فقد حسم إميل بنفنيست فكرة أن ضمير الشخص الغائب لا يعد صنفا من الضمائر الشخصية، وفتح بهذا الحسم سلسلة من الدراسات والانتقادات لدى عدد من اللسانيين، وقد أشرنا إلى بعضها بصدد حديثنا عن الضمائر الشخصية وعلاقتها بالذاتية.

---

[398] . Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, P 256.

من بين تلك الدراسات التي تمخضت عن الفكرة السابقة هي البحث في الضمير "هو" أيعد من الإشاريات أم لا؟.

وإن كان الضمير "هو" يشترك مع الزوج أنا/أنت في طرح موضوع الكلام، فقد اختلف اللسانيون حول إدراجه ضمن الإشاريات إلى ثلاثة آراء:

- **رأي يقول بأنه لا يعد من الإشاريات في أي حال من الأحوال،** ودليل هذا الرأي "أن ميدان الإشاريات سيكون مجالا لا حدود له وسيتضمن بشكل خاص كافة الأسماء الموجودة في رسالة ما لأننا قادرون على تحويلها جميعا إلى ضمائر بواسطة (هم) أو (هن) (s) ELLE أو أن نجعلها مسبوقة بأدوات التعريف (LE, LA, LES) وهي عملية لا تزيد عن كونها طريقة لإخراج الشخص الداخلي الذي بنيت تلك الأدوات عليه"[399]. بمعنى آخر إن الضمير "هو" وباقي أشكاله في المفرد والجمع لا تمثل صنفا محددا لما تعوّضه، وإنما قد تحيل على شخص أو كلمة أو ملفوظ كامل (كما أشار بنفنيست إلى ذلك في النص السابق)، بل قد تعوض جميع الأسماء الموجودة في النص بتعبير جون سرفوني.
- **أما الرأي الثاني فيرى بأنه يشكل جزءا من الإشاريات في بعض استخداماته،** وهي الحالات التي يؤدي "هو" دورا إيجابيا في العملية التواصلية. ويرى سرفوني أن هذا الرأي وُلد نتيجة فهم ناقص لمفهوم الضمير "هو".
- **في حين يقول الرأي الثالث بأن الضمير الغائب وحدة لغوية إشارية** مثلها مثل شكلي الشخصين الأول والثاني (ضمير المتكلم وضمير المخاطب).

وإذا توقفنا عند هذا الرأي الأخير، فإنه لا يصح إلا إذا توفرت في الـ "هو" "il" الشروط التالية:

ـ "إذا كان ضمير الغائب هو "IL" من الإشاريات فلا بد من أن يتمتع بالخاصية التي تحدد هذه الفئة، على اعتبار أن الانعكاسية Réflexivité تنطوي على الإحالة إلى

[399]- جون سرفوني، الملفوظية، ترجمة قاسم المقداد، مرجع سابق، ص 35.

أحد عناصر الإطار [التلفظي] لكن ضمير الغائب /هو/ لا يحيل على أي عنصر من تلك التي أشرنا إليها.

ـ ولكي يصنف في قائمة الإشاريات، لابد من توسيع الإطار [التلفظي]: فبالإضافة إلى المتحدث، والمخاطب، وزمان ومكان التلفظ، لابد أن يتضمن هذا الإطار موضوع الكلام مهما كان نوعه"[400].

ـ يجب اعتبار العالم أو السياق مشاركا فاعلا في عملية التبادل الخطابي وليس فقط ظرفا جامدا.

ورغم إمكانية تحقيق هذه الشروط، فإن ضمير الغائب "لا يملك الكلام كما يملكه الآخران: فإذا كان بمعنى ما مشاركا فهو غير قادر على أن يكون متحدثا"[401]. وهذا ما يمكن أن يثبت صحة قول بنفنيست بأن ضمير الغائب هو ضمير "لا شخصي" pronom non– personne.

وبهذا يمكن القول؛ إن الإشاريات الشخصية عناصر مبهمة؛ تحمل دلالة عامة، مثل دلالة "الأنا" على شخص يمتلك اللغة لحسابه، ولا تختص هذه الدلالة لتصبح معنى دقيقا إلا عند الاستعمال؛ آنذاك يمكن للضمائر أن تشخّص ذاتا أو مستمعا أو غائبا محددا وخاصا. إنها عبارة عن "دليل فارغ «signe vide» لا تحيل على موضوع ما في علاقتها بالمرجع إلا إذا استعملت من طرف المتكلم في ممارسة تلفظية praxis "énonciative" التي يعمل بموجبها على تحقيق اللسان في الخطاب"[402]، وتوشيح هويته وهوية مخاطبيه، وإثبات ذاتيتهم داخل الملفوظ أو الخطاب ككل.

غير أن فريقا من الباحثين، من بينهم جون سرفوني، اعترض على مضمون هذه الفكرة الأخيرة، خصوصا الفكرة التي يعتبر فيها إميل بنفنيست الضمائر "أشكالا فارغة"

---

[400]- جون سرفوني، الملفوظية، ترجمة قاسم المقداد، نفسه، ص 33.34 .

[401]- جون سرفوني، الملفوظية، ترجمة قاسم المقداد، نفسه، ص 35.

[402]– Émile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, p 254.

خارج استعمالها، إذ نقد سرفوني هذه الفكرة، حين قال: "لا شك أن للمرجعيات دلالة اصطلاحية، شأنها في ذلك شان علامات اللسان الأخرى، ومن هذا المنظار نرى أنها عبارة عن رموز، كما يقول بيرس، إذ نجدها في القواميس ولا حاجة بك إلى مراعاة استعمالها حتى تقول كيف تترجم في ألسنة أخرى. وعلى هذا فـ (أنا) له دلالة عامة وحيدة وثابتة تكمن في أنها تدل على موجه الرسالة، ومتلقيها (أنت) (هنا نتعرف على مصطلحية جاكبسون). لذا من الخطأ اعتبارهما بمثابة أشكال فارغة تستقبل دلالة مختلفة لدى استخدام إحداها"[403]. إلا أن هذه الدلالة لا تختص ولا تُشخِّصُ ذاتا بعينها إلا إذا استعملت من طرف تلك الذات، وهذا ما يقصده إميل بنفنيست باعتبارها أشكالا فارغة؛ إلا إذا استُعملت في الخطاب الفعلي.

- **تحليل حضور ضمير الغائب في الرواية**

تتسع مساحة استعمال الضمائر في الخطاب لضمير الغائب أكثر منه للضميرين الشخصيين وما يأتي على شاكلتهما. ومرد ذلك؛ هو ما أشرنا إلى سابقا، إنه تعدد المعوّضات التي ينوب عليها "الهو" عكس الزوج "أنا/أنت" الذي يمثل عنصري التلفظ فقط. وقد لامسنا هذه النتيجة في رواية "الحنش"، وقد يشعر بها أي قارئ لنموذج غيره. فرغم سيطرة حوارات الشخوص على مساحة لا يستهان بها من نموذجنا الروائي، حيث تحضر الضمائر الشخصية بجلاء كما رأينا سابقا، إلا أننا نسجل استعمالا مطردا للضمير الثالث، في أغلب ما جاء على لسان الشخوص وعلى لسان السارد كذلك (إلا في تلك الفقرات المعدودة التي وظف فيها تقنية السرد بضمير المخاطب). فإذا ألقينا نظرة إحصائية على الرواية نرى حضور "الهو" وأشكاله في الصفحات [5، 7، 10، 11،12، 13، 16، 17، 18، 19، 28، 29، 30، 33 إلى 47، إلخ].

[403]- جون سرفوني، الملفوظية، مرجع سابق، ص 28.

أحال الضمير "هو" في رواية "الحنش" على الأشخاص الغائبين عن الوضعية التلفظية، كما في القول التالي: "الأب كان حمالا في سوق الزرابي، له صحة غول وفجأة وبدون سابق إنذار عجز عن النهوض ذات صباح ولم ينفع معه أي علاج، وبرغم أن الطبيب شخص سبب عجزه في مرض ارتفاع الضغط الدموي الذي لم يعالج في إبانه [...] لم يكن مريضا وكان قويا ومعافى وفجأة فقد القدرة على استخدام أطرافه ولم يعد بإمكانه التحرك أو الاعتماد على نفسه حتى للذهاب..." [ص 6]. ويستمر السرد بضمير الغائب طول هذا الوصف الخاص بحالة أب فريد. يوقفنا هذا المقطع عند فكرة سابقة لجون سرفوني والتي قال فيها أنه بمقدورنا تحويل جميع الأسماء الموجودة في الملفوظ إلى ضمائر بواسطة أدوات ضمير الغائب، وهكذا حصل مع "الأب فريد في هذا المقطع، إذ استمر السارد في تعويض اسم "الأب" بـ "ه": (له، لم ينفع معه، عجزه، لم يكن مريضا، كان قويا، فقد القدرة، أطرافه، بإمكانه، نفسه). نلاحظ أيضا، الفائدة الاقتصادية التي تقدمها هذه الإحالة، حيث أغنت السارد عن تكرار "الأب" أو "زوج للاخيرة" أو "الحمال" وباقي صفاته ووظائفه، وإنما اكتفى بالإشارة إليه بـ "هاء" الدالة على الغائب. وحققت تماسك الملفوظ وانسجامه وأبعدت عنه ظاهرة التكرار، بتعبير إميل بنفنيست المشار إليه أعلاه. كما ورد في المقطع أعلاه إحالة غير شخصية وهي: "لم يعالج في إبانه" فالضمير هنا يعود على مرض الضغط الدموي الذي أصاب أب فريد. ولهذا فالضمير لا يختص بتشخيص الذوات الغائبة وإنما يحيل على غير ذلك، وهذا ما دفع بإميل بنفنيست للتصريح بأن الضمير "هو" ضمير غير شخصي.

لنثبت ما قلناه بمثال آخر:

"إنها مرحلة الانتكاسة الحقيقية لحقوق الإنسان حيث كان يعتبر الداخل إلى مخفر البوليس مفقودا والخارج منه مولودا وكان عدد القتلى بفعل التعذيب والشطط في استعمال السلطة يخلف أمواتا عدة كل سنة ودائما يبرر قتلهم بأنه انتحار أو من فعل الطبيعة...."[الحنش، ص 33]

ففي هذا الملفوظ أحال الضمير الغائب على مرحلة العهد القديم وعلى المخفر ثم على القتلى. وهي إحالات متعددة ومختلفة من سياق نصي لآخر، أحال هذا الضمير أيضا على كائنات إنسية وأخرى غير ذلك، وعلى أشياء مجردة مثل الفترة المتحدث عنها في هذا المقطع. وهي إحالات متعددة يتكفل السياق اللغوي بتخصيص معناها وإبراز المحال عليه، وهنا يلتقي ضمير الغائب مع الضمائر الشخصية من حيث ارتباطه بالسياق اللغوي الذي أنتج فيه، "فالسياق اللغوي هو الذي يسمح بترجمة "هو" وربطه بسياقه يقدم له مدلولا، والشيء نفسه بالنسبة لـ "أنا" و"أنت" اللذان يفتقدان للمرجعية في حالة فقدان الاستعمال الواقعي لهما"[404]. ففي الخطاب الواقعي يحضر الضميران ـ المخاطب والمخاطَب ـ وتحضر الإحالة على الغائب عبر التلفظ، أما في الخطاب الكتابي فتحضر كتابة، ويقوم الكاتب بتوصيفهما، والغائب كذلك لا بد أن يسبق ذكره للإحالة عليه بواسطة الضمير الثالث؛ أي أن مرجعيتهم تُبنى داخل النص، وكذلك حالها في النصوص التي قمنا بتحليلها لغرض إبراز مرجع هذه الضمائر بشتى أصنافها، لنتأمل، أيضا في المثال التالي:

"رن فجأة هاتف فاطمة، نظرت إلى رقم المتصل وإذا بها تصيح مخاطبة الحنش:

- إنه هو، هو من يتصل بي

صمتوا جميعا في انتظار قرار الحنش. أمر فاطمة قائلا:

- تحدثي معه بطريقة عادية وكأن شيئا لم يكن، افتحي مكبر الصوت لنتمكن من الاستماع معك في نفس الوقت

بمجرد أن فتحت المكالمة جاءها صوت فريد متكاسلا وكأنه فتح عينيه للتو من النوم...." [الحنش، ص 143].

[404]- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 113.114.

فالضمائر الشخصية الواردة في هذه الوضعية التلفظية، هي ضمائر الحضور التي تنوب عن فاطمة مثل "يتصل بي"، و"تحدثي معه"، وعن الحنش بافي أفراد الفرقة الأمنية مثل "افتحي مكبر الصوت لنتمكن من الاستماع معك"، أما ضمير الغائب فيعود على "فريد" الذي يقع خارج هذه الوضعية، ويظهر ذلك في : "إنه هو" "تحدثي معه" "عينيه"، يمكن أن نمثل لبنية الضمائر في هذا المقطع بالرسم التالي:

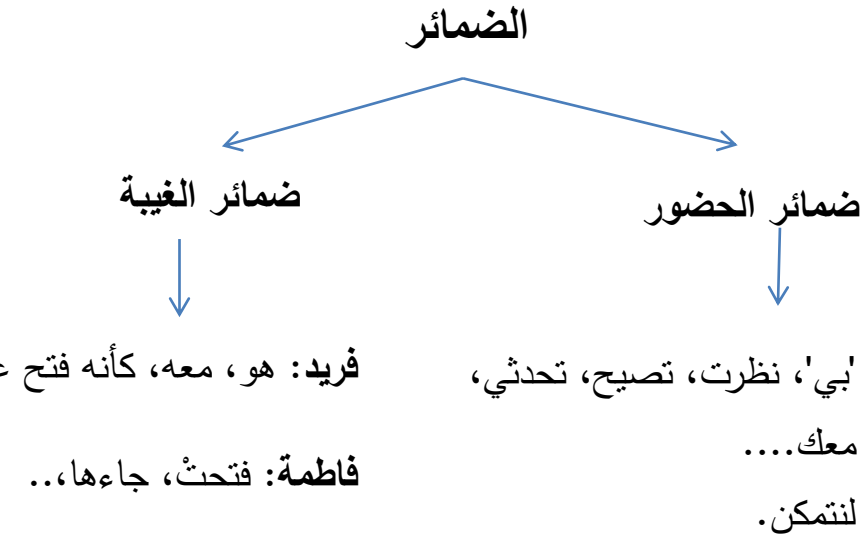

أدرجنا الضمائر التي تحيل على فاطمة ضمن لائحة ضمائر الغيبة بالنظر إلى المتكلم وهو السارد الذي يقع خارج الوضعية التلفظية، لذلك يحيل على الشخوص بضمير الشخص الثالث. أما إذا نظرنا إلى الوضعية التي انخرطت فيها فاطمة، فهي عنصر من عناصر التلفظ، وأخذت دور المتكلم واستعملت ضمير الشخص الأول، ثم دور المستمع عندما أمرها الحنش. أما ضمير الجمع في "لنتمكن" فهو إحالة مباشرة تدل على الجمع حيث استعمله العميد بمعنى أنه "متكلم يتكلم نيابة عن عناصر الفريق الأمني" وليس بمعنى تفخيم الذات.

نخلص من هذا، إلى أن الضمير "هو" وما يدور في فلكه يلتقي، كذلك، مع الضمائر الشخصية في تجدّد معناها بتجدد الوضعية التواصلية التي يستعمل فيها. ففي

كل لحظة تلفظ يشخِّص عنصرا ماديا أو مجردا أو متخيلا ولكنه يوجد خارج الإطار التلفظي.

انطلاقا مما سبق؛ تنقسم الضمائر في رواية "الحنش"، بشكل منتظم، إلى الأصناف التالية:

1. **صنف يمثل الأفعال التلفظية بين الشخوص داخل الرواية** وتحمل الضمائر الشخصية معناها من تلك الأفعال، وذلك في الحوارات التي دارت بين فريد وأمه وفاطمة والعميد الحنش وبينها وفريد وأفراد العصابة....

2. **صنف يعكس صوت ذات السارد** وهو الصنف الذي تحضر فيه تقنية السرد بضمير المخاطب، وهي تقنية لجأ إليها السارد لخلق وضعيات تواصلية مع قارئ ضمني[405]، أو مع شخصية من شخوص الرواية حين ينصِّبُها بصفتها ذاتا مخاطبة موجِّها خطابه نحوها.

ولكن إذا أمعنا النظر في الأمثلة التي أحلنا عليها في الرواية، مقارنة بما يسمى "تقنية السرد بضمير المخاطب" نجد أن الشكل الذي وظف به عبد الإله الحمدوشي ضمير المخاطب لا يستجيب لتلك التقنية؛ وإنما تتوفر فيه بعض خصائص بعض الأنماط الخاصة التي يوظَّف فيها ضمير المخاطب. فالسرد بضمير المخاطب، كما حدده بريان ريتشاردسون Brian Richardson، هو "أي سرد يضع بطله في صورة ضمير المخاطب، ويكون هذا البطل عادة هو الشخص الوحيد الذي يُرى العالم من بؤرته، كما أنه هو المروي عليه في العمل على وجه العموم. وتُحكى القصة في أغلب الأحوال في الزمن المضارع، وبعض الأشكال تتضمن كذلك استخداما متكررا للزمن الشرطي والزمن المستقبل"[406]. وبالنظر إلى هذا التعريف وفحص شروطه ومدى تحققها في الأمثلة المشار إليها في رواية "الحنش"، نرى أن السارد لم يُحقق منها سوى شرط الزمن حيث سرد القصة

---

[405]- ينظر: عبد الإله الحمدوشي، الحنش، صص: 34- 38- 51.

[406]- بريان ريتشاردسون، السرد بضمير المخاطب: فنيته ومعناه، ترجمة: خيري دومة، مجلة نزوى، ع 50، أبريل 2007م، ص 77.

في زمن المضارع؛ كقوله: "هي تعرف أن الحنش لا يفصح عما يدور في ذهنه ويكره أن تطرح عليه الكثير من الأسئلة. دائما له خطته التي لا يجب أن يفسدها له أحد بأسئلة سخيفة. عليك أن **تقبل** بالمهمة وتواصل عملك و**تفهم** بالتلميح أكثر من التصريح **وتتمم** ما تبقى من عندك" [ص 51].

إذ وظف السارد الزمن المضارع كما يبدو في الأفعال التي وضعناها بخط غليظ، إضافة إلى استعمال ضمير المخاطب في "عليك"، "عملك" "عندك". وإذا عدنا مرة أخرى لمقال بريان نجده يميز بين تقنية السرد بضمير المخاطب وأنماط أخرى توظف نفس الضمير في سردها، من بينها "السرد الذي يستخدم لفظة "أنت" بشكل متكرر، ولكننا لا نسميه سردا بضمير المخاطب، هو المونولوج الموجه إلى مستمع حقيقي أو متخيل"[407]. يمكن القول إن المقطع السابق يجسد هذا النمط بشكل جلي، فقد اهتدى إليه عبد الإله الحمدوشي في هذه السرود قصد توجيه خطابه لقارئ حقيقي أو متخيل لغايات متعددة منها إيهامه بواقعية هذه الأحداث والتعبير عن احتفائه بالقارئ، باعتباره عنصرا من عناصر الإطار التلفظي في الرواية، فيوجه إليه، بين حين وآخر، خطابه بصفته مخاطَبا؛ ويخاطبه بضمير المخاطَب.

3. **صنف يمثل المتحدث عنه من طرف السارد:** وهو الصنف الذي يُستعمل فيه ضمير الغائب، حيث اتخذ السارد وضعية السرد من الخارج، فاستعمل الضمير الغائب في سرد الأحداث. وهو الصنف الغالب على فعل السرد في رواية الحنش.

2.3 ـ الإشاريات الزمانية

يراد بالإشاريات الزمانية les déictiques temporelles الوحدات الدالة على الزمن التي لا يتحدد مضمونها إلا بمعرفة زمن التلفظ بها، وذلك بالحضور في الوضعية التلفظية أو وجود إشارات داخل الملفوظ تحيل على زمن التلفظ، وإلا سيلتبس علينا تحديد هذا الزمن تحديدا دقيقا. فإذا تم وضع ملصق إخباري على سبورة الإخبارات بالكلية، مثلا،

[407]- بريان ريتشاردسون، السرد بضمير المخاطب: فنيته ومعناه ، مرجع سابق، ص 76.

على الشكل التالي: "سيقدم الأستاذ زيدان حصة تعويضية يوم الإثنين المقبل صباحا"، ولم نخصّص الإشارية الزمنية "الإثنين"، فسيبقى هذا الإعلان ساري المفعول طوال أسابيع الموسم الجامعي، وستختلف تأويلات الطلاب لـ "الإثنين" بناء على زمن قراءة الإعلان. فمن اطّلع على الإعلان في الأسبوع الثاني من إصداره، سيفهم أن ليديه حصة في الإثنين الذي يليه؛ وهكذا. أما إذا ختمنا ورقة الإعلان بتاريخ إصداره (وهو زمن التلفظ) فإنها تعني "الإثنين" الذي يلي ذلك التاريخ مباشرة، أو قد نخصّصها بإضافة تقويمه في الشهر والسنة، أي يجب أن نحدد بدقة زمن الملفوظ، لتمر الحصة بسلام وينعم أغلب الطلبة بالاستفادة من محتوياتها، كأن نقول "... وذلك يوم الإثنين فاتح أكتوبر 2018، ابتداء من الساعة التاسعة صباحا".

يؤكد هذا المثال، على أن فك الإبهام الذي يمس العناصر الإشارية الزمنية في الخطاب يتطلب، بالضرورة، أن نميِّز بين صنفين من الزمن:

1. **زمن التلفظ:** هو الزمن الذي يُتلفظ فيه بالملفوظ، ويلعب دورا هاما في الكشف عن معنى الأزمنة الواردة في الملفوظ. وتسميه أوركيوني بالزمن الصفر (T_0)، وتقصد به فترة إنّية التلفظ بالجملة L'instance d'énonciation de la phrase،[408] وهو زمن إصدار الإعلان، ويليه الزمن T_1 وهو زمن التحقق الفعلي للتلفظ، وهو زمن رفعه على سبورة الإخبارات؛

2. **زمن الملفوظ:** هو الزمن المشار إليه في الملفوظ، بواسطة الوحدات اللغوية مثل: أمس، البارحة، اليوم، الآن،... فهذا الزمن يرتهن بالأساس إلى زمن التلفظ. وهو ما رمزت إليه أوركيوني بـ (T_2) وهو لحظة إنجاز الفعل المتضمن في التلفظ، وهو "الإثنين المقبل صباحا" كما في المثال أعلاه.

وتتخذ العلاقة بين الصنفين الشكل التالي:

[408] . Orecchioni. (C.K), 1980, l'énonciation de la subjectivité dans le langage, P 46.

✓ **فزمن التلفظ = زمن الملفوظ:** أي أنهما يتزامنان في لحظة واحدة؛ وتشخص اللغة هذا التزامن بواسطة وحدات زمنية تندرج ضمن ما يسمى "الإشاريات التزامنية" وهي "تلك الظروف التي يقترن استعمالها ودلالتها بالحاضر مثل الآن"[409]، وترد عند استعمال الضمائر الشخصية لوصف فعل بصيغة الحاضر، مثل حالات الحوار بين الشخوص:

- "أنا في طريقي إلى حفل عرس؟"[الحنش، ص 21]؛
- "أنا متواجد في دار الهدف" [الحنش، ص 62].

أخذ زمن التلفظ نسبة من زمن الملفوظ وهو فترة وجود الشرطي فريد في الدار، فزمن التلفظ بالملفوظ قصير جدا بالمقارنة مع زمن الملفوظ الذي قد يستغرق ساعة أو أكثر. ويتزامن التلفظ مع زمن الملفوظ "كلما اعتمد المتكلم الصيغة النحوية الدالة على الحاضر جعل بذلك الحدث متزامنا مع حاضر الخطاب"[410]، كما في المثالين أعلاه، أو إذا اعتمد الوحدة الزمنية "الآن"، وقد استعملها عبد الإله الحمدوشي بتردد بارز في هذا الخطاب الروائي:

أ. "الآن صار يجب أن تحاوره وكأنه شخصية مهمة وأن تعد التقرير في وقت وجيز..." [ص 36)؛

ب. "لم يعد الآن يتقبل سوى الهدايا الرمزية الرفيعة..." [ص 37]؛

ت. "ولكن كيف لجميلة مثلك أن تبقى عذراء إلى الآن" [ص 57].

تجسد الوحدة الزمنية "الأن" تزامن لحظة التلفظ مع وقوع الحدث، أي تزامن زمن التلفظ مع زمن الملفوظ. غير أن معناها في هذه الوضعيات التلفظية (السردية) ليس هو آنية التلفظ، وإنما يَمْتَدُّ معناها إلى ما هو أبعد من ذلك، ففي المقطع (أ) و (ب) يقصد بها مرحلة "العهد الجديد" التي ختم بها المغرب مرحلة "العهد القديم" وهو الماضي العنيف الذي عاشته مخافر الشرطة، حيث كان يُعنَّف المجرمون ويُرغمون على الاعتراف حتى

---

[409]- زينة سعيفان، محكي الذات وسؤال المرجع: دراسة تداولية للفضاء والزمان، ضمن كتاب الرواية والمرجع، مرجع سابق، ص 301.

[410]- زينة سعيفان، محكي الذات وسؤال المرجع: دراسة تداولية للفضاء والزمان، ص 301.

بالجرائم التي لم يرتكبوها. في حين أصبح المجرم في العهد الجديد يُستجوب كشخصية مهمة وقد لا ينطق ببنت شفة إلى أن يأتوه بالمحامي. أما في المقطع (ب) فالقصد منه هو: بعد أن اغتنى الحنش من العهد القديم صار الآن، أي في العهد الجديد، لا يقبل إلا الهدايا الرمزية.... فمدة "الآن" هي عدد السنوات التي قضاها "الحنش" عميدا للشرطة، بعد نهاية مرحلة العهد القديم.

أما "الآن" الواردة في المقطع (ت) فتحمل معنى الفترة العمرية لفاطمة. فتأويل الملفوظ هو "كيف لجميلة مثلك أن تبقى عازبة إلى هذا السن". وهكذا تؤثر الوضعية التلفظية في إشاريات الزمن وتُعْثي في معانيها تغيُّرا طولا وقِصرا.

- ✓ **زمن التلفظ يلي زمن الملفوظ:** تسمى "الإشاريات الزمنية البعدية"، وتتحقق عندما يسرد المتلفظ حدثا مضى ولا علاقة له بالحاضر ولا بالمستقبل؛ مثال على لسان البقال سي موح: "أنتِ محقة تماما ولكن من ذلك اليوم وأنتم تأخذون السلع بدون مقابل، البارحة راجعت دفتر حساباتكم فوجدت أنني لو تماديت معكم فقد أفلس قريبا...". ففعل "أخذ السلع"، وفعل "مراجعة الحساب" أُنجزا قبل زمن التلفظ، فجاء هذا الأخير بعد الزمن المشار إليه في الملفوظ "من ذلك اليوم"، "البارحة".
- ✓ **زمن التلفظ يسبق زمن الملفوظ:** وذلك إذا تضمن الملفوظ زمن المستقبل لسرد أحداث لم تقع بعد. ففي المقطع السابق خشي البقال من الإفلاس وهو حدثٌ سُرد ولم يتحقق بعد؛ أي أن زمن التلفظ تقدم عن زمن الفعل المتضمن في الملفوظ.

تتجلى تلفظية إشاريات الزمن؛ أي ارتباط معناها بالسياق التلفظي الذي قيلت فيه، كما رأينا، في ارتباط زمن الملفوظ بزمن التلفظ، فـ "من ذلك اليوم" و "البارحة" إشاريات مبهمة لا تحمل معنى تستقل به وإنما يتغير معناها بتغير زمن التلفظ. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى؛ فمعنى الزمن أو مدته قد تتغير بتغير سياق ورود الوحدات الزمنية المعبرة عن ذلك، كـ "الآن" التي أشرنا إليها أعلاه. فمعناها الأصلي هو لحظة قصيرة وتمضي فتتحول من حاضر التلفظ إلى ماضٍ قُضي أجله، أما معانيها السياقية قد تفيد زمن "الآن" الذي نعيشه؛ أي هذا القرن أو العقد، وقد تمتد إبهاما دون أن نعرف متى

تنتهي، مثل "الآن" التي عبر بها عبد الإله الحمدوشي عن مرحلة العهد الجديد. "وقد يتسع مدى بعض العناصر الإشارية إلى الزمان فيتجاوز الزمان المحدد له عرفا إلى زمان أوسع فكلمة اليوم في قولنا "بنات اليوم" مثلا تشمل العصر الذي نعيش فيه، ولا تتحدد بيوم مدته أربع وعشرون ساعة، وكل ذلك موكول إلى السياق الذي تستخدم فيه هذه العناصر الإشارية إلى الزمان"[411]. كأن نقول مثلا: "اليوم نحن مع الخلق وغدا بين يدي الخالق"، "اليوم" المقصود في هذا الملفوظ يشمل طول السنوات التي سنقضيها في الدنيا، أما "غدا" فلا يتحدد في اليوم الذي يليه، وإنما علمه عند الله؛ ويعني مرحلة ما بعد الموت وهو الفترة التي يقف فيها الخلق أمام خالقه لعرض حسابه من الحركات والسكنات.

إذن؛ فالإشاريات الزمانية مثل: أمس، البارحة، اليوم، الآن، بعدئذ، غدا... تنتمي إلى صنف الوحدات التي تتأثر بالسياق التلفظي الذي وردت فيه، فتُفرغ من الدلالة على المعنى الوضعي الذي اتُفق عليه، وتُشحن بمعنى تداولي سياقي قد تطول مدته مقارنة بمدتها الأصل، "فتمتد لبضع سنوات، وقد تقتصر دلالتها على لحظة التلفظ فقط"[412]، إنها وحدات مبهمة يتكفل السياق بتحديد معناها وتجديده بتجَدُّده، وهذا هو وجه تلفظيَّتها أي تعلق معناها بالسياق التلفظي وليس بالوضع الذي وُضعت عليه أول الوضع.

إن المطَّلع على نصوص عبد الإله الحمدوشي، خصوصا رواية "الحنش"، يلاحظ أنه يلجأ، في تنظيم الزمن في عمله الروائي، إلى توظيف الصيغ النحوية الدالة على الحاضر مثل إرفاق الفعل أو الحدث بضمير المتكلم أو الجمع، كما في المثالين التاليين:

- أنا في طريقي إلى حفل عرس؟
- أنا في دار الهدف...

---

[411]. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص 20.

[412]. الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص 84.

يتحدد الزمن في هذين المقطعين بتقديرهما كما يلي: "أنا الآن في طريقي إلى حفل عرس"، "أنا الآن في دار الهدف"، فتعبر على موازاة فعل التلفظ لجزء من الحدث، كما تعبر على أن الحدث لم يكتمل بعد، مثل حدث الوصول إلى مكان حفل العرس.

وقد عمد الحمدوشي، أيضا، إلى استعمال الضمائر المتصلة وربطها بالذات الساردة مثل: "في الوقت القريب منا"، فـ "نون الجماعة" الواردة في هذا الملفوظ تدل على ارتباط زمن هذه الأحداث بالذات الساردة وهي ذات الروائي إذ اعتمدها كمرجع أو مركز مرجعي زمني لتقديم الزمن للقارئ. وهذا ما يندرج ضمن شكل من أشكال الإيهام – أو الإلحاح– على قرب هذه الأحداث من زمن سردها أي قرب زمن السرد من زمن التجربة.

أما بالنسبة **للزمن الحاضر** في سرود عبد الإله الحمدوشي، فيجب أن نميز فيها بين:

1. حاضر الشخوص: يتجلى في إدخال شخوص الرواية في حوارات ثنائية أو جماعية، مستعملة الإشاريات التزامنية، مثل:

- الآن، اليوم، هذا الصباح، حاليا؛
- "أنا في طريقي..."؛
- "أنا في دار الهدف..."؛
- "أنت تسير في اتجاه ممنوع" [ص16]؛
- أنا حاليا من أصحاب السوابق" [ص 190]؛
- "ها أنت ترى نجاعة خدمتنا أحضرناها لك حتى قبل أن تتمم كلامك..." [ص 207].

فكل هذه الوحدات الزمنية وردت على لسان كل من فريد وفاطمة وسائق "الهوندا"، وغيرهم.

2. حاضر السارد/ فعل السرد: يتمثل في اعتماد ذات السارد، أو السياق نص– سردي، باعتباره مرجعا لفك إبهام زمن السرد المتعلق بالحاضر، مثال:

أ. لم يعد الآن يتقبل سوى الهدايا الرمزية الرفيعة.." [ص 37]

ب. لم تتمم منار دراستها وعوض الجامعة حصلت على دبلوم في الحلاقة وهي الآن تدير صالونا كلف الحنش الملايين...." [ص 39]. إلخ.

فالسياق النصي المتعلق بفعل السرد، هو المعول عليه في تمييز معنى "الآن" في هذه المقاطع السردية، فالمقطع (أ) سبقه قول السارد "الحنش كان شاهدا وفاعلا وكان دوره أن يدور في هذه الدوائر. لقد اغتنى في العهد القديم خصوصا لما كان في طنجة يعمل وسط مهربي الحشيش" [ص 37]، فسياق سرد الأحداث وسبْق الذكر لـ "مرحلة العهد الجديد" و"العهد القديم" هي محددات تفيد أن "الآن" هي آنية العهد الجديد الذي يعيشه الحنش في العمل في "سلك الأمن الوطني".

أما "الآن" الواردة في المقطع (ب) فهي مرحلة ما بعد التكوين، وهي مرحلة اشتغال ابنة العميد في محل الحلاقة الذي تكلف أبوها بتجهيزه.

3.3. الإشاريات المكانية

تعيِّن الإشاريات المكانية les déictiques spatiales العناصر الدالة على المكان المقصود انطلاقا من الإطار التلفظي وهي: هنا، وهناك، وتلك البقعة، وهذا الموضع، وشمال ذلك المكان...، وظروف المكان التي تشير إلى قريب أو بعيد من المتكلم وباقي وحدات المكان مثل فوق، وتحت، أمام، وخلف. وهي عناصر إشارية لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها الشخصية والزمنية إلا في أن تعيينها لا يتم دون معرفة دقيقة بمكان تواجد المتلفظ واتجاهه لحظة التلفظ بالخطاب، وتحدِّد "الفضاء الذي يتحقق فيه الكلام، والمقصود بذلك تحديد موقع المتلفظ بالنسبة إلى المكان"[413]، فتشكل الذات المتكلمة المكان المركزي L'endroit central للحظة التلفظ، وهذا ما يكشف عن ذاتيتها كما بينا ذلك سلفا.

[413]- زينة سعيفان، محكي الذات وسؤال المرجع: دراسة تداولية للفضاء والزمان، مرجع سابق، ص 309.

إن ما نروم بيانه، بصدد البحث في هذه الإشاريات، هو الكشف عن أوجه التعالق الذي يجمعها بوضعيتها التلفظية والبحث حول مدى نجاعة الرؤية التحليلية التي تقترحها لسانيات التلفظ. ولإعطاء كلامنا هذا أرضية يستقر عليها، وتمثيلا يُفهم به، لا بد أن نستحضر نماذج تطبيقية من نموذجنا الروائي وهو رواية "الحنش" الروائي عبد الإله الحمدوشي.

ويمكن أن نجلِّي كيف تؤسس الإشاريات المكانية المكان المركزي للذات المتلفظة لحظة التلفظ بواسطة الأمثلة التالية:

"كان وسط الدار الذي يستعمل كمكان للمعيشة مساحته صغيرة وهو مفروش على الطريقة المغربية التقليدية، على يمينه باب غرفة فريد وعلى يساره غرفة للاخيرة وأمامه المطبخ الصغير والمغسل والمرحاض". [الحنش، ص 13].

إن غياب المكان المرجعي يزيد من صعوبة تمثُّل طبيعة تصميم هذا المنزل، ويُبقي عملية الوصف ناقصة؛ قاصرة عن إفهام القارئ، فاليمين واليسار عبارة عن وحدات إشارية تتطلب دائما إطارا مرجعيا يفسّرها. فالقارئ لا يعرف زاوية نظر السارد، أو مكان تواجده، حال وصفه أركان المنزل، فاليمين المقصود في هذا النص هو يمين السارد وليس يمين وسط الدار؛ لأن هذا الأخير ليس مرجعا ثابتا يمكن الإحالة عليه، وذلك أنه يتغير الموقع يمينا ويسارا وفق الرؤية التي ينظر من خلالها الواصف إلى الشيء الموصوف، فإذا كان واقفا في مدخل المنزل يصح أن تقع غرفة فريد على يمينه، أما إذا وقف في الجهة المقابلة له؛ فتقع نفس الغرفة على يساره هذه المرة، وتصبح غرفة للاخيرة تقع على يمينه، والمطبخ والمغسل يقعان خلفه. وتتغير هذه المواقع بناء على موضع باب المنزل؛ هل تقع شرقا أم غربا أم جنوبا أم شمالا. تقول ذهبية حمو الحاج في هذا الصدد: "بينما تتنوع المبهمات الظرفية إلى أنظمة صغيرة متقابلة Micro-structure opposées من قبل: هنا/هناك، يسار/ يمين، خلف/ أمام، قرب/بعد... تضمن هذه الأنظمة قيمتها

انطلاقا من الإشارة، وضعية وتوجيه جسم المتحدث، وكل تعديل في الوضعية يعني تعديلا في المكان"[414].

ولهذا؛ فسبب الإبهام في هذا المقطع هو غياب المكان المرجعي الثابت الذي قد يتخذه السارد مركزا للوصف. فلو أشار الواصف هنا إلى الوضعية الجسدية للسارد أو إلى اتجاهه لحظة الوصف، لانكشف إبهام هذه الوحدات أكثر.

في أحيان أخرى؛ قد لا ينطلي الإبهام على ظروف المكان إذا كان يؤطرها مرجع عرفي أو قانوني، مثال "اليمين" لدى مستعملي الطريق يُقصد به دائما "يمين السائق"، كما يظهر من خلال المثال السردي التالي:

"... أحس بالخوف من أن تدهسه، رفع الصفارة إلى فمه وأطلق صفيرا حادا وأمرها بالتنحي يمينا". [الحنش، ص 20].

فـ "اليمين" هنا لا يمكن إلا أن يكون يمين السائق؛ لأن الشرطي فريد يقع أمام السيارة ويمينه هو طريق الاتجاه الآخر من المدارة.

إن بُعد المكان وقربه، يتحدد انطلاقا من الذات المتكلمة، فهنا، هناك، ذلك المكان، هذا المكان، وغيرها، يوظفها المتكلم انطلاقا من موقعه الذاتي، من وضعيته الجسدية[415]، والحركة التي يقوم بها بواسطة الجارحة أو ما يقوم مقامها، مثال ذلك قول "أم فريد":

- "إنه ذلك البقال المنحوس ..." [الحنش، ص 60].

ولأنها توجد لحظة تلفظها بهذا الملفوظ في المنزل استعملت "ذلك" عوض "هذا"، التي تستعمل للمكان القريب.

---

[414]- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، مرجع سابق، ص 125.

[415]- ينظر: ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، مرجع سابق، ص 124.

وتتحدد بعض الإشاريات المكانية في رواية الحنش من خلال السياق اللغوي/النصي الذي وردت فيه، وبه يتجدد مضمونها المكاني، لنتأمل ما يلي:

أ. "اذهبي إليهم واخبريهم أن هنا معهم "الحنش"" [ص 74]؛

ب. "أنا رئيسك وأنا هنا لأساعدك" [ص 173].

ت. "اشكرها يا ولدي فبفضلها أنا معك هنا في هذا السجن" [ص177]

ث. "وبفضلها كذلك أنا هنا" [ص 192]

فلكل استعمالات "هنا" معناها الخاص، مقرون بوضعية تلفظية خاصة. فالأولى تلفظ بها فريد، وقصد بـ "هنا" المرقص الليلي، والثانية تلفظ بها العميد الحنش، ويقصد بها "أنا هنا في العمل لأساعدك" أي مقر العمل، أما الثالثة تلفظت بها أم فريد وخصّصتها بإضافة الضميمة "في هذا السجن"؛ أي حددتها عبر السياق اللغوي وهي تحيل على نفس المكان المتعلق بالملفوظ **(ث)**. وبهذا "فكلمة **"هنا"** تعبير إشاري [وإن كان يشير إلى شيء قريب من المتكلم إلا أنه قد يكون بعيدا عن المخاطب] لا يمكن تفسيره إلا بمعرفة المكان الذي يقصد المتكلم الإشارة إليه**"**[416]. ولأن فريد وأمه يقعان في نفس المكان استعملا "هنا" للإشارة إلى مكان تواجدهما، وهو غرفة الزيارات داخل السجن. وفسّرها القارئ بالسياق الذي جرت فيه المحادثة بينهما، حيث قد نتلفظ بـ "هنا" دون أن نقصد المكان الضيق الذي نوجد فيه آنذاك، وإنما نقصد بها "هنا القارة"، "هنا المغرب"، "هنا المدينة"، "هنا الكلية"....

وتختص الوحدة الإشارية "هنا" بكونها لا تفيد المكان القريب فقط، بل قد تفيد السياق السردي للأحداث، أو تحيل على موضع من مواضع سرد الأحداث، ولمسنا هذا في قول السارد:

– "هنا بالتحديد عليها أن تقول كلاما مقنعا، أجابت وهي تضع يدها على بطنها وكأنها تعاني من مغص خفي:

---

[416]- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مرجع سابق، ص 22.

أنا مريضة يا عميدي" [الحنش، ص 173].

لا تفيد "هنا" مكان إجراء المحادثة وإنما تدل على سياق السرد وموضع الحدث من السياق العام للسرد؛ أي لما طُلب منها البوح بما يعكّر مزاجها، حينئذ، وجب عليها أن تنتقي كلماتها لتحقيق عملية الإقناع وإبعاد الظنون عن ذهن عميدها.

بالإضافة إلى ما سبق؛ إن المكان ينقسم إلى مكان حقيقي ومكان "تخييلي" أو "عاطفي" (إن صح أن نسميه هكذا) إذ تقاس الوحدات الإشارية في المكان الحقيقي بمستوى بعد المتحدث عنه أو قربه، وانطلاقا من موضع المتكلم. في حين تقاس المسافة التخييلية العاطفية بدرجة قرب المتحدث عنه من قلب المتكلم أو بعده. نقصد بهذا؛ إنه إذا كانت الوضعية الجسدية للمتكلم هي معيار انتقاء الإشاريات المكانية في الخطاب الفعلي، فإن وضعية المتحدث عنه في قلب المتكلم، والمشاعر التي يكنّها له هي التي تتحكّم في الإشاريات المنتقاة في الخطاب العاطفي والتخييلي كذلك. فالذي نكن له مشاعر الحب والعطف لا نناديه بأداة النداء للبعيد وإن كان بعيدا فعلا، إننا نحفظ مكانته قريبا منا لغويا كما فعل امرؤ القيس في معلقته حيث قال: [بحر الطويل]

أفاطِمُ مَـهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ وإِنْ كُنْتِ قَدْ أزمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي

نلاحظ أن الشاعر نادى "فاطمة" نداء القريب أداته الهمزة، ثم استعمل اسم إشارة للقريب "هذا"، للتعبير عن قربها من قلبه وإن كانت تبعد عنه لحظة إنتاج هذا البيت الشعري، عكس بعض الأمثلة الواردة في رواية "الحنش":

أ. "إنه مجرد حلم يا أمي" [ص 14]

ب. "دعواتك لي يا أمي" [ص 15]

ت. "تقدمي يا فاطمة إلى جانبي" [ص 49]

ث. "ما هذا يا عميدي؟ هل هو بوليسي حقيقي؟" [ص 50]

استُعمِلت أداة النداء للبعيد رغم تقارب المسافة بين المتخاطبين في هذه المقاطع الحوارية، وإنْ كان من بلاغة الكلِم أن تُستعمل الهمزة أو أن تحذف الأداة نظرا لحضور المنادى في إطار الوضعية التلفظية.

بالعودة إلى المثال الشعري؛ يتبين أنه لا يمكن أن نكتفي بمكان تواجد الشاعر أو اتجاهه لتحديد دلالة المكان بدقة، بل يجب الاستعانة أيضا بالسياق النصي بالبحث عن إشارات من داخل النص/القصيدة/ للوصول إلى مكان المتكلم والمخاطب. ويتجلى الإبهام في مثل هذه الوضعيات في إخراج الوحدات اللغوية عن معناها الوضعي إلى معنى "مقتضى الحال" بتعبير البلاغيين.

4.3. إشاريات الخطاب

أما ما يسمى بالإشاريات الخطابية Les déictiques discursives؛ فهي "عناصر تتعلق باستعمال بعض التعابير في الملفوظ لها علاقة مرجعية بوضعية داخل الخطاب أو خارجه"[417]. يتم تحيينها لحظة التلفظ بها؛ وكذلك يتم تحيين الخطاب بواسطتها؛ أي أنها تُجدِّد معناها لحظة استعمالها، وترتبط مباشرة بسياق الخطاب الذي وردت فيه. وتُحسب للباحث محمود نحلة الصدارة في دراسة إشاريات الخطاب والإشاريات الاجتماعية في اللغة العربية، وقال في هذا الصدد: "هناك إشاريات للخطاب تعد من خواص الخطاب وتتمثل في العبارات التي تذكر في النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم فقد يتحير في ترجيح رأي على رأي للوصول إلى مقطع اليقين في مناقشة أمر فيقول: ومهما يكن من أمر، وقد يحتاج أن يستدرك على كلام سابق أو يضرب عنه فيستخدم لكن أو بل، وقد يعن له أن يضيف إلى ما قال شيئاً آخر فيقول فضلا عن ذلك، مقد يعمد إلى تضعيف رأي بضيغة التمريض قيل، وقد يريد أن يرتب أمرا على آخر

[417] . Jessica Da Silva Anunciacao, Le discours de la persuasion: une étude pragmatique et cognitive, op cit, P101.

فيقول من ثم... إلخ وهذه كلها إشاريات خطابية خالصة لا تزال في حاجة إلى دراسة تجلو جوانبها واستخداماتها إشارياتٍ للخطاب"[418].

ثم أشار هذا الباحث إلى أنه يمكن أن نجد إشاريات زمانية أو مكانية تؤدي وظيفة الإشاريات الخطابية كأن نقول مثلا: الأسبوع الماضي ويمكن أن يقال: الفصل الماضي من الكتاب أو الرأي السابق، أو يقال: هذا النص وتلك القصة. فمعنى هذه الإشاريات يتعلق باللحظة التي يستعملها المتلفظ في خطابه فتحمل معنى خاص بها انطلاقا من سياق الخطاب.

لابد لكل خطاب، شفهي أو مكتوب، أن يزخر بمثل هذه الإشاريات الخطابية بسبب الوظائف التي تؤديها فيه وتعدد الأغراض التي يقصدها المتكلم أو الكاتب من التلفظ بها.

نؤكد، في البداية، على أن الوحدات اللغوية الخاصة بإشاريات الخطاب، لا تختلف في شيء عن وحدات باقي أنواع الإشاريات من حيث ارتباط معانيها بالسياق التلفظي أو النصي الذي ترد فيه. ويتغير هذا المعنى حسب الوظيفة التي تؤديها الوحدة أو الوحدات الإشارية في الخطاب، على اعتبار أن وحدات الإشاريات الخطابية قد تتشكل من كلمة أو جملة وقد تفوت مقدار الجملة، عكس الإشاريات الشخصية مثلا، وسنرى ذلك في الأمثلة.

وهذه بعض الوظائف التي تؤديها الإشاريات الخطابية، مرفقةً بأمثلتها من رواية "الحنش":

أ. الإحالة إلى سابق

حين نستعمل بعض الوحدات اللغوية التي تحيل على عناصر سبق ذكرها في النص، كأن نقرأ مثلا: "هذا الحلم لابد من حرق البخور من أجله على الريق" [ص 5]. فـ

[418]- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مرجع سابق، ص 24.

"هذا الحلم" هي وحدات إشارية لا يكتمل معناها إلا بالعودة إلى ما تحيل عليه لأن هذا المقطع المقتطف لا يقدم لنا مضمون الحلم والمقصود منه، بل سبق ذكر هذا الحلم الذي أيقظ "فريد" قبل أن يرنّ المنبه حيث قال السارد: "لقد حلم بأنه ترقى من حارس أمن بسيط إلى عميد 'مرة واحدة' متخطيا رتبة مفتش وضابط". [الحنش، ص 5].

قد تحيل الإشاريات الخطابية –انطلاقا من هذه الوظيفة– إلى حدث أو عنصر قريب كما في المثالين السابقين إذ وردت الإحالة في نفس الصفحة التي ورد فيها المحال عليه (الحلم)، وقد تحيل عليه من بعيد حيث تكرّر ذكر الحلم في الصفحة [12]. وكذلك في قول السارد: "لكن أليس هذا ما كانت تتمناه وتبحث عنه لما كانت جالسة تموت من الضجر في مكتبها المريح؟ [ص 77]، فالإحالة في هذا المقطع تقيم علاقة مرجعية مع حوار سابق بين فاطمة والعميد، [ينظر: الحنش، ص 30 –31]، مفاده السماح لها بالخروج للعمل في دور "الجاسوسة المزدوجة" في الملاهي الليلية والشوارع العامة. فجملة "أليس هذا ما كانت تتمناه" يلخص ما يفوق صفتين من الوصف السردي والحوار بين الشخوص.

وكأن نقرأ أيضا:

"فاطمة في بداية الثلاثينيات، لها وجه متناسق الملامح وأنف دقيق وعينان يشعان دهاء ولها بنية متينة وقوام ممتلئ إلى حد ما. يتفق الجميع أنها جميلة و'سيكسي" وما كان عليهم أن يقبلوها في سلك البوليس. ومع ذلك اجتازت المباراة بتفوق وتحملت فترة التدريب القاسية..." [الحنش، ص 28].

فـ "مع ذلك" تحيل على صفات فاطمة الجمالية وعمرها ومدى ملاءمتها للعمل بسلك الأمن الوطني، وقد ورد ذكر هذه الصفات في الفقرة الأولى من هذا المقتطف. ونضيف أيضا إن هذه الإشارية تفيد هنا الإجمال والاختصار.

ب. الإجمال والاختصار

ورد في رواية "الحنش" مجموعة من الخطابات السردية يمكن أن نستشف منها وظيفة الإجمال والاختصار في الخطاب، ومثال ذلك ما جاء في هذا المقطع: "يمكن القول إجمالا أن غرفة فريد تستغل نصف مساحة المنزل،" [الحنش، ص 11]. تؤدَّى هذه الوظيفة بواسطة الوحدات الإشارية مثل "إجمالا"، و"عموما"، كما في قوله: "عموما العصابة في مأزق وتنتظر مخرجا لها. هذا ما استنتجته من تجسسها..." [ص 74]. فكلمة "عموما" تلخّص كل المعطيات التي حصلت عليها فاطمة بفعل تجسسها على حوارات أفراد العصابة. وكذلك حين قال: "**في تلك الأثناء** كانت الراقصة قد اختفت وحل محلها منشط الحفل..." [ص 75]. إن عبارة "في تلك الأثناء" ركزت مجموعة من الأحداث الفعلية والذهنية سبق سردها في الصفحات السابقة، ويمكن أن نعيد صياغتها على الشكل التالي: بينما هي تنسج خيوط العلاقة بين فريد والعصابة وتفكر في قرار عميدها، وتفكر في الاحتمالات التي قد تؤول إليها هذه الوساطة وهي القضية عموما... كانت الراقصة قد اختفت وحلّ محلها منشط الحفل....

من خلال هذه الأمثلة وغيرها مما لم نذكره من وراية الحنش، يمكن القول إن وظيفة الاختصار والإجمال هي وظيفة داخلية يلجأ إليها السارد لطي عدد من الصفحات التفصيلية الوصفية؛ وتقليص المجهود على القارئ وإعفائه من تكرار قراءة التفاصيل التي سبق ذكرها، كما يوفّر بواسطتها مدة زمنية، وتساعده على بلوغ الحدث المقصود دون الإحساس بـ ذلك "التماطل الوصفي" الذي يعيق مسار السرد ويعطّل سيران مجرى الأحداث. ناهيك عن أنها تفعِّل لديه "الملكة الانتباهية" وتتطلب منه أن يشغل كفايته التداولية في الربط بين الأحداث وسياقات ورودها لفهم مجريات الأحداث وعدم القفز عما يبدو له ثانويا.

ت. الإحالة إلى خارج النص/الخطاب

تلك من بين الوظائف البارزة التي تؤديها الإشاريات عامة، فتُحيل على عناصر خارج لغوية كالمتكلم والمستمع والغائب المتحدث عنه. وتتميز الإشاريات الخطابية في مضمار هذه الوظيفة بأنها قد تربط بين خطابين أو عدة خطابات؛ بمعنى قد تحيل في خطاب ما على خطاب آخر، كأن نقرأ مثلا:

– "قبل ثلاثة أشهر أطلق مفتش النار على الحنش في مكتبه فيما صار يعرف لاحقا برواية "الدم اليابس" من الناحية الجسدية كان الحنش قد مات وانتهى". [الحنش، ص 40].

يمكن اعتبار "الدم اليابس" إشارية خطابية لها علاقة بمرجع خارج هذا النص، وخارج رواية الحنش بكاملها، إذ تحيل على عمل روائي آخر لعبد الإله الحمدوشي وهو رواية "الدم اليابس". فبذكر عنوان هذه الرواية في سياق سردي داخل رواية "الحنش" يمكن أن نعتبرها وحدة إشارية شيّدت الصلة بين خطاب رواية "الحنش" وخطاب رواية "الدم اليابس". بالتالي فهي وحدة إشارية لأنها لم تَعد تفيد ذلك المعنى الوضعي (وهو قطرة دم أو أكثر يابسة تحت الشمس أو نتيجة عوامل أخرى)؛ وإنما أصبحت تمثل مرجعا خطابيا لا يفهم إلا إذا كان قارئ رواية "الحنش" على علم بوجود رواية أخرى عنوانها "الدم اليابس"، مثلما أصبح "المطعم البلدي"[419] مرجعا خطابيا يتلفظ به كل من وجد نفسه في مطعم يشبه "مطعم القصيدة" من حيث النظافة ومستوى الخدمات المقدَّمة. وبهذا نستنتج أن هذه الأصناف من الإشاريات تضطلع بدور فعال في تشغيل الكفاية الموسوعية والثقافية.

---

[419]. "المطعم البلدي" عنوان قصيدة لشاعر الحمراء؛ محمد بن ابراهيم المراكشي، فهذا العنوان تحول من اسم مطعم وصار مرجعا خطابيا، فلم يعد يحيل فقط على اسم المطعم المتواجد بطنجة، وإنما صار "رمزا" يطلق على كل مطعم لا يقدم خدمات جيدة. وإذا قال المتكلم: "نحن في المطعم البلدي"، مثلا، فإنه يقصد اتصاف المحل الذي يوجد فيه بصفات المطعم البلدي الموصوف في القصيدة؛ من حيث مستوى الخدمات والنظافة....

ث. الوظيفة الحجاجية

وذلك كأن يستعمل السارد بعض الوحدات الإشارية لغايات تساهم في بناء السلم الحجاجي لقضية معينة، مثل: "طبعا لا يمكن أن تورط نفسها في مثل هذا الأمر دون مراجعة العميد، وحتى إذا لم يوافق على الفكرة فقد يضحك ملء شدقيه لأن هذا البوليسي المزيف في نظرها لم يكتف بأنه مزيف، بل وها هو يريد أن ينتحل اسم رئيسها "الحنش"" [ص 74]. فـ "بل" تأتي في دلالتها النحوية المباشرة "للإضراب عن الأوّل وإثبات الحكم للثاني، سواء كان ذلك الحكم إيجابا أو نفيا"[420]. والقصد في المثال أعلاه أن حكم الضحك والسبب فيه ليس فقط كون فريد ينتحل صفة شرطي وتريد فاطمة أن تجعله منه طعما تُوقِع به العصابة، وإنما تعدّى ذلك إلى درجة انتحال فريد صفة عميدها "الحنش". وجاء معناها في سياق ورودها لتقوية مضمون الحكم الثاني ليصبح حجة أقوى من الحكم الأول إذ الحجة في الملفوظ الثاني أقوى من الملفوظ الأول.

للإشارة؛ استعمل عبد الإله الحمدوشي في هذا المقطع السردي أسلوبا من الأساليب القولية المتعلقة بـ "الإنجاز الحجاجي"[421] ويسمى "التراكم" وهو "استعمال عديد الحجج لخدمة دليل واحد"[422].

نخلص من خلال هذا إلى أن الإشاريات الخطابية تؤدي وظائف حجاجية إقناعية حين يرغب المتكلم في توظيفها للإقناع والتأثير، إلى جانب الوظائف التي تؤديها لغويا كربط الصلة بين الخطابات داخليا وخارجيا.

---

[420]- ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، ج 5، مرجع سابق، ص 26.

[421]- ينظر: باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ترجمة: أحمد الودرني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط 1، 2009، ص 74.

[422]- باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، نفسه، ص 96.

5.3. الإشاريات الاجتماعية

يقصد بالإشاريات الاجتماعية «Les déictiques sociales» ذلك الصنف من التعابير اللغوية التي "تؤسس فروقا اجتماعية انطلاقا من دور المشاركين في الفعل التواصلي"[423] وتتجلى تلك الفروق عندما تُستعمل هذه التعابير بصورة خاصة تتعلق بالوضع الاجتماعي لعنصري التلفظ.

وتختصُّ هذه التعابير الإشارية بالإشارة إلى نوع العلاقة الاجتماعية التي تجمع بين المشاركين في العملية التلفظية. فإذا كانت علاقة ذات طابع رسمي فإن المتكلم يعمد إلى استعمال الصيغ اللغوية التي تُبقي على احترام المسافة الاجتماعية بينهما كاستعمال صيغ التبجيل في مخاطبة الغرباء والضيوف الجدد والعلماء وكبار السن؛ فيستعمل ألفاظا من قبيل: الفخامة، الجلالة سمو الأمير والسيد والسيدة...[424]. كما يعمد المتلفظ أيضا إلى توظيف الضمائر توظيفا كنائيا أي مخاطبة الشخص المفرد بضمير الجمع "أنتم" وما يندرج في إطاره. أما إذا اتخذت العلاقة بين المتلفظين طابعا غير رسمي كعلاقة صداقة أو أُلفة، فإن المتلفظ يوظف الضمائر في معناها الوضعي المباشر[425]، ويزيح المسافة الفارقة بينه وبين مخاطبيه نظرا لتقارب الوضع الاجتماعي والعلمي بينهما. وقد يستغني المتكلم عن توظيف الضمائر التي تحيل على الأشخاص ويبدلها بتعابير كنائية، "وتلك حالة أغلب مجتمعات الشرق الأقصى حيث تفرض آداب الاحترام استعمال تعابير كنائية، أو أشكالا خاصة بين بعض المجموعات البشرية لتعويض الإحالات الشخصية المباشرة"[426].

---

[423] . Jessica Da Silva Anunciacao, Le discours de la persuasion: une étude pragmatique et cognitive, op. cit ibid. p 101.

[424]. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مرجع السابق، ص 25، بتصرف.

[425]. بيتر ترادجل، السوسيولسانيات، مدخل إلى دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع، مرجع سابق، ص 96.

[426]. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، مرجع سابق، ص 139- 140.

ويؤكد هذا النص أن هذه الضمائر تندرج ضمن الإشاريات الاجتماعية كذلك، مادام أنها تكشف عن الوضع الاجتماعي والثقافي للمتخاطبين وطبيعة مستواهم التواصلي، ناهيك عن أن وجودها الضمني يعطي القيمة الاجتماعية والثقافية للمعوضات التي تفرضها العلاقات الاجتماعية؛ أي للمعوضات التي تمثلها إن وظفها المتكلم أو المخاطب في صورة الإحالة المباشرة.

يتبيّن لنا من هذا؛ أن العناصر الإشارية الاجتماعية تتأثر بالوضع الاجتماعي لمستعمل اللغة فيفعِّل المعنى الذي يرغب في تبليغه وإن كان يخالف المعنى الوضعي لهذه العناصر فيُخرجها إلى المعنى المستلزم الذي يفرضه السياق أو مقتضى الحال.

وقد شخَّص عبد الإله الحمدوشي في روايته "الحنش" مجموعة من أنماط العلاقة الاجتماعية؛ نكشف عنها لغويا عبر الوسائط اللغوية التي تتردد في حوارات أطراف هذه العلاقات.

أشرنا سابقا إلى أن الإشاريات الاجتماعية هي صنف من الوحدات اللغوية التي تسجل في الملفوظ طبيعة العلاقة التي تجمع المتخاطبين. فإذا كانت علاقة رسمية فإن ذلك ينعكس على تلك الوحدات اللغوية فتُستبدل بوحدات دالة على التفخيم والاحترام، وحفظ مسافة التأدب بينهما. هذا النموذج من العلاقة تُجسده المفتش فاطمة في مخاطبتها للعميد الملقب بالحنش:

- "لن أندم يا عميدي، لدي قلب حار وأنا أموت من الضجر بدون مخاطرة..." [ص 31]
- "لا أفكر يا عميدي في التخلي عن مهمتي..." [ص 54]

إذ تضيف ياء المتكلم إلى لقب "العميد" لتفيد نوعا من التأدب والتودد أيضا، وتعكس مستوى الاحترام المتبادل بين فاطمة والعميد مثلما يتجلى هذا المستوى في توظيف لقب "السيد العميد". غير أن إضافة ياء المتكلم إلى اللقب المهني "العميد" تعني تقارب المسافة التواصلية الحميمية بينهما، وتسجل أيضا مستوى الارتياح الذي تنعم به فاطمة في العمل

بجانب عميدها، وتفيد أنها تتودد أكثر لرئيسها في العمل أكثر مما تفيده كلمة "السيد العميد".

مهما يكن مستوى التأدب والتودد بينهما، فإن إضافة ياء المتكلم إلى ألقاب المخاطَب تندرج ضمن الإشاريات الاجتماعية، وتسجل مستوى الاحترام والتقدير الذي تكنّه المفتش فاطمة لعميدها، أما "ياء المتكلم" في معناه المباشر هي "أداة تملّك" إلا أنها في هذه الوضعية التلفظية خرجت عن هذا المعنى لغايات سبق ذكرها.

ونشير أيضا إلى أن الشرطي فريد قد جسّد نفس العلاقة التي تجمع فاطمة بالعميد "الحنش"؛ وذلك في بعض محادثاته الزائفة مع "الكومسير"، كما في قوله:

- احترامي السيد الكومسير، نعم، نعم برقية مفهومة، حالا سيدي سأكون هناك بعد ربع ساعة" [ص 61].
- "نعم "الشاف" برقية واضحة، الهدف أمامي" [ص 62].

الوحدات الإشارية الواردة في هذه الملفوظات هي: "السيد"، "سيدي"، "الشاف"، وحدات لا تحمل معنى تستقل به إلا الدلالة على الاحترام وعلى مرتبة معينة في السلم المهني، في حين أنها قد تستعمل في وضعيات تلفظية لقصد التهكم والسخرية إذ ليس كل من نخاطبه بـ "الشاف" «Chef» فهو فعلا رئيسنا في العمل. وكذلك لقب "السيد"، إذ خاطبت به فاطمة الشرطي فريد، حين قالت: "إنه النحس يا سيدي البوليسي" [ص 57]، وهي تعلم مسبقا بأنه لا ينتمي إلى سلك الأمن الوطني، بل هو شرطي مزيف يستولي على عابري سبيل المدار الطرقي.

نشير، كذلك، إلى وجود إشارية اجتماعية زخرت بها نصوص عبد الإله الحمدوشي، وهي لقب "لالة": لالة خيرة، لالة خديجة، لالة مينة. وهو لقب يجسد البنية الاجتماعية ودرجة تفاوتها بين الأفراد.

إن استعمال "لالة" تختلف دلالته في المجتمع المغربي من منطقة إلى أخرى، فتُطلق، اطرادا، عندما نخاطب بها سيدة لا نعرفها مسبقا فنناديها بلقب "لالة" والذي يقابله لقب "الست" في مصر مثلا. ويطلق عند فئة من المغاربة على زوج العم أو الخال، وهناك من ينادي به الأخت الأكبر سواء كان المنادي ذكرا أو أنثى فيناديها بـ"لالة". وتطلق أيضا في المدن القديمة والقرى على السيدات المسنات في الحي أو القرية مثلما ينادي أهل القرية أم فريد ب "لالة خيرة":

– "كيف أصبحت أمك للا خيرة؟

– بخير والحمد لله

– الله يعينك يا ولدي ويخرج "سربيسك" على بألف خير

– اللهم أمين أللا مينة" [ص 17].

في هذا المثال؛ نادت "مينة" أم فريد بـ "لالة خيرة" احتراما لكبر سنها وليس لاعتبارات أخرى سبق ذكرها. مثلما نادى فريد "مينة" بـ "للا مينة" احتراما لمقامها العمري إذ من الاحترام والتأدب في المجتمع المغربي أن ننادي من يكبرنا سنا ب "لالة" إذا كانت امرأة و"سيدي" أو "عمي" أو "خالي" إذا كان رجلا. ومن مجافات الأدب والأخلاق أن ننادي من يكبرنا سنا ويعلونا علما وخلقا باسمه مجردا من اللقب الاجتماعي (لالة، سيدي، أستاذي) أو العائلي (عمي، خالي، حبيبي (تطلق على الخال في بعض المناطق)). ولهذا اعتبر السارد نفسه فردا ضمن هذه المنظومة الاجتماعية والأخلاقية فنادى "الخبازية" بـ "لالة خيرة":

– "لم تسر أمور للاخيرة على ما يرام" [ص 8]

– "... على يمينه باب غرفة فريد وعلى يساره غرفة للاخيرة وأمامه المطبخ الصغير والمغسل والمرحاض..."[ص 13]

– ....

ويستعمل صنف من المواطنين، وعلى رأسهم أصحاب المحلات والمقاهي، هذه الإشاريات الاجتماعية كـ "لالة"، "السيد" و"السيدة" للاحترام والتودد إليه، لكسب قلوبهم ووفائهم للارتداد على خدماتهم، وقد ورد نموذج من هذا في رواية "الحنش في المثال التالي:

– "مرحبا بك "أللا" في كل وقت وحين، سواء أكان معك "الشاف" أو بدونه، اعتبري من الآن هذا المحل محلك" [ص 97].

بهذا يمكن القول؛ إن الإشاريات الاجتماعية الواردة في رواية الحنش جسدت عددا من أنماط العلاقات الاجتماعية والمهنية بين المتخاطبين وبين السارد وبعض الشخوص، وهذه بعض النماذج من تلك العلاقات:

1. **علاقة رئيس بمرؤوس** كالتي تجمع فاطمة بالعميد الملقب بالحنش، والتي تجمع كذلك الشرطي فريد بـ "الكوميسير" الوهمي.
2. **علاقة اجتماعية غير رسمية** التي تجمع أفراد الحي مثل لالة خيرة ولالة مينة؛
3. **علاقة موظف بمواطن** تجسدها علاقة فريد بمستعملي المدار الطرقي وأفراد الحي؛
4. **علاقة صاحب محل بزبونه** مثل أصحاب المقهى الذي يتردّد عليه فريد وفاطمة، وعلاقة فاطمة (بصفتها نادلة) بزبائن الملهي الليلي من بينهم أفراد العصابة وعلاقة متعلمي السياقة بأطر مدرسة السياقة.

ففي كل نمط من هذه العلاقات يوظف المتكلم صنفا من الألفاظ والألقاب والضمائر، تُبِين عن طبيعة العلاقة ومستوى التفاوت الطبقي والعلمي والمهني بينه وبين مخاطبه. وهذا الصنف من الألفاظ هو ما يسمى بالإشاريات الاجتماعية وهي عبارة عن وحدات يتغيّر معناها بتغير عناصر الإطار التلفظي وينتقيها المتكلم بناء على الخصائص الاجتماعية المميّزة للمخاطب كمستواه العمري والعلمي وسلّمه المهني والارتباط العائلي.

4. خلاصة

تتميز الإشاريات بحساسيتها المفرطة بتغيُّرات الوضعيات التلفظية التي تستعمل فيها، فلا تصمد على دلالة خاصة ولا يستقر لها حال على معنى ثابت. إنها لا تتمتع بالاستقلالية من حيث الدلالة كالتي يتمتع بها الاسم في اللغة على سبيل المثال، زد على ذلك؛ قد يضطر معها المتلفظ إلى الاستعانة بعناصر غير لغوية لتحديد المراد بها، كما يحدث حين يُرفق التلفظ بها بحركة إشارية بجارحة أو ما يقوم مقامها كالقلم في اليد أو العصا.

إن الوضع الخاص والمميز للإشاريات جعلها في مرمى المساءلة البحثية والعلمية من لدن النظريات اللغوية المهتمة بأحول الألفاظ في الاستعمال والمقام من بينها التداولية، ولسانيات التلفظ بالأخص التي تُلحّ على أن الإشاريات عناصر تلفظية تكمن "تَلَفُظِيَّتُهَا" في:

- اقتران معناها المحدد بالحضور العيني للمتخاطبين وبالوضعية التلفظية، ومشاهدتهما للمشار إليه في اللحظة الزمنية التي أنتجت فيها الوحدة اللغوية الإشارية؛
- تَجدُّدِ معناها عند كل استعمال عبر فعل فردي؛ فهي لا تحمل معنى وضعيا محددا، وإنما تُربط بمعنى خاص انطلاقا من سياق التلفظ الذي استُعملت فيه. وهذا ما يبرهن على أهمية الدراسات اللسانية الحديثة ويثبت مكانتها على الأرضية الصحيحة للبحث اللساني.

وقد أفادَنا البحث في الإشاريات، بخلاصات عامة تتعلق بطبيعة اللغة ككل، وهي كالتالي:

- إن اللغة لا انفصام لها عن الذات المتكلمة؛ وعن ملامسة الوضعيات التلفظية التي تستعمل فيها. وقد كشف البحث في الإشاريات بشتى أصنافها عن هذا التعلّق المتين

بين اللغة وهذه الذات والسياق. فالتلفظ هو فعل لغوي ذاتي وإشاري واجتماعي وسياقي يجب الأخذ بطبيعته هاته في أي محاولة لفهم اللغة.

- إن اللغة قاصرة عن التبليغ إذا عُزلت عن سياق استعمالها، خصوصا في جزئها الإشاري؛ وهو جزء لا يستهان به، فلا محادثة بدون "أنا/أنت، الآن/ بعد حين، هنا/هناك" وغيرها ذلك كثير.
- لا تُسعف اللغة في التعبير عن كل مراد أو مقصود، إذ قد تضعُف هِمّتها حين تَدفعُ المتكلمَ إلى الاستعانة بعناصر غير لغوية لتبليغ مقصوده وإفهام المتلفظ المشارك؛ كأن يستعين بالإشارة بالأصبع أو الحاجبين أو الرأس أو تغيير ملامح الوجه عند الرغبة في تدقيق المعنى المراد تبليغه. ونلاحظ هنا شكلا من أشكال المزج بين التواصل اللفظي والتواصل غير اللفظي (أو التواصل الصامت) والتعاون بينهما لإسعاف المتلفظ على إفهام المتلفظ له، ويجمعهما مفهوم البيان عند القدامى؛ مثل الجاحظ[427]. ولكن هذا المزج بين هذين النمطين من التواصل ليس بمحض إرادة المتلفظ دوما؛ وإنما يُفرض عليه بسبب عدم كفاية الوحدات الإشارية في تدقيق ما تحيل عليه لأنها تحيل على متعدد وفي كل سياق لها إحالة جديدة.

وتزداد وظيفتها ضعفا مع الخطاب المكتوب، حيث يضطر الكاتب أو الروائي إلى تسجيل تلك المؤشرات غير اللغوية الموظفة في الملفوظ كأنه ينقل لنا مشهدا تلفظيا أقرب إلى مشهد مسرحي يُرجى تشخيصه بحركاته وتلفظاته، مثال ذلك؛ نقرأ:

"أمرها بصرامة قائلا:

– تقدمي يا فاطمة إلى جانبي

ظلت متجمدة في مكانها وإذ رفع بصره إليها لم يتمالك نفسه من إطالة النظر إلى لباسها وهو يبتسم ابتسامة متعجبة.

---

[427]- ينظر: الحسن الهلالي، التواصل غير اللفظي في التراث العربي الإسلامي: ملاحظات أولية، مجلة علامات، ع 26، 2006، ص 70.

– اقتربي والق نظرة، قال وهو يغض الطرف لكي لا يذهب فضولها بعيدا، اقتربت منه وكانت مجبرة أن تنحني إلى أن كادت تلامسه لتتمكن من الرؤية..." [ص 49].

يريد العميد أن يُطلع فاطمة على قضية جديدة في حاسوبه، وهي قضية الشرطي المزيف الذي التقطته عدسات الكاميرا وهو يسطو على مستعملي الطريق منتحلا صفة شرطي حقيقي. ويسبق هذا المقطع أن فاطمة ترتدي لباسا "غير محتشم" فرضته طبيعة الدور الذي تقوم به في الملهي. فلما طلب منها العميد أن تقترب منه، والقصد أنه يريدها أن تلقي نظرة على مقطع الفيديو المنقول على حاسوبه، واستشف من ريبْتها أنها فهمت شيئا ما، فأعاد دعوتها للاقتراب غاضا طرفه لتجنب سوء الفهم الذي كان يساورها.

ما يهمنا من هذا المقطع أن السارد اضطر إلى أن ينقل لنا حركات وملامح الشخوص وهي تتناول الكلمة فيما بينها لتأويل الملفوظات الصادرة عنها. فـ "غض الطرف" هو إشارة غير لغوية ولكنها لعبت دور الموجه الأول والفعلي لتأويلات فاطمة لما يريده العميد. فلو لم يغض الطرف أو أطال النظر في ملابسها لفهمت غير ما كان يقصده العميد من طلبها للاقتراب. ويحدث في سياق التلفظ أن نميّز الهزل من الجد والشكر من الاستهزاء انطلاقا من نظرات المتكلمين وحركات أجسادهم وملامح وجوههم.

يمكن القول انطلاقا مما خلصنا إليه (بأمثلة من نصوص فعلية) إنه يصعُب أن نزعم فهم اللغة بمعزل عن سياق استعمالها، فما بالك بالخطاب؛ الذي لا مناص له من حضور الآثار السياقية المؤثرة في معانيه، ومن بصمات الذات المتكلمة، التي تعد ذاتا مركزية égocentrique من خلالها تتشكل كل معاني العناصر الإشارية إذ هي التي تؤسس ما يسمى بـ "المركز الإشاري" "le centre déictique"، المتعلق بكل نوع من أنواع الإشاريات، وهي كما يلي:[428]

[428]. Jessica Da Silva Anunciacao, Le discours de la persuasion: une étude pragmatique et cognitive, op. cit ibid, P: 101.

- ✓ الشخص المركزي هو المتكلم؛
- ✓ الزمن المركزي هو زمن خطاب المتكلم؛
- ✓ المكان المركزي هو موضع المتكلم لحظة الخطاب؛
- ✓ الخطاب المركزي هو النقطة التي يُمَوْضِعُهَا المتكلم بتردّد عند إنتاج خطابه الخاص؛
- ✓ المركز الاجتماعي هو المكانة الاجتماعية للمتكلم في علاقتها بمكانة المستمع.

وبعد هذا الذي خلُصنا إليه بصدد ارتباط اللغة بالذات وبالسياق الذي تستعمل فيه؛ أَوَلم يأْنِ للبنيويين أن يسلموا بهذا الارتباط؟؛ وقد أرهقهم الهروب من دراسة المعنى ومنعِه من حظوة البحث اللساني، وشقاؤه يدركهم في أبحاثهم أينما حلوا وارتحلوا بنظرياتهم "العلمية"، بلى "لقد رُفع اليوم هذا المنع، غير أن الحذر لازال قائما ويُعلل بالخاصية الغامضة والعائمة، بل والمتقلبة للمفاهيم التي نصادفها في الكتب ذات المنزع التراثي المكرسة لما نسميه الدلالية La sémantique"[429].

[429]- إميل بنفنيست، الشكل والمعنى في اللغة، ترجمة: الحسن الهلالي، مرجع سابق، ص 29.

الخـاتـمـة

لقد حاولنا في هذه الأطروحة الكشف عن الآليات الإجرائية التي اقترحتها لسانيات التلفظ بصدد تحليل الخطاب، ورصد مراحلها التحليلية، ثم تطبيقها على نموذج روائي وهو رواية "الحنش" للروائي عبد الإله الحمدوشي.

وكانت بداية رحلة هذا البحث بالانطلاق من تحديد مفهوم الخطاب وإبراز مكانته في البحث اللساني، للكشف عن حجم الاهتمام الذي أصبح يحظى به في العقود الأخيرة، ولإبراز وجهة نظر اللسانيين التلفظيّين إزاء هذا المفهوم. وقد استنتجنا من ذلك أن الخصائص المميزة للخطاب لا تتحدد بشكل واضح إلا إذا وضعناه في تقابل مع المفاهيم المحيطة به كاللغة والجملة والنص والحدث والكلام. ثم خلصنا إلى أنه حظي باهتمام تدريجي ومتزايد من قبل اللسانيين، مع توالي نظريات لسانيات الخطاب، وعلى رأسها نظرية التلفظ.

ثم انتقلنا إلى تحديد مفهوم تحليل الخطاب والتأريخ له عبر محطات مختلفة، ثم مررنا إلى إبراز خصائص المقاربة التلفظية في تحليل الخطاب، وإظهار آلياتها المميزة بمقارنتها بالتحليل البنيوي الذي كان سائدا قبل بروز النظريات اللسانية الحديثة التي تحفل بالسياق والتلفظ والحجاج. فتوصلنا من خلال هذا التحديد إلى النتائج التالية:

1. إن تحليل الخطاب تخصص متشعب لا يمكن أن ننسبه إلى البحث اللساني إلا إذا كان يتضمن منهجا لسانيا متّبعا في التحليل؛ لأنه تخصص قد يوظفه اللساني والبلاغي وعالم الاجتماع وعالم النفس والأنتروبولوجي وغيرهم، ولكن ما يميز عمل هذا المحلل عن ذلك هو الرؤية المنهجية المتبعة والغايات المستهدفة من ذلك التحليل، فإذا كان المنهج لسانيا والغاية كذلك، آنذاك يمكن أن نصنفه ضمن التحليل اللساني للخطاب، كما فعلنا في هذا البحث الذي تتبعنا فيه خطوات المنهج التلفظي، وجهازه المفهومي المرتبط بمجال التلفظ والخطاب وآليات التذويت.

2. اضطرب الباحثون في تحديد تاريخ ظهور تحليل الخطاب، وتحديد الإسهامات الأولى المقترحة، لذلك حاولنا تقسيم مراحل هذا التأريخ وصنّفناها إلى مراحل محددة،

وأشرنا إلى مبررات كل تصنيف على حدة، فخلصنا إلى أن ظهور تحليل الخطاب مر بثلاث مراحل، أُولاها هي محطة دو سوسير التي أطلقنا عليها مرحلة "التأسيس والتأجيل"، وثانيها محطة زليغ هاريس وهي مرحلة "المحاولة"، أما ثالثها فتتحدد في مرحلة أحداث (ماي 1968) بفرنسا، ووسمْناها بمرحلة "ثورة ووعي".

3. لقد قدمت لسانيات التلفظ جهازا مفهوميا للاشتغال على تحليل الخطاب بشتى أنواعه، واقترحت خطوات منهجية واضحة لدراسة الخطابات وتأويلها، وهي مجهودات تخوِّل لها أن تُذكر على لسان كل مؤرخ لتحليل الخطاب في اللسانيات، وما يدل على ذلك أن مفاهيمها كالذاتية والتلفظ والمتلفظ والمتلفظ المشارك والتلفظ التاريخي والخطابي والمشهد التلفظي إلخ، قد امتدّت إلى تخصصات أخرى كالسرديات وسيميائيات الهوى، وغيرها. مما يدل على مكانتها البارزة داخل الحقلين اللساني والأدبي.

بعد ذلك كان من اللازم علينا أن نتحدث عن لسانيات التلفظ وأصولها ومفاهيمها، وأن نُبرز جهود روادها البارزين. فخلصنا إلى أن الأصول الإبستمولوجية للسانيات التلفظ تتحدد في الفلسفة الأرسطية، والإيطوس الأرسطي خاصة، وفي النحو العربي والفلسفة الوجودية. فحين عقدنا بعض المقارنات بين تصورات هذه الأصول وما جاء على لسان مؤسسي النظرية التلفظية، وعلى لسان إميل بنفنيست بالخصوص، توصلنا إلى وجود عدة نقاط يلتقي فيها هذا الأخير مع ما ورد بصدد الأصول المذكورة. وقد تبين لنا ذلك أيضا من خلال ما صرح به إميل بنفنيست، مثال ذلك ما قاله حين أكد على أهمية الاعتماد على النحو العربي لإنشاء نظرية خاصة بالضمير.

إننا نرى أن لسانيات التلفظ قد جسدت فعليّا، من خلال استفادتها من هذه الأصول النظرية، ذلك الانفتاح الذي شهده البحث اللساني في النصف الثاني من القرن العشرين، إذ استجابت لتلك الضرورات البحثية مثل ضرورة تجاوز البنية اللغوية، والبحث في المستويات التي تفوق الجملة، كالملفوظ والخطاب للكشف عن آثار الذات وتجلياتها في هذه المستويات، ثم آثار المجتمع على النسق اللغوي ومعانيه.

ثم خلصنا من خلال القضايا التي تطرقنا إليها في الفصل الرابع إلى أن نظرية التلفظ أعادت ثنائية الذات والموضوع إلى الدرس اللساني؛ وامتدت عبرها هذه الثنائية إلى ساحة الدراسات السردية، فأصبحت تشكل نقطة التقاء بين اللسانيات التلفظية والسرديات الحديثة. وقد كان من نتائج الاحتفال بالذات المتكلمة في الخطاب والسرد ظهور تخصصات جديدة مثل سيكولوجيا السرد والدراسات السردية الثقافية التي أصبحت تنظر إلى أشكال تعلُّق السرد بالحياة الاجتماعية وبالتواصل الثقافي والاجتماعي بين الشعوب والأفراد، وإلى حالات ارتباط فعل السرد بالحالة النفسية للسارد والمتكلم.

وقد كان من محصّلات هذا الإنماء البحثي عبر تخصصي الاشتغال بالعملية السردية ليس باعتبارها مجموعة من النصوص تروي أحداث مضت أو تتنبؤ بما قد يحدث؛ وإنما باعتبارها عملية تُشيّد أحاسيس متنوعة للهويات الشخصية والعلاقات الاجتماعية في الوقت ذاته، وتنشِّط الذاكرة الفردية والجماعية، وتنظم خبرات الذوات المتلفظة وتعكس نواياها، وتبني جسور التواصل الثقافي بين الأجيال. وبنظرنا إلى العملية السردية من هذا المنظور يمكن القول إن السرد يقدم أدوات جوهرية تعطي شكلا ومعنى لخبراتنا وبالتالي يجب الأخذ بها أثناء تحليل الخطاب الروائي ونقده.

ولم تكتف لسانيات التلفظ بإعادة الاعتبار لثنائية الذاتية والموضوعية، وإنما اتخذها إميل بنفنيست معيارا لتصنيف فعل التلفظ إلى صنفين هامين وهما: التلفظ التاريخي والتلفظ التاريخي. يكتسي الأول صبغة ذاتية المتلفظ حين يعمد إلى توظيف الإشاريات الذاتية واستحضار عناصر الوضعية التلفظية في الخطاب. أما التلفظ الثاني فيحاول أن يقدّم وجهة نظر منعزلة عن الذات المتلفظة عبر استبعاد الأدوات الإشارية الذاتية، وهي الأنا/ والأنت، والآن، وهنا....

غير أننا توصلنا إلى أن التصنيف الذي قدمه إميل بنفنيست أثار نقاشا طويلا بين الباحثين اللسانيين نذكر منهم دومنيك مانغونو وآن ريبول وجاك موشلار، إذ كشف هؤلاء عن أوجه قصور هذا التصنيف، نتيجة العوامل التالية:

- ✓ عدم كفاية الأدوات التصنيفية؛ أي الضمائر والإشاريات، في تقديم معايير ثابتة لهذا التصنيف؛
- ✓ عدم انفكاك اللغة عن الذات المتلفظة حتى في الحالات التي تتطلب ذلك، مثل حالة الخطاب التاريخي وخطاب العلوم الدقيقة؛
- ✓ ارتباط الخطاب الروائي بالوصف، وارتباط هذا الأخير بالذات الواصفة، إذ توصلنا إلى أن أوجه ضعف هذا التصنيف تتجلى أكثر في الخطاب الروائي.

وتوصلنا، أيضا، إلى أن هذا العوز الذي يعتري هذا التصنيف البنفنيستي لم يمنع الباحثين من الإقرار لإميل بنفنيست بمجهوداته وبجدة رؤيته التحليلية التي اقترحها، كما أنه لم يمنعنا من أن نقر له بمجهوداته بصدد إعادة الاعتبار للذات وللتلفظ في اللسانيات.

إلى جانب هذا؛ فقد حاولنا في الفصل السادس من هذه الأطروحة تفعيل النموذج التواصلي الذي طرحته كاترين كربرات أوركيوني، فقمنا برصد تجلياته في الخطاب الروائي لتنزيله على مقاطع روائية من رواية "الحنش" للتأكد من مدى تمثُّل النموذج المطروح لخصائص التواصل "متعدد السنن" كالوضعيات التواصلية المجسدة في رواية "الحنش".

فتوصلنا إلى انسجام بعض المفاهيم، وحضورها في الرواية مثل حضور أثر قيود عالم الخطاب في عملتي الإنتاج والتأويل التي يقوم بها السارد، وتقوم بها الشخوص أيضا في حواراتها. وقد تلمسنا، كذلك، أثر الكفايات الأيديولوجية والثقافية على المستوى اللغوي للسارد والشخوص أيضا حيث لعبت هذه الكفايات دورا هاما في التحكم في عملية إنتاج الخطاب وفي تأويله التأويل المناسب، كما رأينا في الحوار الذي دار بين فريد وأمه، والدعاء الذي وجهت له، فهو دعاء من اختيارها ولكن من إملاءات قيود عالم الخطاب المتمثلة في طبيعة الفترة التي طلب منها فريد دعواتها، ومن فرض كفايتها الموسوعية؛ أي معرفتها بطبيعة العمل في ميدان الأمن الوطني.

بهذا؛ يمكننا القول إن النموذج التواصلي الذي قدمته أوركيوني تَمثُّل ذاتية المتلفظ والمتلفظ المشارك في صورتها الايديولوجية فقط؛ عبر الكفايات الأيديولوجية والثقافية التي يوظفانهما في إنتاج الملفوظات وتأويلها. ولكنها لم ترصد في نموذجها عنصر الذاتية مثلما فعلت مع قيود عالم الخطاب وآليتي الإنتاج والتأويل لدى كل من المرسل والمرسل إليه.

لهذا يمكن القول؛ إن الخطابات في الرواية تشكل نموذجا من نماذج التفاعل التواصلي الحاصل بين الفرد وذاته، وبين الفرد ومجتمعه، وهو ما يسمى بـ "التفاعل الخارجي" بعبارة أحمد العاقد، الذي يقابله "التفاعل الداخلي" بين السارد والمسرود له داخل المتن الروائي. وإذا تأملنا في سيرورة الإنتاج الروائي وتحولاته نجدها لا تعدو أن تكون انعكاسا للتحولات التي تعرفها المجتمعات، وللتغيرات التي تطرأ على الذات الفردية كذلك. وبالتالي؛ فلا بد أن ينعكس ذلك على صورة البناء الخطابي للرواية.

وصولا إلى الفصل الخاص بإشاريات الخطاب الروائي؛ خلصنا إلى أنها وحدات لغوية تتميز بحساسيتها المفرطة بتغيرات الوضعيات التلفظية التي تستعمل فيها، فلا تصمد على دلالة خاصة ولا يستقر لها حال على معنى ثابت، وإنما تحمل دلالة وضعية عامة، ويعمل سياق التلفظ وقصد المتلفظ بتدقيق المعنى المراد لها أن تعبر عنه.

فقد سجلنا من خلال تتبعنا لأشكال توظيف العناصر الإشارية في رواية "الحنش" مجموعة من النتائج تخص تجليات تلفظيّة هذه الوحدات اللغوية وطبيعة تشكيل معناها في الخطاب، ويمكن تركيزها فيما يلي:

- اقتران معنى الإشاريات بالحضور العيني للمتخاطبين وبالوضعية التلفظية، ومشاهدتهما للمشار إليه في اللحظة الزمنية التي أُنتجت فيها الوحدة اللغوية الإشارية؛
- تَجدُّد معناها عند كل استعمال عبر فعل فردي؛ فهي لا تحمل معنى وضعيا محددا، وإنما تُربط بمعنى خاص انطلاقا من سياق التلفظ الذي استُعملت فيه. وهذا ما

يبرهن على أهمية الدراسات اللسانية الحديثة ويثبت مكانتها على الأرضية الصحيحة للبحث اللساني.

وقد توصلنا من خلال البحث في إشاريات الخطاب الروائي إلى خلاصات أخرى عامة تتعلق بطبيعة اللغة ككل، وهي كالتالي:

- إن اللغة لا انفصام لها عن الذات المتكلمة؛ وعن ملامسة الوضعيات التلفظية التي تستعمل فيها، وقد كشف البحث في الإشاريات بشتى أصنافها عن هذا التعلّق المتين بين اللغة وهذه الذات والسياق. فالتلفظ هو فعل لغوي ذاتي وإشاري واجتماعي وسياقي يجب الأخذ بطبيعته هاته في أي محاولة لفهم اللغة.
- إن اللغة قاصرة عن التبليغ إذا عُزلت عن سياق استعمالها، خصوصا في جزئها الإشاري؛ وهو جزء لا يستهان به، فلا محادثة بدون "أنا/أنت، الآن/ بعد حين، هنا/هناك" وغيرها ذلك كثير.
- لا تُسعف اللغة في التعبير عن كل مراد أو مقصود، إذ قد تضعُف هِمّتها حين تَدفعُ المتكلمَ إلى الاستعانة بعناصر غير لغوية لتبليغ مقصوده وإفهام المتلفظ المشارك؛ كأن يستعين بالإشارة بالأصبع أو الحاجِبَيْن أو الرأس أو تغيير ملامح الوجه عند الرغبة في تدقيق المعنى المراد تبليغه. فيتم المزج بين التواصل اللفظي والتواصل الإشاري والرمزي والتعاون بينهما لإسعاف المتلفظ على إفهام المتلفظ له، ويُفرض على المتلفظ أن يأخذ بعين الاعتبار هذا التعاون بين النمطين بسبب عدم كفاية الوحدات الإشارية في تدقيق ما تحيل عليه لأنها تحيل على متعدد ولها في كل سياق إحالة جديدة.

ختاما، في ضوء هذه الخلاصات، نشير إلى أن لسانيات التلفظ شهدت تطورا ملموسا في فترة وجيزة، وحققت عدة تراكمات في مجال تحليل الخطاب، من بينها تطوير نظرية "تعدد الأصوات" (التي أسسها ميخائيل باختين)، من لدن أوزوالد ديكرو، الذي ربطها بفعل التلفظ، فأصبحت تعدّ نظرية مستقلة بذاتها تسمى بـ "نظرية تعدد الأصوات"، وفي الآن نفسه هي فرع انبزغ من رحم نظرية التلفظ. كما راكمت اللسانيات التلفظية

تجربتها أيضا بالبحث في أشكال عملية تصويغ الخطاب انطلاقا من حضور ذاتية المتكلم أو غيابها. وهذا ما يؤكد لنا أن هذا البحث لن يقف عند هذا الحد؛ وإنما لازالت أمامه أسئلة إشكالية مفتوحة، تخصّ إشكالية تلفظية تعدد الأصوات، وقضايا التصويغ التلفظي للخطاب الروائي.

ثبت المصطلحات الأجنبية

المصطلح العربي	مقابله الأجنبي
الفعل الفردي	Acte individuel
الحدث	Action
النشاط اللغوي	Activité de langage
التباس	Ambiguïté
تحليل المحادثة	Analyse conversationnelle
تحليل المضمون	Analyse de contenu
تحليل الخطاب	Analyse du discours
الإطار التلفظي	Cadre énonciatif
المركز الإشاري	Centre déictique
سنن اللسان	Code de la langue
المتلفظ المشارك	Co-énonciateur
المتكلم المشارك	Co-locuteur
المكون البلاغي	Composant rhétorique
شرط الكلام	Condition de parole
التنازع	Conflit
السياق التلفظ	Contexte d'énonciation
السياق الموضعي	Contexte situationnel
الاستمرارية	Continuité
قيود عالم الخطاب	Contraintes de l'univers de discours
القيود الموضوعية البلاغية	Contraintes thématico-rhétoriques
حل السنن	Décodage
الإشاريات	Déictiques
الإشاريات الخطابية	Déictiques discursives
الإشاريات الشخصية	Déictiques personnelles

Déictiques sociales	الإشاريات الاجتماعية
Déictiques spatiales	الإشاريات المكانية
Déictiques temporelles	الإشاريات الزمانية
Dissymétrie	لا تجانس
Divergences idiolectales	الاختلافات الايديولوجية
Données situationnelles	المعطيات السياقية
Effacement énonciatif	الامحاء التلفظي
Ego	الأنا
Egocentrique	الذات المركزية
Embrayé	الموصول
Embrayeurs	الوصلات
Encodage	عقد السنن
Endroit central	مكان مركزي
Enoncé	الملفوظ
Enoncé embrayé	ملفوظ موصول
Enoncé non embrayé	ملفوظ غير موصول
Enonciation	التلفظ
Enonciation de discours	التلفظ الخطابي
Enonciation historique	التلفظ التاريخي
Environnement	المحيط
Ethos	صورة المتكلم
Harmonies	التوافقات
Hic et nunc	الإخراج اللحظي
Image de soi	صورة الذات
Immanence	المحايثة
Individus linguistique	الفردية اللسانية

Information Extra-énoncitives	معلومات خارج تلفظية
Instance d'énonciation de la phrase	إنّية التلفظ بالجملة
Instance du discours	لحظة الخطاب
Instrument	الأداة
Intelligence	الذكاء
Inter sujets	البين-ذاتي
Interaction	التفاعلية
Interaction Communicationnelle	التفاعل التواصلي
Interlocuteur	المتكلم له
Intersubjectives	البين ذواتية
Intersubjectivité	ذاتية بينية
Langue	اللغة
Langage	اللسان
Linguistique du code	لسانيات السنن
Local language	اللغة المحلية
Locuteur	المتكلم
Logos	اللغة
Lois du discours	قوانين الخطاب
Marques	سامات
Micro-structure opposées	أنظمة صغيرة متقابلة
Modalisation	التصويغ
Modèle d'interprétation	نموذج التأويل
Modèle de production	نموذج الإنتاج
Mythe	الأسطورة
Narration	السرد/الحكي

Narratologie énonciative	السرديات التلفظية
Non-personne	اللاشخصي
Non-symétrie	اللاتناظر
Occurrence	التحقق
Parole	الكلام
Parties du discours	أجزاء الخطاب
Pathologiques	مرَضية
Pathos	العواطف
Phénomène inaccessible	ظاهرة عصية الضبط
Phrase	الجملة
Praxis énonciative	الممارسة التلفظية
Pronom non- personne	ضمير غير شخصي
Réalité de discours	واقع الخطاب
Reconnaissance	التعرف
Réductive	اختزالية
Référenciation	التأشير
Réflexivité	الانعكاسية
Régulation	الضبط
Repérage	استعلام
Représentation	التمثيل
Représentation syntaxique	التمثيل التركيبي
Scène d'énonciation	المشهد التلفظي
Sélective	اختيارية
Sémantique	الدلالية
Sens	المعنى
Signe vide	دليل فارغ

Signification	الدلالة
Situation d'énonciation	الوضعية التلفظية
Situation de parole	وضعية الكلام
Spatio-temporelle	الزمكانية
Subjectivisation	التذويت
Subjectivisation référentielle	التذويت المرجعي
Subjectivité	ذاتية فردية
Subjectivité impersonnelle	الذاتية غير شخصية
Systématisation	النسقية
Taxionomique	تصنيفية
Théorie de communication	نظرية التواصل
Transphrastique	عبر-جملية
Travail de bricolage	عمل ترقيعي
Troisième personne	الشخص الثالث
Volonté	إرادة

ثبت

المصادر والمراجع

لائحة المصادر والمراجع

المصادر الروائية

1. **عبد الإله الحمدوشي**
   - الحنش، قصة حب بوليسية، منشورات دار التوحيدي، الرباط، ط1، 2017.
   - شمس العشي، العائدة، منشورات دار التوحيدي، الرباط، ط1، 2015.

المصادر والمراجع المعتمدة باللغة العربية

2. إبراهيم عمري، خطاب الرواية المغاربية، منشورات شعبة الآداب والتواصل، مطبعة أنفو برانت، فاس، ط1، 2014.
3. ابن يعيش (موفق الدين أبي البقاء يعيش بن علي الموصلي)، (م643)، شرح المفصل للزمخشري، دار الكتب العلمية، ط1، 2001/1422.
4. أحمد العاقد، آليات التواصل، دراسات في تنوع أشكال الخطاب، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة 2016.
5. أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، بحث في الوظيفة والبنية والنمط، دار الأمان، الرباط، ط1، 2010/1431.
6. إدريس الخضراوي، سرديات الأمة، تخييل التاريخ وثقافة الذاكرة في الرواية المغربية المعاصرة، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2017.
7. إديث كريزويل، عصر البنيوية، ترجمة: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1993.
8. ألجيراس جوليان كريماس وجاك فونتنيي، سيميائيات الأهواء، من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ترجمة سعيد بنكراد، دار الكتب الجديدة المتحدة، ط1، 2010.

9. أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني، افريقيا الشرق، 1991.
10. باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ترجمة: أحمد الودرني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط 1، 2009.
11. بول ريكور، من النص إلى الفعل، ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2001.
12. بيتر ترادجل، السوسيولسانيات، مدخل إلى دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع، ترجمة محمد كرم الدكالي، إفريقيا الشرق، 2017.
13. تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين: المبدأ الحواري، ترجمة: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1996.
14. جان بول سارتر، الوجود والعدم، بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، ترجمة عبد الرحمن بدوي، منشورات دار الآداب، بيروت، ط1، 1966.
15. جرهارد هلبش، تطور علم اللغة منذ 1970م، تر: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2007.
16. جون سرفوني، الملفوظية، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد كتاب العرب، 1998.
17. جين إتشسن، اللسانيات مقدمة إلى المقدمات، ترجمة عبد الكريم محمد جبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016.
18. جينز بروكمبير ودونال كربو، السرد والهوية، دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2015.
19. حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2013.
20. حسن بدوح، المحاورة، مقاربة تداولية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012.

21. حسن محمد وجيه، مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي، علم المعرفة، الكويت، ع 190، أكتوبر 1993.
22. حسين خالفي، البلاغة وتحليل الخطاب، منشورات الاختلاف، دار الفاربي، بيروت، ط1، 2011.
23. ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة عزالدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2001.
24. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل، ط2، 2012.
25. روبرت دي بوكراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998.
26. رولان بارت وآخرون، طرائق تحليل السرد الأدبي، دراسات معربة، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، 1992.
27. رومان ياكوبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي للنشر، ط1، 2002.
28. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، الزمن والسرد والتبئير، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 3، 1997.
29. السيد ياسين، التحليل الاجتماعي للأدب، مكتبة مدبولي، القاهرة، طبعة 1992.
30. الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط 1،2004.
31. الشيخ محمد الخضري، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
32. صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الإصدار الأول، 2008.

33. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 2010.
34. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998.
35. عبد الرحمن التمارة، مرجعيات بناء النص الروائي، دار ورد، الأردن، ط1، 2013.
36. عبد الرحمن بداوي، دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 1400هـ/1980م.
37. عبد الرزاق الدَّواي، موت الإنسان، في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، (د.ط)، 2000.
38. عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، ط 2، 2012.
39. عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، ع 232، أبريل 1998.
40. عبد المجيد الحسيب، الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2014.
41. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2004.
42. غلفان مصطفى، في اللسانيات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2010.
43. فانسان جوف، الأدب عند رولان بارط، ترجمة عبد الرحمن بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2000.

44. فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، 1986.
45. فرديناند دي سوسور، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، 1985.
46. كاترين كيربرات أوريكيوني، المضمر، ترجمة ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008.
47. لوسيان كولدمان وآخرون، الرواية والواقع، ترجمة رشيد بنحدو، منشورات عيون، الدار البيضاء، ط1، 1988.
48. ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية، الأدب والنظرية البنيوية، ترجمة ثائر الديب، دار الفرقد، دمشق، ط2، 2008.
49. مارتن هايدغر، الفلسفة والهوية والذات، ترجمة: محمد مزيان، دار الأمان، الرباط، ط1، 1436هـ/2015م.
50. ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، ترجمة: محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2012.
51. مبارك حنون، مدخل للسانيات سوسير، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1987.
52. مجموعة من الباحثين، إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين، مختارات معربة، إشراف عز الدين مجدوب، المجمع التونسي للعلوم والفنون، تونس، ط1، 2012.
53. مجموعة من الباحثين، الرواية والمرجع، مقالات محكمة، بيت الغشام للصحافة والنشر، عمان، ط1، 2017.

54. محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 1421هـ/2001م.
55. محمد برادة، الرواية العربية الجديدة ورهان التجديد، دار الصدى، دبي، ط1، 2011.
56. محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1991.
57. محمد نجيب العمامي، الذاتية في الخطاب السردي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2011.
58. محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2010.
59. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002.
60. محمود طلحة، تداولية الخطاب السردي، دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012.
61. محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2013.
62. مسعود الصحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، ط1، 2005.
63. مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة، يناير 1995.
64. ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1987.
65. ميشال أريفيه، البحث عن دو سوسير، ترجمة محمد خير محمود البقاعي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2009.

66. ميلكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعد مصلوح ووفاء كامل، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، 2000.
67. نور الدين أجعيط، تداوليات الخطاب السياسي، علم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012.
68. نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، تر: طلال وهبه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009.

المعاجم اللغوية والاصطلاحية

69. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا، ط2، 1410هـ /1989م.
70. ابن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1411هـ/ 1991م.
71. أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، حققه عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، طبعة جديدة منقحة، (د.ت).
72. أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1429هـ – 2008م.
73. أزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، طبعة منقحة، (د.ت).
74. باتريك شارودو ودومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة، عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، تونس، 2008.
75. جاك موشلار وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: مجموعة من الباحثين، دار سينترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، السحب الثاني، 2010.

76. دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008/1428.
77. محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010.
78. نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، عالم الكتب الحديث، عمان، ط1، 2009.

المقالات

79. أتريكي محمد، القراءة التفاعلية للنص الأدبي، قراءة من منظور سيميوطيقا التلفظ، مجلة اللسانيات وتحليل الخطاب، ع 3، مارس 2017.
80. ألفا أوصمان باري، تحليل الخطاب: أسسه النظرية، ترجمة لحسن بوتكلاي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 5، 2014.
81. إميل بنفنيست، الشكل والمعنى في اللغة، ترجمة الحسن الهلالي، مجلة نوافذ، العدد 30، ديسمبر 2004.
82. إميل بنفنيست، اللغة والتجربة الإنسانية، ترجمة ذهبية حمو الحاج، مجلة الممارسات اللغوية، ع 14، 2012.
83. إميل بنفنيست، عن الذاتية في اللغة، ترجمة صابر الحباشة، ضمن كتاب: لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، دار الحوار، سورية، ط1، 2010.
84. أنطوان كوليولي، نظرية التكلم، لسانيات الخطاب وخطاب اللسانيات، ترجمة: زهور حوتي، مجلة فكر ونقد، العدد 89، مايو 2007.
85. بريان ريتشاردسون، السرد بضمير المخاطب: فنيته ومعناه، ترجمة: خيري دومة، مجلة نزوى، ع 50، أبريل 2007م.

86. جميل حمداوي، المقاربة التداولية في الأدب والنقد، مجلة العربية والترجمة، السنة الرابعة، العدد 9، ربيع 2012.
87. الحسن الهلالي، التواصل غير اللفظي في التراث العربي الإسلامي: ملاحظات أولية، مجلة علامات، ع 26، 2006.
88. خالد طحطح، اللحظة البنيوية، قصة عصود نظرية وأفولها، مجلة علامات، ع 45، 2016.
89. ربيعة العربي، الحد بين النص والخطاب، مجلة علامات، ع 33، 2010.
90. زينة سعيفان، محكي الذات وسؤال المرجع: دراسة تداولية للفضاء والزمان، منشور ضمن كتاب جماعي "الرواية والمرجع".
91. صابر الحباشة، الحجاج في التداولية، مدخل إلى الخطاب البلاغي، مجلة ثقافات، تصدرها كلية الآداب بجامعة البحرين، 2001.
92. عبد الرحمن بودرع، أهمية تحليل الخطاب في معالجة القضايا السياسية والاجتماعية، مجلة بيان، السنة الأولى، ع1، يوليو 2014.
93. فرانسين مازيير، تحليل الخطاب، (الفصل الأول)، ترجمة ذهبية حمو الحاج، مجلة الخطاب، دار الأمل للنشر والتوزيع، ع 3، مارس 2008.
94. مرسل العجمي، تجليات الخطاب السردي، الرواية الكويتية نموذجا، أعمال الندوة الرئيسية لمهرجان القرين الثقافي الحادي عشر، 2004، ضمن كتاب "الرواية العربية ممكنات السرد"، عالم المعرفة، الكويت، ع 357، 2008.

المصادر والمراجع والمقالات والأطاريح المعتمدة باللغة الفرنسية

1) **Ali Alsafar**, (2014) Ethos discursif et construction des rapport intersubjectifs dans les profession de foi des élection présidentielles françaises de 2007 et de 2012, thèse doctorat, Université Montpellier- Paul Valéry.
2) **Antoine CULIOLI**, (1990), pour une linguistique de l'énonciation, T 1, OPHRYS, Paris.
3) **Benoit Habert**, Enonciation et argumentation: Oswald Ducrot, in mots, N°5, 1982.
4) **Catherine Fuchs, Pierre LE GOFFIC**, (1975) Initiation aux Problèmes des linguistique, contemporaines, librairie HACHETTE.
5) **Dominique MAINGUENEAU**:
   - (1976), Initiation aux méthodes de l'analyse du discours, Librairie HACHETTE, Paris.
   - (2005), Analyser les textes de communication, Armand Colin.
6) **Emile Benveniste**:
   - (1966), Problème de linguistique générale, Edition Gallimard, T1.
   - (1974), Problèmes de linguistique générale, Edition Gallimard, T2.
7) **Ferdinand de Saussure**, (1916), Cours de linguistique générale, Edition Payot, Prais.

8) **Harris Zellig S**, 1952, Analyse du discours, traduit par Françoise Dubois-Charlier, In: Langages, 4e année, n°13, 1969, pp: 8-45.

9) **Jean Dubois**, (1969), Enoncé et énonciation, in langages, 4eme année, n°13.

10) **Jean Dubois et autres**, (1973), Dictionnaire de linguistique, Librairie Larousse, Paris.

11) **Jessica Da Silva Anunciacao**, (2013), Le discours de la persuasion: une étude pragmatique et cognitive, thèse doctorat, sous la direction de Patrice Brasseur, Université d'Avignon.

12) **Orecchioni (C.K),** (1980), L'énonciation de la subjectivité dans le langage, librairie Colin, Paris,

13) **Oswald Ducrot**,

- Les lois de discours, in langue française, n 42, 1979.
- (1984), Le Dire et le dit, Editions de Minuit, Paris.
- (1989), Logique, Structure, Énonciation, lectures sur le langage, Editions de Minuit, Paris.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

مقدمة عامة	**3**
الفصل الأول: الخطاب واللسانيات: المفهوم والمكانة	**14**
تمهيد	15
1. في مفهوم الخطاب	15
1.1. مفهوم الخطاب لغة	15
2.1. مفهوم الخطاب اصطلاحا	16
2. مكانة الخطاب في اللسانيات	23
2. سيرورة البحث اللساني: من الجملة إلى الخطاب	25
2.2. لسانيات الجملة: الفرضيات والنتائج	29
3.2. لسانيات الاستعمال اللغوي	39
خلاصة	43
الفصل الثاني: لسانيات التلفظ وتحليل الخطاب: التحديد والسيرورة	**45**
تمهيد	46
1. تحليل الخطاب: تعريف وتأريخ	46
1.1. مفهوم تحليل الخطاب	46
2.1. تحليل الخطاب: إشكال تعدد زوايا النظر	49
3.1. موجز تاريخ تحليل الخطاب	53
2. لسانيات التلفظ وتحليل الخطاب	56
1.2. التحليل البنيوي للخطاب	57
2.2. التحليل التلفظي للخطاب	63
خلاصة	67
الفصل الثالث: في نظرية التلفظ: الأصول والقضايا	**69**
تمهيد	70
1. أصول نظرية التلفظ	71

1.1. الإيطوس الأرسطي	71
2.1. النحو العربي	73
3.1 الفلسفة الوجودية	77
2. في لسانيات التلفظ: المكانة والموضوع/ التأصيل والتأسيس	83
1.2. لسانيات التلفظ: النظرات الأولية	83
2.2. تأطير المفاهيم الأساسية	87
1.2.2. مفهوم التلفظ	87
2.2.2. التلفظ عند أوزوالد ديكرو	91
1.2.2.2. في الفرق بين التلفظ والملفوظ	92
2.2.2.2. في الفرق بين الجملة والملفوظ	94
3.2.2. مفهوم التلفظ والملفوظ عند دمينيك مانغونو	98
1.3.2.2 مفهوم التلفظ عند دمينيك مانغونو	98
2.3.2.2. مفهوم الملفوظ	99
4.2.2. أنطوان كوليولي: من التلفظ إلى التلفظ المشترك	101
1.4.2.2. مفهوم التلفظ المشترك	102
2.4.2.2. من المتلفظ إلى المتلفظ المشارك	104
5.2.2. السياق التلفظي	105
3.2. إشكاليات التلفظ	110
خلاصة	**112**
الفصل الرابع: لسانيات التلفظ والذاتية في اللغة	**114**
تمهيد	**115**
1. التأطير الابستمولوجي	116
2. خلفيات الاهتمام بالذاتية في اللسانيات	120
3. الذاتية وجدلية السرد والخطاب	122
4. الذات والامحاء التلفظي	127
5. ذاتية الخطاب عند إميل بنفنيست	129

1.5. التلفظية: نحو الذات المتكلمة	129
2.5. تجليات الذاتية في الخطاب الروائي: نماذج تمثيلية	130
1.2.5. تجليات ذاتية اللغة	130
2.2.5. تجليات ذاتية المرجع (أو التذويت المرجعي)	132
3.2.5. تجليات ذاتية الضمائر	136
4.2.5. الذاتية والزمن	142
5.2.5. تجليات الذاتية في المكان	147
3.5. الملفوظ الذاتي والملفوظ غير الذاتي	151
خلاصة	**156**
الفصل الخامس: الذاتية ومستويات التلفظ السردي	**158**
تمهيد	**159**
1. مستويات التلفظ عند إميل بنفنيست	159
1.1. مستوى التلفظ التاريخي	160
2.1. مستوى التلفظ الخطابي	162
2. في تداخل التاريخي والخطابي	169
3. تصنيف آخر	172
1.3. مستويات التلفظ عند دومنيك مانغونو	172
1.1.3. الملفوظ الموصول	173
2.1.3. الملفوظ غير الموصول	173
2.3. نقد التقسيم البنفنيستي	174
خلاصة	**178**
الفصل السادس: تواصلية الخطاب الروائي في ضوء نموذج أوركيوني	**179**
تمهيد	**180**
1. تحليل الخطاب الروائي: من النص إلى الخطاب	181
2. ك. ك. أوركيوني: من التواصل إلى التلفظ	184

3. كفايات النموذج التواصلي التلفظي	191
1.3. الكفايات اللسانية	191
2.3.الكفايات غير اللسانية	192
4. عنصرا العملية التلفظية	200
1.4. الذات المتكلمة والمتكلم/المتلفظ والمتلفظ المشارك	201
2.4. المتلفظ والمتلفظ المشارك في رواية "الحنش".	204
خلاصة	**207**
الفصل السابع: إشاريات الخطاب الروائي	**210**
تمهيد	**211**
1. مفهوم الإشاريات	212
2. وظائف الإشاريات	214
3. الإشاريات: أنواعها وتمظهراتها في راوية "الحنش"	219
1.3. الإشاريات الشخصية	220
2.3. الإشاريات الزمانية	233
3.3. الإشاريات المكانية	239
4.3. إشاريات الخطاب	244
5.3. الإشاريات الاجتماعية	250
خلاصة	**255**
خاتمة البحث	259
ثبت المصطلحات	**267**
قائمة المصادر والمراجع	**273**
فهرس المحتويات	**285**